علا شيب الدين

الزوبعة

داركتابوك. باريس

توزيع مؤسسة الريان للطباعة والنشر- بيروت

اسم الكتاب: الزوبعة

اسم المؤلفة: عُلا شيب الدين

الناشر: داركتابوك للنشر الإلكترونيّ. فرنسا

www.keta-book.com

info@keta-book.com

توزيع مؤسسة الريان للطباعة والنشر. بيروت

تصميم الغلاف: ديالا مسعود

تاريخ الإصدار: 15/04/2017

الرقم الدوليّ للكتاب: 978-2-37541-036-3

جميع حقوق النشر والطبع محفوظة لدار كتابوك للنشر الإلكترونيّ ولا يُسمح بنشر هذا الكتاب أو أجزاء منه أو تخزينه أو تداوله الإلكترونيّ دون إذن خطيّ من الناشر.

الحياة إذ تكون صَعقاً وعُشباً، شِعراً وفلسفة

نصوصٌ من سيرة كُتبت خلال الأعوام من 2008- 2016.

أولاً:من الصعق الأول الموغل

ذاكرة التفاصيل

كان المشي في الطرق أهمّ من الجلوس في قاعة محاضرات مؤدلجة، في جامعةٍ أعرف أنها لا تحتاج سوى للحفظ الببغائي كي أتخرّج منها، إلا أنّني، ورغم علمي بالحقيقة الواقعية هذه، كنتُ لا أريد أن أرضخ، وكنت عازمةً على الفهم مهما كان الواقع مُحْبِطاً، وكوننا جزءاً من هذا الواقع، فالطالب يساهم في تردّي الوضع في الجامعة، حين يكون هاجسه النجاح فحسب، وليس المعرفة في حد ذاتها ولذاتها.

كنت لا أقرأ الفلسفة فقط، بل أنبضها، أعيشها، أتنفسها، لطالما آمنتُ في أن جدوى الفلسفة يكمن في تشرّدها على طريقة سقراط مثلاً، لا في كتبٍ مصفوفة فوق رفوف، فالفكر يموت إن لم يُقرأ وإن لم يكن مَعيشاً. حين نقرأ فكر ابن باجة مثلاً، أو غيره من الفلاسفة، نُحييه، وحين نتبنّى فكرةً ما عند أحدهم- وهذا أمر مشروع- ونحاول

أن نمارسها؛ تزداد حيويّة هذه الفكرة أكثر، وقد يكون من الأجدى ربما أن نمتلك فكرة خاصة بنا ونعيشها بصدق، ذلك أن الكثيرين منّا يفعلون ما لا يفكّرون فيه، فالأفكار تحتاج دائماً إلى أرضٍ لكي تعيش، أما الأفكار التي تحوم وتحوم دون أن تجد أرضاً، تتعب في النهاية وتموت، وهذا ما نحتاج إليه في أوطاننا، نحتاج إلى أرضٍ خصبةٍ تساعد الأفكار الجميلة والمهمة والضرورية على الحياة، ألم يُحبط المفكرون في بلادنا، فيما يسمى بعصر النهضة مثلاً، بسبب عدم وجود أرض تتلقّف أفكارهم وخصوصاً العلميّة منها؟!

ذات مرّة شاهدتُ، في السينما، برفقة أصدقائي، فيلماً اسمه «المصير»، يتحدّث عن الفيلسوف ابن رشد وعن محنته مع متزمّتي عصره. كان الفيلم من إخراج يوسف شاهين، وقد ذكر المخرج في نهايته عبارة كانت برأيي تحتاج إلى إكمال حيث كتب باللهجة المصريّة: «الأفكار ليها أجنحة محدّش يقدر يمنعها من إنها توصل للناس». قلت لأصدقائي: نعم الأفكار لها أجنحة ، ولكن لا بدّ من أرضٍ تحطّ عليها.

كنت أمشي ساعاتٍ وساعات في شوارع دمشق دون أن أملّ أو أضجر أو أتعب، وحيدة شريدة، أبحث عن شيء لا أفقهه، ألتقط التفاصيل التي ما أنْ تُلتقط حتى تتلاشى، لتَظهرَ تفاصيل أخرى أشدّ عصياناً على التخزين. كنتُ أبحث عن وجهٍ له ملامح التأمّل، لكن عبثاً لا أجده، فكل الوجوه نسَخ، قلقة، بائسة، انتهازية، وكل العيون

سلبَت الجدران والضّجيج والزّحمة بريقَها.

متعبةٌ شوارع دمشق، لكنها جديرة بالمشي، فهي جميلة بحاراتها وأزقّتها، مليئةٌ بالتناقضات الغنيّة الثريّة لكلّ متعطشٍ، لاهثٍ وراء معرفةٍ لا يَطالها.

شوارع دمشق ملأى بالناس المهمّشين، الذين لا يزالون في حضنْها رغم قسوتها، ينتظرون منها رأفة علّها تظهر يوماً. دمشق طيّبة، لكنها لا تعرف كيف تُظهر طيبتها، فتخطيء الحساب لتُظهرَ قسوةً مرعبةً كمِثل أغلب الآباء الشرقيين. كان الحديث مع أشخاص لا أعرفهم يجذبني، لأشعر في أني موجودة في هذا العالم، فالذين نعرفهم لا يضيفون لنا شيئاً، أليس العلم هو البحث في الظلام؟!

أتذكر لحظات النشوة التي كنتُ أشعر فيها حين كنتُ أتحدّث إلى أطفالٍ مشرّدين، لا كنوعٍ من الاستعراض الزّائف، ولا كتواضعٍ أحمق يوهِم الإنسان أنه فوق البشر إنما يتّضِع وينزل إليهم تكرّماً، في حين أنه منهم، وربما يستمدّ وجوده ممّن يتواضع من أجلهم. وكنتُ أتذكر كلام اسبينوزا عن التّواضع، فهو يرى أن التواضع من جانب القوي لا يكون إلا خداعاً يضلّل به الناس، وهو من جانب الضعيف خجل، وهو في كلتا الحالتين يستتبع نقصاً أو فقداناً للقوة. لكن اسبينوزا لم يفته أيضاً أن التواضع نادرٌ بين الناس، لا بل يكاد ينعدم. كما أنني

لم أتحدّث إلى أولئك الأطفال كما يفعل واضعو ربطات العنق أمام الكاميرات، إنما كنتُ أتحدّث إليهم حديثَ روح تنبض عشقاً للحياة وللناس كيفما كانت أحوالهم. كنت أفرح كثيراً حين يكلّمني طفلٌ لا يعرف كيف ولماذا أتى إلى حياةٍ تنبذه وتتركه عارياً، وكان هذا العريّ أكثر دفئاً من كل الثياب، كان أكثر قرباً من حياةٍ أجْحَفتْ في حقه، وأكثر حميميّة معها من كل الذين أكرمتْهم وأعطتْهم جل ما عندها؛ فطعنوها في أنحاء جسدها كافة.

كنتُ أحقق ذاتي لا في الحصول على علامةٍ عاليةٍ في مادةٍ من مواد الجامعة، ولا حين أحصل على عملٍ علّه يعينني على إكمال الدراسة، فالذي يعمل في مجتمعنا لا يختلف كثيراً عن الذي لا يعمل، لطالما عاش الجميع مأساة الاغترابَ في الصّميم. كنت أحقق ذاتي في التماهي وأحلام أناسٍ متعبين، تم إقصاؤهم من حياةٍ هي لهم أيضاً وهم من رحمها أتوا. لم آخذ دور الموجّه ولا المربّي ولا الواعِظ لأولئك المتسوّلين والمتسكعين والمقهورين، فأنا لست أعلم من سارتر حين تساءل يوماً «مَن أنا لكي أخطئك؟»، كما أنني لم أشعر بشعور أولئك الذين يقلقون ويفرحون في الوقت نفسه حين يصادفون مآسٍ، لا لأنهم أشرار إلى هذه الدرجة، بل لأن المحَن أعْتقتهم لتطالَ آخرين، وهذا ما عبّر عنه نيتشه حين تكلّم عن كوننا نتعاطف مع أشخاصٍ ضعاف أو معذَّبين، ليس من أجلهم، إنما من شدّة خوفنا أن يصيبنا

ما أصابهم. أمّا أكثر ما بَغضتُه ومَقتُه هو شعور الشفقة، فهو شعورٌ سيء يقلل من شأن الإنسان ويهين كرامته. هو شعورٌ يحمل أحياناً طابعاً دينيّاً انتهازيّاً، فنحن نشفق لكي ننال أجراً في الآخرة، وهذا هو عطاء الضّعيف، الانتهازي، الزّائف الإيمان، أمّا القوي فهو مَنْ يعطي دون انتظارٍ لمقابل، وهو عندما يؤمن، لا يتعاطى مع إيمانه بشكلٍ وضيع.

إننا بشكلٍ أو بآخر موجودون لأن الآخر المختلف عنّا موجودٌ أيضاً، إذ التقابل يُظهِر وضوح الأشياء وحضورها، ونحن حين نصادف أشخاصاً أقلّ منّا من وجهة نظرنا، نشعر بزهوّنا ولا نفكر في أن شعورنا هذا مصدره ما نزدريه، فيكون ما نزدريه إيجابياً ونصير نحن السلبيين، كوننا نتلقى شعوراً إيجابياً يمدّنا به الآخر الذي نعتقده سلبياً، فكم يضحكني أولئك الذين يعتقدون أنهم أفضل من غيرهم ويدافعون عن معتقداتهم بشراسة من خلال سَعْيهم إلى إلغاء مَن يخالف معتقداتهم، خصوصاً الدّينية منها، جاهلين أن هذا الآخر الذي يريدون إلغاءه هو مصدر وجودهم، فالمؤمن مثلاً موجود في معنى ما لأنّ الملحد موجود، ونحن لا نشعر في أننا عاقلون إلا لأنّ هناك أناساً موجودون بوصفهم مجانين، والمغايرون في الجنس لا يشعرون في أنّهم طبيعيون إلا من خلال أولئك الذين ينعتونهم بالشّاذين.

إذن، لِمَ كلّ هذه المحاولات من أجل إلغاء الآخر الذي يعزّز حضورنا؟! ولِمَ كلّ هذا الضّجر والخوف من التنوّع؟! فالحياة لا تقوم لها قائمة إلا على هذا التنوّع الخلاق المنتج إلى ما لا نهاية، ليفتت النماذج والأنماط والأيقونات. أتذكر هنا أن دمشق تحتضن قبرَ ابن عربي الذي ذابَتْ في قلبه الصّور كلّها حين قال:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورةٍ

فمرعىً لغزلان، وديرٌ لرهبانِ

وبيتٌ لأوثان، وكعبة طائفٍ

وألواح توراة، ومصحف قرآن

أدين بدين الحب، أنّى توجّهت

ركائبه فالحب ديني وإيماني

وكم كنت أحب المشي تحت ذاك الجسر! حيث تناثرت الكتب الرّخيصة الغالية، يمرّ من جانبها أناسٌ مسرعين بحثاً عن المال والثروة، ويمرّ آخرون فتستوقفهم تلك الكتبُ وتشدّهم إلى قراءتها، وآخرون يدركون أن هذه الكتب أثمن منهم بكثير فيرحلون ليلملموا شتاتهم المبعثر في أرجاء المدينة.

وقد كان الجميل حقاً بالنسبة إليّ، أنّ المتحف الوطني لا يبعد كثيراً عن هذه الكتب. كنتُ أدخل المتحف بشغف وأفخر في أني أنتمي إلى منطقةٍ كانت موطِناً لديانةٍ للخصب، تحتفي بالحياة وبالطبيعة في حقبةٍ غابرة. كنت أريد رؤية منحوتاتٍ جميلة تشعرني للحظات في أني إنسانة، لطالما آمنتُ أن النحت لغة إنسانية عالية، فيها استنطاقٌ لصمت الحجر السّرمدي، وقدرة على الحوار حتى مع جماداتٍ عصيّة، وهي بثّ للرّوح الإنسانية في المحيط. لكنّي كنتُ ما أن أرى السيّاح يتجوّلون في المتحف حتى ينتابني شعور عميق في الغربة، في أنني أنا السّائحة. لستُ أدري لِمَ كل هذا الشعور بالدّونية حيال أناسٍ كنتُ أعرف تماماً أنهم غرباء وعابرون، وأنني أنا ابنة المنطقة وأنا مَنْ ينتمي إلى أوغاريت وماري وإيبلا في الوجدان!

ولكني في المقابل كنتُ أعرف أن شعور الاغتراب هذا لست أنا المسؤولة عنه، إنما هو في معنى ما، ثقافة جعلتنا غرباء عن ذواتنا، عن أمكنتنا، وهنا أعود بذاكرتي إلى الطفولة، فذات مرّة في إحدى الرحلات المدرسيّة الرسميّة جداً التقينا بسيّاح وكانوا بالنسبة إلينا كأنهم كائناتٍ من كوكب آخر، وأتذكر يومها كيف أتتْ صديقتي مسرعة كمثل البرق لتقول لي إنها قالت لسائح (Good morning) كنا نحفظ فقط هاتين الكلمتين عن ظهر قلب من اللغة الإنكليزية، فقد كنا كسالى في مادة اللغة الإنكليزية، طالما أن جلّ اهتمامنا كان يجب

أن ينصبّ على اللغة العربية كونها مادة مرسّبة وكونها تبتلع كل المواد الأخرى في جوفها، العجيب هنا أننا بقينا، مع ذلك، مغتربين عنها وعن كل ما يمسّنا!.

كنت أرْقب المنحوتات واللُّقى الأثرية في صمتٍ بالغ وتراودني أسئلة كثيرة حول تعاملنا المصْلحي مع الأشياء وفقداننا إلى الحسّ الجمالي، واغترابنا عمّا نمتلكه، فمن جهةٍ، نحن نحتقر الوثنيّة وندمّها ونكفّرها، ومن جهةٍ أخرى، نتباهى أمام العالم بأننا أصحاب حضاراتٍ ضاربة الجذور في القِدَم ونغتبط حين نعثر على تمثالٍ لإله ونسارع إلى عرضه في المتاحف من أجل تصيّد السياح من كل أرجاء العالم. كنتُ أعيش لحظاتٍ أتخيّل فيها نفسي تارةً عشتار، طوراً ربّة النّصر، أو حسناء تدمر، لكن هذا الشعور كان يتلاشى نهائياً عند بوّابة المتحف، لأرى وجوهاً تقول لي إن الحجارة الموجودة داخله ليست لي، هي للآخر البعيد، للسّائح، فهو أهم منّي بكثير، كما أن الحجارة أهمّ مني أيضاً، أنا التي تسري الدّماء في شراييني، أنا الحاضر، أنا اللحظة الراهنة.

لكن الشارع الأكثر تشبّثا بالذاكرة، والذي كان الأكثر إغراء للمشي فيه، هو ذاك الذي تعلّق في خاصرته مقهى يجمع شتات المفكرين والمثقفين والشعراء والحالمين بأحلام تتكسّر في كل يومٍ على أرصفة النسيان، وكان بعضهم يُصِرّ على حلمٍ جديد في يوم جديد، بينما لم يعد البعض الآخر يقوى على احتمال الهزيمة فيقرّر الانكفاء وهذا

ما كنت أراه مُفجعاً! كانت تباغتني نظراتهم المشدوهة، الناظرة عبر زجاجٍ شفّافٍ جداً يكشف لهم عمق ما يجري في الخارج فأشعر في أن التشرّد يَطال هؤلاء أيضاً.

إلى جانب هذا المقهى كانت تجلس امرأةٌ في عمر أمّي، تبيع علب السجائر المهرّبة على الرصيف، وكنت كلما عمّقت النظر في صدرها المُرهَق، شعرتُ في أن هناك جريمة تُرتَكب في حق الأنوثة، تجعل الكون كله خواء.

في الحقيقة، أنا لست ممن لا يعتنين في جمالهن الأنثوي، والأغصان في رأسي مشذبة، إلا أنني أحتفظ في داخلي بكائن بدائيّ برّي لا أريد التخلي عنه وهو أيضاً لا يريد الرّحيل ويرافقني أنّى ذهبْت، كائن يحصّنني من كلّ محاولةٍ لسلب ذاتي وتشويهها، ذاتي العذراء التي لم ولن أسمح باقتحامها. ذاتي لي وحدي وتستحق حبّي العظيم، هي حَدْسي الفطري.

عذراً،هذه ليست نرجسيّة على طريقة فرويد مثلاً، إنما نرجسيّة باشلاريّة ربما، تجعلني أرى ذاتي في العالم. أجل العالم مرآة لذاتي، أتوحّد مع ذاتي لتصبح روحي شفافة من أجل التقاط جماليات الحياة، وإضفاء معانٍ وقيمٍ ساميةٍ على هذا العالم. ذاتي هي شعوري تجاه عالمٍ أشاركُ فيه. هي التي تجعل الحياة تستحقّ العيش في

لحظات الانكسار والانهزام، تنقذني لتعطيني معنى جديداً أواصلُ العيش من أجله. تكشف لي أحياناً جمال القبح لتقرّبني جداً من صديقي الساخر فولتير.

هذا ما كان خلف السور

كان عمرنا ستّ سنوات، حين دخلنا المدرسة ذات السّور الإسمنتي الذي يحْجبُ كلّ ما في الحياة خارجها، وذات الباب الأسود الضّخم، والملعب الخالي من الأشجار والزهور، والصّفوف المرتبة بطريقةٍ صارمة قاسية. كنّا برتقالات يانعة تمّ عصرها وتجفيفها من مياهها ومن كل رطوبة. حُمّلنا أكياساً من أيديولوجيات أحنَتْ ظهورنا الطريّة، ومنذ ذلك الحين لم نعد نقوى على الاستقامة. أُغلقتْ نوافذ طفولتنا وابتدأ العمل الجدّي الخطير على بناء إنسان مجرّد من كلّ حيويّة وفاعليّة وديناميكيّة. أفرِغْنا من نبضنا وتمّ حشونا بالكلس والإسمنت، فبتنا كائنات مسوخ جامدة صلبة تصلح لأن تكون طوباً جيداً لأبنية الأيديولوجية الشّاهقة.

في المدرسة، تعلّمنا أشياء كثيرة، منها أن الدّراسة أهمّ من المتعة، إذ كلّ محاولةٍ للتّعبير عن المتعة كانت تُصادَر وتوضَع على هامش الدراسة، فالموسيقى والرّسم والرّقص والرّياضة هذه كلها هامشيّة، أو بالأحرى هي أدوات مهمّة من أجل الاحتفال بالأعياد الرسميّة فحسب. الرّحلات الترفيهية هي أيضاً كانت تأخذ طابعاً تجهّمياً، فالفرح والبهجة لهما أيضاً قواعدهما الصّارمة. حتى فيروز جُعِلَ منها مجرّد مدرّسة تلقّننا الدروس في فترة الاستراحة (الفرصة)، لدرجة أن أذني كانت تنفر من صوتها في المدرسة ولا أشعر بقيمته الجمالية

إلا خارجها.

أما اللغة العربية والتربية الدينية والرياضيات والاجتماعيات، فهذه كلها مواد أساسيّة ينبغي علينا تهميش كلّ شيء من أجلها، ومن شدّة الخوف من هذه المواد كنّا نهمل فهمها من أجل أن نحفظها عن ظهر قلب ونحصل تالياً على علامةٍ عالية، ذلك أنّ المعيار الأوحد للتقييم هو(الدّرجة) إذ لا يهم أنْ نفكّر، لا يهم أن نبْدي رأياً، لا يهم أن نفهم، لا يهم أن نبدع، لا يهم أن نستمتع. فقط المهم هو أن نحصل على علامةٍ عاليةٍ والتفوّق طبعاً يُقرن بهذه العلامة.

حُصِر الذكاء بمقدار الدّرجات التي يجب أن نحصل عليها. كنّا نقف في الصّف نصفّق ونحتفل بزميلنا المتفوّق الذي حصل على أعلى درجة، ونُسَخّر جميعاً من أجل تكريمه والاحتفال به، وكان المدرّسون يفضّلونه علينا مع أننا كنّا ناجحين أيضاً! كون المعيار الحقيقي للتفوق لم يكن النجاح المقترن بالفهم، أو بالأحرى ليس النجاح إنّما (العلامة) بحيث تصبح العلامة أهم من الفهم الحقيقي للمعادلات الرياضية، وأهم من الغنى اللغوي، وأهم من فهم الظواهر الطبيعية. هذا بالإضافة إلى النظرة الخاصّة للمتفوقين في الرياضيات أو الفيزياء، فهؤلاء أهمّ بكثير من المتفوقين في الأدب، ذلك أنّ الطموح الأهم هو أن نصبح في المستقبل أطباء ومهندسين، كون هؤلاء هم الشّريحة العلميّة الأكثر احتراماً من بين المتعلمين.

وأسألُني دائماً: لِمَ كلّ هذا الاهتمام بالفروع العلميّة مع أننا ننتمي إلى ثقافةٍ غيبيّةٍ بكل ما في الكلمة من معنى؟ ولا أجد غير إجابة وحيدة: إنّ احترامنا للطبيب أو المهندس إنْ هو سوى ضرب من تكريس طبقيّة اجتماعيّة وزرْع للفروق غير العادلة بين الناس.

العلامة في المدرسة هي بمثابة النقود الذي يُدفع للطالب من أجل الدّراسة، فبقدر ما يحفظ الطالب بقدر ما يكسب من النقود، والفهم هنا ليس بذي أهمية، وكلما كان في حوزة الطالب نقوداً(علامات) أكثر، كلما كان مهمّاً أكثر من بقيّة زملائه، هكذا صرنا متنافسين من طراز عالٍ، لا من أجل الفهم أو الإبداع والإفادة، إنما من أجل الحصول على نقودٍ (علامات).

وقد تمّ إيهامنا أنّ المنافسة في العلم هي منافسة شريفة؛ فبتنا نكره بعضنا البعض ونرغب في ألا ينجح الآخر، ونخبّيء في الامتحان الورقة الامتحانية عن بعضنا بعضاً، لا لأن الغشّ عيب ولا يجوز أخلاقياً، بل لكي لا يأخذ الزملاء معلوماتنا التي يجب أن نحتكرها لأنفسنا من أجل الحصول على نقودٍ (علامات)، فتحوّلت أجواء المدرسة إلى أجواء عدائيّة فيها كره لنجاح الآخر، بل كره للتفوّق نفسه، واقترن النجاح والتفوق بالرّغبة الجشعة في الحصول على نقود(علامات) أكثر وأكثر، وباتتْ الرّغبة في المعرفة والعلم مقرونة بالشهادة (الورقة الكرتونية) التي يجب أن نثبت من خلالها للآخرين أننا أذكياء، فصارت عقولنا

محشـوّة بالمعلومات من أجل الاسـتعراض بها لا من أجل اسـتثمارها في الحيـاة، وتحـوّل الهـدف الأول والأخير للدّراسـة إلى شـهادة مدْرجَة في بـرواز ذهبيّ معلّق على الحائـط يقـول للزّائريـن انتبهـوا: هـذا الشّـخـص متعلّم وعليكم أن ترهبـوا جانبـه.

***

كانـت المناهـج الدّراسـية مفرطـة في المثاليـة والرقيّ، تحشـو في رؤوسـنـا حبّ الـوطـن وضـرورة الانتماء إليه وتحثنا على فعل الخير ونبْذ الفسـاد، وتؤكـد أن الحيـاة جميلـة والوطـن أجمـل. لكـن الصّـدمـة بالنسـبـة إلينـا كانـت تحـدث عنـد رؤيـة النّقيـض الـواقعـي لما جاء في المناهج. فيما بعـد اعتدنـا هـذا الشّـرْخ وصـار سـلوكاً حياتيّاً عـاديّاً، وفصلنـا نهائيـاً بين المناهـج الدّراسـية والـواقـع، فباتـتْ الدّراسـة ترفـاً هدفـه نيْـل الشـهادة (الشـهادة العلمية هنا موازية للشـهادة في معنى المـوت) من أجـل الحصـول على مكانـة اجتماعيـة مـا أو من أجل الحصـول على شـغلٍ نـأكل منه خبزاً، إذ لا أهميّة لنا كبشـر إنْ لـم نكـن أصحـاب شـهادات محنّطة أو أصحاب ثروات ومناصب.

***

في المدرسـة، لا مشـكلة في إهانـة الطالـب وزجْره، لا مشـكلة في ضربـه، لا مشـكلة في تهميشـه وإضعـاف شخصيّته والسّـخرية منـه، لا مشـكلة

في إهانة كرامته الإنسانية وتحقيره أمام زملائه، لا مشكلة في إسْكاته ومنْعِه من النّقاش والحوار وإبداء الرأي، لا مشكلة إنْ كان خاملاً وليست لديه مواهب، لا مشكلة إنْ تمّ تمييز طالبٍ على آخر كونه ينحدر من أسرة ثريّة أو كون أهله أصدقاء لمدرّسٍ معين أو.. أو. لكنّ هناك مشكلة حقيقيّة إنْ لم يكن الطالب مؤدّباً، واقفاً في الصّف، مُطيعاً، ملتزماً، خاضعاً للإدارة، منفذاً أوامرها. هناك مشكلة إنْ أبدى الطالب رأياً مخالفاً لرأي أستاذه، هناك مشكلة إنْ عشق طالبٌ وطالبة بعضهما، هناك مشكلة إنْ لم (يحفظ) الطالب الدروس وإنْ لم يكتب وظائفه في البيت، هناك مشكلة إنْ وضعت طالبة دبّوس زينة في شعرها، أو إنْ حمَل طالبٌ شريط كاسيت لمطربٍ يعتبره المدرّسون من أصحاب الفن الهابط.

***

ذات مرة شرح مدرّس اللغة العربية بطريقة سخيفة مذِلّة وحقيرة، معنى كلمة «ذوائب»، من خلال ظفيرتيَّ. ذات مرة شرح لي مدرّس الفيزياء والكيمياء الذرّات والتحولات مضيفاً إلى صمم الأذنين صمماً في الضمير المهنيّ. وذات مرّة ارتكبتُ جرماً: لم أكن يومئذ (حافظةً) جدول الضّرب، فقام مدرّس الرياضيات بضربي لكي أتعلّم جدول الضّرب. حينئذ بكيتُ، لكنّي الآن أتساءل ماذا سيكون شعور هذا الأستاذ لو أدرك أنه ضرب طالبة يوماً ما وما زالتْ تتذكّر تلك

اللحظة لدرجة أنها تذكرها في نص؟! وهل أستاذي إياه كان يفهم في الرياضيات؟!

أتذكر أيضاً كيف وبّختني مدرّسة التربية العسكرية)الفتوّة) التي قررت التخلّي عن أنوثتها بجدارة. أهانتني ذات مرّة أمام زملائي لأني فشلتُ في رمْي الرّصاص على»الدّريئة»، فقد كان ينبغي علينا إتقان إطلاق الرّصاص وكان ذلك قبل أن تلغى هذه المادة نهائياً من المدرسة. كانت دروس التربية العسكرية النظرية، خصوصاً دروس الرَّمي، هي الوحيدة التي تُطبَّق عملياً، حيث كنّا نجرَّب فيها السلاح «الروسي» عبر إطلاق الرصاص على «الدريئة» – السلاح الذي ما كان ليخطر على بالنا، أننا سنكبر يوماً ونراه موجّهاً إلى صدور أبناء بلدنا بعد انطلاق ثورة الحرية والكرامة السورية عام2011!-. كان تطبيق دروس التربية العسكرية، يشكّل بالنسبة إلى غالبيتنا نحن الإناث، همّاً حقيقياً، وكنا نُسِرّ لبعضنا بخجلنا ونفورنا من تهشيم الأنوثة الماثل في قسر الجسد الأنثوي على اتخاذ وضعيات عسكرية تهرق جماله وتريقه. كان ممنوعاً، أي إشارة إلى الأنوثة، مهما كانت هامشية. دبّوس ملوّن يزيَّن به الشعر مثلاً، كان يستدعي صفعة على الخدّ، تتطاير على إثرها عشرات النجوم الحمراء والصفراء أمام العينين المغمضتين، كأن الهندام العسكري الموحَّد بين جميع الطلبة، الإناث والذكور، وإيعازات ال»استرحْ. استعدْ. ترادَفْ. أسبِلْ. إلى الأمام سِرْ. إلى الوراء

دُرْ»، ومعسكرات «الإنتاج» و«الصاعقة»، لم يكن كافياً لعسكرة العقل والروح والقلب، وكل شيء! الأنوثة المهشّمة في المدرسة، هي نفسها، على كل حال، التي طالما هشَّمتها من قبلُ، تقاليد اجتماعية «تجلّ» المرأة الأم – وفق المفهوم السلطويّ للأمومة- وتخشى المرأة الأنثى، كأن الأنوثة عبء ثقيل ينبغي التخلص منه!

في ذلك الوقت كنت مراهقة صغيرة مولعة بالرّقص الشرقي، وكنت أغلق باب غرفتي وأرقص أمام المرآة، لكن هذا النّوع من الرّقص مُحارَبٌ في المجتمع وهو بالتالي مُحارَبٌ أيضاً في المدرسة طالما أنّ المدرسة هي جزءٌ لا يتجزأ من المجتمع، والرقص الشرعي المعترف به هو الدّبكة الشعبيّة الجماعيّة، مع أن الرّقص الشرقي هو أيضاً جزءٌ من تراثنا الفنّي كشرقيين، لكن تمّ تجاهله وربطه بالسّلعيّة والفسْق. مُنِحَ الاهتمام كلّه لتراثنا الديني أو التاريخي والسياسي. لكن أليس الرّقص والإيماءات الجسديّة هي أهم ما يعبّر عن ثقافة الشعوب وتفكيرها؟! وهل الباليه أو الفلامينغو مثلاً أهمّ من الرّقص الشّرقي؟! فلماذا لا نهتمّ بتراثنا الرّاقص هذا ونحترمه مثلما فعل الآخرون؟!

في المدرسة، لم يكن هناك مدرّسة تُعنى بالرّقص أو المسرح إنما كانت هناك مدرّسة تُعنى بتعليم الطالبات الخياطة والتدبير المنزلي وتربية الطفل، حيث لا أهميّة للأنوثة وتعزيزها من خلال الرّقص لكن هناك أهمية كبيرة جداً من أجل صنع أمهات مربيّات لا يفقهن شيئاً

في الحياة غير الزواج والإنجاب، بل لا يفقهن الزواج والإنجاب إنما يمارسْنَه وفقاً للإطار الذي تعلمْنَه فحسب. تعلق في ذاكرتي صورة وجه غاضب، بل حاقد حقداً عمره ألوف السنين ربما. وجه أم ابنة الجيران التي كنت أذهب لألعب عندها، حين كان عمري حوالي خمس سنوات، وكنت لم أدخل المدرسة بعد. يبدو أننا كنا نحاكي أثناء اللعب الكبار في محيطنا، متقمِّصين شخصياتهم وكلامهم، كما يفعل كل الأطفال في أثناء اللعب. وعلى سبيل اللعب أيضاً، ندهت الطفلة التي كنتُها، على ابنة الجيران التي كانت تكبرها بسنتين، ملقِّبةً إياها بـ»مَرَة«، فامتقع وجه الأم، وسرى سريعاً في خطوطه لؤم يجرف أمامه كل طيبة ممكن أن تكون، قبل أن ينطق بكليّته:»لا تقولي مَرَة ولِكْ. هاذي بنت«. حينئذ عادت الطفلة التي كنتُها، إلى البيت مجروحة، تجرّ خلفها دميتها بحزن، مثقلة بصورة ذاك الوجه المخيف اللئيم، وهي تتساءل في سرّها الطفوليّ:»ليش عيب كلمة مرة. أنا سمعتن عبقولو لإمي مرة. وشو الفرق بين مرة وبنت«.

***

لكن هاجس مدرّس الاجتماعيّات (التاريخ، الجغرافيا والقومية) الدائم، كان تلقيننا حبّ الوطن والاعتزاز بتاريخنا والنضال من أجل الوحدة العربية، والمجتمع العربي الاشتراكي الموحَّد، وكنت كمثل الآخرين لا أدري كيف سأحبّ وطني وأنتمي إليه بشكل عفويّ وتلقائيّ

من دون تلقين. كنّا ننسى ما قاله لنا الأستاذ حين ننتهي من الامتحان بالمادة. كنّا نحفظ كلام الأستاذ حرفيّاً، فقط من أجل أن ننجح في المادة وبعد انتهاء الامتحان نمزّق الكتب، كون لم يعد منها فائدة، فهي كلها تنظير في تنظير.

البارحة بالضّبط تذكّرت كلام أستاذ مادة الاجتماعيّات عن الوحدة العربية، حين كنت أستمع إلى نشرة الأخبار وكان المذيع يتحدّث عن الحدود المستحدثة في الآونة الأخيرة بين الدّول العربية، إذ كلّ دولة باتتْ ترغب في ضبط حدودها أكثر فأكثر مع حدود شقيقتها العربية المجاورة لها، فنسمع مثلاً عن حدودٍ مرتقبة بين اليمن والسعودية وحدودٍ فولاذية بين مصر وغزة، و..و حدود. حدود.

وعلى الرّغم من كلّ ما أحمله في ذاكرتي من أشياء تثير الاشمئزاز ممّا كان يحدث خلف السّور، إلا أنني لا أشعر بالحقد حيال مدرسيّ، بل أفكّر تجاههم بعمق يجعلني أدرك أنّهم كانوا بشكلٍ أو بآخر مثلنا ضحايا أيضاً. ضحايا العنف والقهر، ضحايا المعرفة الوهميّة، ضحايا الهزائم والإيديولوجيات المريضة. إذ الإنسان في المجتمعات المقهورة لا يمكن إلا أن يكون ضحيّة وجلاداً في الآن عينه، يُمارَس عليه القهر ومن ثم يبدأ هو بممارسة القهر، وهكذا في سلسلةٍ من الإسقاطات القهريّة من الأعلى إلى الأدنى.

أنا وصديقي والجنون

بروح الفضول حيال الجنون، حيال لغة غير مكرورة. برغبة مَن يريد أن يرى «الأنا الأعلى» جثة هامدة على باب سجن الـ«هو» المفتوح على مصراعيه؛ كنتُ أزور صديقي الطبيب النفسي والشاعر أيضاً في المستشفى الذي يعمل فيه.

المستشفى موجود في مكان ناء بشدة عن مدينة دمشق، مكان غريب ومغترب عن «ابن سينا»، وهل من المستغرَب ألا يحتلَّ «العقل» السلطوي مركز المدينة؟. كنت أزورُ المجانين حاملة في رأسي بضع أفكار من هنا وهناك. يراودني جنون نيتشه تارة، ثم أفكار ميشيل فوكو في «تاريخ الجنون» طوراً. تعلو في داخلي أصوات تحثني على احترام الجنون، فالمجانين حطموا طواطم السياسة، الجنس، الدين، الثقافة، الموروث، الغباء، القذارة. حطموا ما لم يجرؤ أيّ من «العقلاء» على تحطيمه. وكنتُ أهيم في شطحات المتصوِّفة فأقول لصديقي الطبيب: فصاميّوكَ ليسوا بمرضى، هم أشخاص يتكلمون بلغتهم الداخلية، يقطعون مع الزمن الأفقي لصالح زمنهم العامودي في أقصى توتره، ويجيدون تفعيل النصف الأيمن من أدمغتهم، نصف الأحلام والرؤى والخيالات الخصبة، نصفٌ لطالما هُمِّش دائماً لصالح النصف الأيسر، نصف المنطق، منطق.. منطق.

بلى: الفصاميون مرضى، يجيبني، فأقول: المتصوفة فصاميون، فهل المتصوفة مرضى؟ ألم يؤسس «الفصام» الصوفي للغة جديدة، لفكر جديد، لرؤيا جديدة، لحب، لفن، لعشق، لفناء، لصمت..؟! كل هذا وأكثر كنتُ أقوله لصديقي ويسخر، والحق أنه لم يَطل الزمن كثيراً قبل أن أكتشف مدى «الطفلنة» في إصراري على أجنحتي ونسيان قدمَيَّ.

الجنون «مقولة» وليس في الواقع جنون، إنما مرض، بل أمراض. أولئك الذين شُغفت بهم «مرضى» متعبون، متألمون، هم في حاجة لأي شيء إلا إلى أوهامي. بدأت أفكر فيما لم أفكر فيه، وأفهم قيمة عمل صديقي كطبيب للأعصاب والنفوس، قيمة أن نكون واقعيين في بعض الأحيان، قيمة التخلي عن الفرح الماكر عند رؤية مجنون قد يزيدنا غروراً في كوننا «عقلاء»، وهل كان للعقل مركزاً أصلاً لولا هامشية الجنون؟! هل كان لـ«عقلاء» دمشق أن يشعروا في مركزيتهم من دون إقصاء مجانينها إلى الأطراف النائية؟! وقد يكون الجنون في ذاته أن يكون مدير مستشفى الجنون هذا طبيباً نفسياً. فالعقل المركزيّ يقول مؤكداً، آمراً أن يكون المدير طبيب «أسنان» بامتياز.

كنتُ كثيرة التوهان وصديقي الشاعر والطبيب النفسي، في حارات دمشق القديمة، أثرثرُ أنا، ويسرّ هو لي عن تفانيه في عمله، عن استمراره في لملمة أوراق مرميّة في سلال الزبالة لطالما خربش عليها

المجانين، عن قلبه الذي يعتصر في كل يوم جرّاء مآسٍ لم ولن تنتهي، عن..عن. ثم يطلق تنهيدة ويقول: لم أكن مريداً الطب في أشكاله كافة، لم أُرد يوماً سوى الشِّعر، وكنت لا أكفُّ عن ثرثرتي في أنه لا فرق بين الطب النفسي والشعر ماداما علاجاً للنفس، للروح المضطربة، البائسة، والفارق هو أن الشعر لا يُبقي على الروح في الأرض، بل يخلق للروح جناحَين. بعد صمته، بل هدوئه الذي كنت ولا أزال أتوق إلى إتقانه، يقول لي: بالنسبة إلى صبيّة مثلكِ؟ نعم، الطب النفسي والشعر كلاهما علاج، ولكن هل تعتقدين أن كل الناس يعنيهم هذا الكلام؟ هل تعتقدين أن العلاقة بين الطبيب النفسي ومريضه هي دائماً علاقة طبيب سويّ بمريض لا سويّ؟ ذات بموضوع؟ خارج بداخل؟ لا أبداً يا صديقتي، لطالما مررت بأوقات انقلبت فيها الأدوار فصرتُ اللاسوي، الموضوع، الداخل، تحوّلتُ إلى ضحيّة بين يديّ مريضي الذي صار جلّاداً، ليتكِ تعرفين ما الذي يعنيه تحوّل الضحية إلى جلاد! ليتكِ تعرفين ما الذي يعنيه الابتزاز، ليتكِ تعرفين كيف تنتعش الآليات التي مورست على الضحية حين تمارسها الضحية، فقط تابعي ما يدور في العالم وقد تعرفين ما أعنيه. فكّري مثلاً في ما يفعله الإسرائيليون في فلسطين.

يتابع صديقي: الناس لا يؤمنون بي، يتآمرون على «كلامي»، لا يقتنعون أن للكلام جدوى، فيعادونني إذا ما أخبرتهم بحقيقتهم،

يستكثرون فيّ أجري إذا ما «تكلمتُ» ويعطونني إياه عن طيب خاطر إذا ما أعطيتهم علبة دواء كيميائي، وهل للناس سوى الظاهر؟!. لم يحدث على مرّ التاريخ أن احتملت العامة التجريد، ولن. لا يليق بالعامة سوى المحسوس. كم مرة نعتني المرضى وذووهم بالجهل! كم مرة جادلوني بما لا يعرفون!. ليس لعلم النفس في هذه البلاد قيمة تُذكر، فلا داعي إذن لكي يصرف الناس أموالهم عند طبيب يبيعهم «كلاماً» غير مفهوم، ولِمَ التعب إذا كان الشيخ يريحهم بالحجابات والقراءات؟! ثم إن الطبيب ليس ببراعة قارئة الفنجان، أيُعقل يا صديقتي أن تمنحي للجنون خاصيّة ميتافيزيقية بعد الآن؟!. العقل، العقل يا صديقتي. نحتاج إلى عقل خالٍ من شوائب المرضى والسّلطة، كل سلطة. باغتّه طالبة منه أن يهديني أغنية عبد الحليم «قارئة الفنجان»، ففعل، وسرنا مقهقهَين.

صديقي لا يحب الملكيّة والامتلاك على ما يبدو، لا يملك بيتاً. لا يملك سيارة. يملك قلباً يعتصر حبّاً وإنسانية، هو شاعر، لديه عيادة «متواضعة»، ترى هل تحتاج العيادة إلى الشِّعر؟ هنا! في دمشق! بالطبع لا. ولكن صديقي ليست لديه مواهب التجّار والعسكر! هل ثمة فسحة لعلم النفس والشعر إذن؟! نعم، هناك فسحة، أقصد، يجب أن يكون، فما أجمل الزهرة إذا ما أزهرت في صخرة. عادت «الطفلنة»، ما الحل معها؟.

أطلُّ من شرفتي وأنا أرشف النسيم وأدخّن الغيم

إنهم منارات

بعد نحو ثمانية أشهر من اندلاع ثورة الحرية السورية، ماتَ أبي. في البيت، على فراشه في الغرفة، مات. في المكان الأحبّ إليه والأقرب. المكان الذي طالما احتضن في كلّ شتاء موقداً «ياما» تحلّقنا حوله، على وقعِ حكايات أمي، وأشعار أبي، وطقطقة الحطب وهو يحترق. في الخامسة صباحاً، مات أبي. شامخاً مثلما عاش. مع طلوع الشمس طلعت روحه. رفع ناظريه، الرفعَ الأخير إلى السقف وانطلق محلّقاً. سقف بيتنا لم يكن يوماً سوى سماء تؤمن بأن ما السماء السابعة، سوى فاتحة السماوات. كنتُ جالسة إلى جانب أبي، أرقبه غير مصدّقة، وهو يفتح السماء السابعة مريداً إشعال نار أخرى هناك، بينما تبرد هنا يده الغالية في يدي رويداً رويداً. اليد السمراء النظيفة، النافرة العروق جرّاء التعب والعتب. اليد التي طالما كسّرت عناد الصخر لكي لا يكسّر الصخر عنادَ صاحبها. اليد التي طالما أمضت عمراً في حلٍّ من مصافحة المعول والرفش والمهدّة والشوكة والمشط وتنكة الباطون والشاكوش والإزميل، مبسوطة ممدودة سخيّة للكرام، للشرفاء، للنبلاء، للأعزاء. مقبوضة أمام المنافقين، أمام اللصوص أجمعين. لصوص الأخلاق والشرف والقيم تحديداً.

عرَقُ الجبين كان رفيق أبي الوحيد على الدروب. كان يسافر إلى لبنان من سوريا رفيقه العرق، ويعود رفيقه العرق. يروح ساخطاً على كل خسّة ونذالة، ويجيء ساخطاً على كل خسّة ونذالة. يبصق ذهاباً ويبصق إياباً، لاعناً كلَّ دجَل. لعنة أبي قاتلة ككل لعنات الأرواح الأصيلة. كان أبي على عداءٍ دائم مع كل سلطة: دينية، سياسية، اجتماعية/ثقافية، فكرية. يجهرُ بنفاق السلطة ووساختها أينما ذهب، دونما أدنى اعتبارٍ لدبلوماسيات وأناقات وتفاهات وترّهات. ينقد ببريّته النقيّة، في الآن عينه المجتمعَ الكذّاب، والسلطةَ السياسية الكذّابة. يجوب الأمكنة سالخاً جلدَ العجرفة عن عظمها، مقداماً، مرفوع الرأس، موفور الكرامة.

أبي السوري الذي كان يتركنا في البرّية حيث بيتنا، في حضن أمي اللبنانية التي طالما عشقَها، وكنّا خلاصة عشقهما الذي قطّر عسلاً فأنبتَ قمحاً، ظلّ ردحاً طويلاً من حياته، مسافراً راحلاً، حاملاً حقيبة ثيابٍ بنيّة. ظلّ يحملها حتى اهترأت، فاستبدلها بأخرى زرقاء، لازمتْه هي الأخرى طويلاً في سفره الدؤوب الكادح الهادف إلى محض بناء بيت وتعليم أبناء. مات أبي تاركاً بيتاً عظيماً ببساطته، مبنيّاً من محض قطرات عرق، وكرْماً زرعَه بالصبّار والتين واللوز والعنب والزيتون، و(نحن). أجمل ما في بيتنا، حكمتُه في كونه ظلّ عمراً لم يكتمل، ولا يزال. ظلّ سنوات مديدة من دون أبواب ولا شبابيك،

يزورنا الثلج شتاءً، ضيفاً عزيزاً أمام الغرف المفتوحة على بعضها وعلى الطبيعة والكون. أمّا الريح، فقد ظلّت سنوات مديدة أيضاً، تشبق «المشمّعات» على النوافذ مريدةً الاقتحام، على وقع ندائنا: هبّي يا ريح. هبّي أكثر. حين صار لبيتنا، في ما بعدُ، أبواب ونوافذ، بقي حراً، مفضِّلاً الانفتاح على العالم، على الشمس والسماء والقمر والنجوم والصنوبر و«الريح والثلج» أيضاً. وحين صار عندنا كذلك تلفزيون، بعد طول حرمان منه، كنّا نلتهم عالم الشاشة الأبيض والأسود، التهاماً، على الرغم من كونه لا يشبه الحياة الملوّنة في شيء. كنّا نلتهم بعيون مشدوهة، كل ما يُعرض على قناتَين وحيدتَين مشوَّشتَين دائماً. كان أبي كلّما أطلّ مشهدٌ يظهر فيه حافظ الأسد أو عائلته، أو أي شيء يخصّ الجيش والعسكر، يبدأ بالبصاق؛ فتذهب أمي بهدوء، ثم تعود حاملة «خرقةً» تمسح بها ما يسيل على الشاشة. يغادر أبي الغرفة خجِلاً من تعذيب أمي الملقَّبة من القاصي والداني بـ«الجوهرة». أمي التي لم تكن بالنسبة إليه، ليليق بأصابعها غير ملامسة الجوريّ وتمّ السمكة والحنبلاس والقرنفل في أحواضها وفي مطرَّزاتها وحريرها وملاءاتها.

بعض مَن رآنا مفجوعين، يوم مات أبي، قال: لا تبكوا. لقد ماتَ بكرامة، في بيته، على فراشه. الناس الآن تموت على قارعة الطريق. الجثث مرميّة في كل مكان تنهشها الكلاب. هناك مَن لم يستطع دفنَ

أحبابه. هناك مَن مات واعتُبر مجرّد رقم جرّاء تشوّه جثته وغياب هويته في ملامحه المعجونة المطروقة.

وقتذاك، لم نعر الكثير من الاهتمام لذاك الكلام. لكنه كان ولا يزال كلام حقّ. لِمَ البكاء؟ لِم ارتداء الأسوَد؟(إن كان ثمة لون ينبغي قتله الآن وكل آن، فهو الأسود. «الداعشيّ» خصوصاً). أمضى أبي عمراً بلباس الشغل، بالجزمة والطاقية، حاملاً المعول في يد، ومشعل الحرية في يد. قلّما أحبَّ تغيير شكله ومضمونه هذين. عاش شغّيلاً فاعلاً، لا موظفاً حكومياً مفعولاً به مترفاً وفاسداً. عاش ساخطاً، عصبيّاً يشعله الكذبُ والنفاق ناراً حارقة ومنيرة دفعة واحدة، غاضباً عاصفاً، رافضاً معارِضاً، كادحاً حراً، شاعراً طيّباً مُحبّاً الشعر وقراءته، كحبّه للسيجارة التي لم تفارقه وبقيَ مخلصاً لها حتى بعدما أوغلت مفاعيلُها في معدته. ظلّ مخلصاً للحظات الفرح الحقيقيّ، للمبارزة أمام طاولة النرد، لضرب كؤوس «الأُوف» و«الميجنا» بصوته الجبليّ العالي المذهل. أيضاً، ظلّ مخلصاً للنهوض عن المائدة قبل الشّبع بقصد توفير الطعام لنا. كان حاضراً في المضافات دوماً كرجل جدير، واقفاً يكره المنبطحين والعبيد والمتسوّلين والممالئين. فلِمَ البكاء؟! لِمَ ارتداء الأسود؟! يستحق أبي أن ننعم بتركَة ألوانه كلّها. لعلّ روحه الشاعرة كانت أهمّ ما تركَ. كانت شقيقتي الكبرى، الشاعرة الراحلة وفاء شيب الدين(1972- 1998)، شغوفة بأبي كشاعرِ حياة.

مثلُه لم تنتمِ يوماً سوى للحرية. تقول في إحدى قصائدها، المجموع بعضها في ديوان تحت عنوان «خطيئة الرّمّان»: ستموتين مطعونة من الخلف/ تقول نبوءة الشتاء المدقوق بالأبيض/ سيتكرر يهوذا في وجوه مَن تحبّين/ وسيضيع بينهم/ ذلك الجسد سيتولى أميرة لذّاتكِ/ أمام الرّكعات المرفوعة بتعبٍ...وعتب/ سينبجس دمكِ على الثلج/ ولأول مرّة ستتعرّين كالجريمة/ لأول مرّة سيُراق الذي فكّر كثيراً/ كيف هو العالم في الخارج؟/ لأول مرّة/ سيتدفق الساخن المدفون دون عتمة/»والموت حرية الاعتزال».

ذات يوم، عادت وفاء إلى البيت، سعيدة مرِحة. كنتُ مراهقة صغيرة، أنصتُ بشغف إلى كلّ ما ترويه شقيقتي الكبرى عن الشام والجامعة، عن الأحلام الشابة والهواجس اللامعة. راحت تقصّ حينذاك، كيف بعثرت وزميلة، في يوم عاصفٍ، أوراقاً تحت أشجار «المدينة الجامعية»، كتبتا عليها:»من أين لكَ شرَف الشهادة يا باسل؟!» إنه باسل الأسد نفسه، الذي مات سنة1994، وصار مذاك يشكّل عدم حفظ اسمه: «الشهيد الرائد الركن المهندس المظلي الفارس الذهبي باسل حافظ الأسد»، وعدم ترديده هكذا بالحرف الواحد، كابوساً مرعباً في المدرسة، وفي الجامعة في ما بعدُ، بعدما تحققَّ حلمي في دخولها، وفي الذهاب إلى الشام أسوة بشقيقتي الكبرى. أتذكر أني في أول مرة أذهب فيها إلى المدينة الجامعية، بعدما سجّلتُ في الجامعة،

كلّمت سائق سرفيس، طالبةً منه توصيلنا إلى «المدينة الجامعية»، فلكزَتْني صديقتي هامسةً بخوف وتبكيت: «لازم نقول مدينة باسل الأسد الجامعية».

***

شهداء ثورة الحرية والكرامة السورية، هم أيضاً يستحقون أن ننعم بتركِة ألوانهم وبركَتها. أن ننتبه دوماً إلى مناراتهم لكي لا تضلّ سفنُنا. فلنقرأ كتُبَ الشهيد محمد نمر المدني وأشعاره وترجماته مثلاً، ولنناقش أفكاره وآراءه ورؤاه، بدلاً من تذكّره دوماً كفقيرٍ مات (استشهد) وليس في جيبه سوى ثلاثين ليرة سورية!. («ومن يقسْكم بأقلّ أعمالكم شأناً، يكُنْ كمَن يَقدُرُ جبروتَ المحيط بوَهَن زَبَدِه» جبران خليل جبران «النبي» ص95). كم يحزنني استحضار ذاك الكاتب الشهيد، على مواقع الكيتش الاجتماعي، بصورة:» أنا جائع، منذ يومين لم أذق طعاماً، الطعام لا يكفي فأتركه لأولادي. في جيبي ثلاثون ليرة» ثم: «يا حرام»!. مات هذا الكاتب والباحث السوري الوطني، تحت التعذيب في أحد فروع المخابرات الأسدية، في عام2012، لأنه كان كادحاً، مناضلاً، معارضاً رافضاً حقيقياً. فبدلاً من «يا حرام»!، فلنمعن مثلاً في الآتي مما كتبَه بتاريخ 15تموز2011، على موقع«الشبكة العربية العالمية»، في مقال تحت عنوان «تأسيس للحوار بين الطوائف»: «لابد من الحوار.. فتفضلوا، جميع السوريين،

لنتحاور بصدق وبطريقة حضارية. تفضلوا نحترم بعضنا البعض. ونستخدم عبارات وكلمات لائقة بالحوار، تفضلوا يعلن كل شخص عن أفكاره ورؤيته، ويطرح أفكاره ولنتبادل الآراء حتى نصل إلى نتائج توافقية بيننا جميعاً». في تلك الفترة، أتذكر أن صبيّة «أقلّوية» ضاحكة دوماً، لطالما أتقنت نفسها كثائرة «فيسبوكيّة» مدخّنة بأظافر حمراء طويلة؛ اعتُقلت على الحدود السورية- اللبنانية، قبل الإفراج عنها بعد أيام قليلة. حازت الصفحة التي أُنشِئَت لها خلال بضعة أيام على ألوف «اللايكات». واستُحضرت باعتبارها «بطلة خارقة». لا أرى، على أي حال، أن في هذا مدعاة للأسف، لأن مَن يُرى كثيراً لا يُرى كثيراً. الكثير الذي يستهلكه ضوءٌ إعلانيّ، يقلّ مع مرور الأيام، ليصعدَ كثيرٌ آخر مختلف، ينمو ببطء في حنايا العتمة الخصبة الماكرة.

على المواقع نفسها، حين تكون محض كيتش، يحدث أيضاً ألاّ يعود يُذكر، على سبيل المثال، بطلٌ من أبطال دوما في غوطة دمشق الشرقية، ابراهيم الدرة، أبو صبحي، بائع البقدونس المسنّ، بحِرام رأسه التقليديّ المعروف ذي المربعات البيضاء والسوداء، الذي قضى شهيداً يوم5نيسان2012، بعدما أُعدِم ميدانياً برصاص الاحتلال الأسدي. أبو صبحي نفسه الذي لحقَ مرّة بشباب دوما الفارّ من رصاصٍ أُطلِق على تظاهرتهم، طالباً منهم البقاء، منادياً عليهم ببيتَين

من قصيدة شفيق جبري التي كتبها بعد جلاء الاستعمار الفرنسي عن سوريا :»يا فتيةَ الشام للعلياء ثورتُكم/ وما يضيع مع العلياء مجهودُ/ جُدتُم فسالتْ على الثورات أنفسُكم / عَلّمتُمُ الناسَ في الثورات ما الجُودُ». يحدث ألاّ يعود يُذكر هذا الشهيد سوى في صورته وهو مستسلم للموت، مثير لشتى أنواع الشفقة المجانية. في حين يجب أن تكون صورة أبو صبحي الدرة الأولى، حاضرة دوماً ومتوهجة، كونها إحدى الصور التي تشير إلى فحوى الثورة السورية. كونها الرسالة التي ينبغي تناقلها، بل تعليمها للأجيال القادمة، وتكريسها كمنارةٍ يُهتدى بها، ولكي نخرج، تالياً، من ثقافة الـ»ياحرام»، إلى ثقافة المجد العقلانيّ، والثقة بالنفس، والعطاء والقوة الجديرة.(ترى لماذا تميل الغالبية في مجتمعاتنا إلى رؤية الآخرين بائسين، ويخيفها ربما رؤيتهم ناجحين صاعدين؟ أَلِأنّ ثقافة مجتمعاتنا، هي ثقافة موت في المقام الأول؟ أَلِأنها ثقافة حزن وبكاء ورثاء، مع خالص الاحترام لهذا كلّه أيضاً؟).

في السياق نفسه، وعلى سبيل المثال أيضاً، يمكن الحديث عن منارة أخرى. عن رجل آخر مسنّ، من بلدة سرمين بريف محافظة إدلب، هذه التي بعدما تعرّضت في يوم17آذار2015 إلى غارة جوّية أسدية ألقيَت خلالَها براميل متفجِّرة تحوي غازات سامة، حسب ناشطين وإعلاميين، سقط على إثرها قتلى من الأطفال والكبار، فضلاً عن

المصابين والجرحى. أطلّ الرجل في فيديو، بعباءةٍ بنيّة وحِرام رأسٍ تقليدي أبيض وأحمر. في وسط ركام البيوت المدمَّرة، وقف شامخاً ساخطاً صادحاً صائحاً:»ما بدنا ياكْ. هدول مو إرهابيين. هدول أبطال. هدول ثوّار. هاي شوكة بعينَكْ هاي. منعمِّرا. منعمّرا وبضل إسما سرمين».

*أطلُّ هادئة على الأسفل، من شرفتي وأنا أرشفُ النسيمَ وأدخّن الغيمَ هازئة

1

في موازاة الآباء الشخصيين، كان ثمة أب عام، لطالما نزع إلى انتزاع الأبناء من آبائهم الطبيعيين ونسْبهم إليه إرضاء لنرجسيّة مستفحِلة مريضة تتطلب بحثاً ودرساً معمَّقَين. هكذا، كان حافظ الأسد، «أباً» عاماً، مثلما كان قائداً ملهماً خالداً، ورمزاً لأمةٍ عربية، سيُمسي «كلهُا» بعد اندلاع الثورة عام 2011، وانبجاس اللاوعي الجمعي السوري الذي طالما ظلّ مكبوتاً ردحاً طويلاً من الزمن، في بعض الهتافات التي تعالت في التظاهرات يوم كانت الثورة سلميّة. ذات يوم ماطر، قارس، أُخرِجْنا في مسيرة مسائيّة، في مناسبة «تجديد البيعة»، كنّا في الصف الثامن على ما أظن. جُبنا شوارع البلدة. هتفنا حتى انبلحت قلوبُنا، وبحّت حناجرُنا ونحن نقول «حافظ»، رداً على سؤال زميلة

طفلة مثلنا، أوكِلَت إليها مَهمّة الصياح بأعلى الصوت الذي لا يعرف لماذا هو متحمّس إلى هذا الحد:»بتحبّوا مين؟ وحبيبكم مين؟». كنّا في معمعة استرضاء الآلهة الأسدية، واتقاء شرورها في ذاك اليوم الماطر، خائفين من فصلِنا من المدرسة، أو إنقاص علاماتنا، حسب ما قيل لنا على سبيل تحذير كل مَن تسوّل له نفسه بعدم الذهاب إلى المسيرة.

كان سندويش الزيت والزعتر حاضراً دوماً لا يتغيّر على مدار السنة الدراسية، وكنتُ أسأل أمي: «حافظ الأسد بياكل زيت وزعتر؟» فتقول: لكان شو يا إمي! هوّي إنسان». لا أزال أحتفظ في معظم وثائقي كـ»الجلاءات» الممهورة بصورة «الأب» حافظ الأسد، ووثائق أخرى من مثل»هوية الطليعي» تعود إلى الصف الثاني الابتدائي. في الأمس، أخرجتُها من حقيبة قديمة. رحتُ أمعنُ في ملامح تلك الطفلة: غير معقول! ما هذا القلق لدى كائن طريّ صغير إلى هذا الحد! ما هذه الحساسية المفرطة في بريق العينين المذعورتَين! ممَّ هما خائفتان هكذا؟ لقد قتل الخوف هذا الكثير من الأحلام والطموحات. خوف «تعلّمناه» على ما يبدو، مع تعلّم أبجدية اللغة الأم، أو ربما رضعناه معها وقبلَها وبعدَها. صُفِعتُ مرّة بينما كنّا نتعلّم كتابة حرف «النون»، لا لأني كنتُ أشاغب آنذاك، ولا لأني كسولة، لكن كنتُ ألحُّ في طلب قلم رصاص من المعلمة، فأزعجتُها، ما دفعَ برفيقتي لأن تهبّ

من مقعدها لتعطيَني قلمَها. مَن يصدّق ذلك! أكَثيرٌ على الأطفال أن يكونوا أحياناً أجمل وأنبل وأرقى وأذكى بما لا يُقاس من كبارٍ شيمتهم العجرفة والتسلّط؟!

في مناسبة عيد المعلم، كانت أمي تصنع لنا حلوى اسمها«صفوف»، لونها مائل إلى الأصفر بفعل بهار «العقدة الصفراء»، لكي نأخذها إلى المدرّسين والمدرّسات المحتفَى بهم في المدرسة. دائما كنتُ أشعر بأن الحلوى الخاصة بي ووُفْرتها، لا تأخذ حقّها من التقدير، كمثل التقدير الذي يُقابَل به «الأقلّ» الذي يجلبه غيري من الزملاء، من أبناء المدرسين والمدرسات، أو من أبناء «الشهداء» والأثرياء والموظفين الحكوميين والحزبيين. وكم كنتُ أشتهي أن آكل من الحلويات والفاكهة التي طالما كان الإداريون، يهرعون إلى جلبها من «تبرّعاتنا»، كلّما زارَ المدرسة وفدٌ «حزبيّ». كانوا يتحلّقون حول الطاولات، يلتهمون، وكنا نتفرّج، وإن شاؤوا، يعزمون على بعضنا من قبيل «الرأفة»، أو «يحسنون» إلى بعضنا بقطعة حلوى أو حبة فاكهة. كان عيباً أن نطلب. بل عار. خصوصاً أن أمي كانت توصينا بألا نقبل أي شيء من أي أحد، ونكتفي بالقول: «شكراً عنّا كل شي بالبيت». على هذا الأساس أيضاً، كنا نرفض أنا وأخوتي كل ما يأتي من«حسنات»، معتبرين أمراً كهذا جارحاً لعزّة النفْس والكبرياء. لم نقبل يوماً منحة من مثل دفاتر وأحذية أو غير ذلك مما كان يأتي

أحياناً على سبيل التقدمة إلى أولاد الفقراء، كما كان يفعل غيرنا من الزملاء. لستُ أدري مَن كان يأخذ ما نرفضُه، بدلاً منّا، لكن كان كبرياؤنا هذا يثير إعجاباً ضمنياً، مثلما كان يثير تندّراً وسخرية أيضاً. إذ كيف «تُرفَس» النعمة؟! يجب أن تنحني دوماً، تشكر وتسبّح باسم «المانحين» جميعاً. عليك أن تنبطح كثيراً وقليلاً. هكذا تستلزم العملية التعليمية والتربوية في بلاد الاستبداد الغاشم. لا كبرياء هنا. لا عزة. لا شموخ. لا أنفة. وإلا سوف تبقى الغريب المنبوذ الملفوظ المقصيّ المهمَّش الملعون المطرود. ولن تحصلَ، طوال حياتك، على ما قد يساعدك في تحقيق أحلامك وذاتك.

حتى على مجرّد وظيفة تافهة تأكل منها خبزاً. (على سيرة «المكرمات»، كانت أمي في تلك الفترة، تحبّني أن أرافقها أنا بالذات في «مشاويرها»، لأني كنتُ سهلة الاستيقاظ باكراً، لا أعذّبها في ذلك كمثل أخوتي. كانت توقظني الساعة الرابعة صباحاً. نسري أنا وهي في العتمة إلى الفرن، لكي نحجز دوراً قبل بدء الزحمة التي كانت في ذلك الوقت تعني ألا تعود إلى البيت قبل الساعة الثانية ظهراً مثلاً، و«ياما» مرّت أمام ناظريّ مشاهد «خناقات» بين الخبّازين والزبائن، ومشاهد أخرى يكون فيها شرطيّ ما أو عنصر أمن، آخِر الواصلين فيأخذ الخبزَ أولاً ويغادر. كنتُ أرافقها أيضاً، إلى الجمعيّة المختصّة بتوزيع قنينة زيت صغيرة وعلبة سمن، مرّة كل ستة أشهر أو أكثر، على

«المواطنين»، شرطَ اصطحاب «دفتر العائلة»، وعلى الرغم من كونها كانت مشتريات، إلا أنها كانت توزّع باعتبارها «مكرمات». أتذكرُ أن المحال التجارية آنذاك، في الثمانينات من القرن المنصرم، كانت شبه مقفرة، والكثير من البضائع كان مفقوداً. راجت حينذاك، نكتة سرّية مستوحاة من مشهد إطلالة حافظ الأسد على «الجماهير»، ملوّحاً بكلتا يديه ثم ضاماً الكف إلى الكف. تقول النكتة: «ما في سمن. ما في زيت. بعْصركُن عصر؟»).

في العودة إلى المدرسة، كانت سياسة التمييز ممنهجة على ما يبدو، وكانت أشدّ ما يولّد القهر والغلّ في النفوس. أحد مظاهر السياسة تلك مثلاً: اختيار تلاميذ محدَّدين لكي يكونوا دائماً روّاداً في طلائع البعث، وتكريسهم كمتفوقين دائمين في كل شيء، حتى في الرقص والمسرح وما شابه. كنتُ أعشق الرقص، الشرقيّ خصوصاً، لكن لم يحصل يوماً أن اختارتْني المدرّسة من أجل المشاركة في أيٍّ من التمثيليات المسرحية «المعدودة المحدودة» التي قامت في مناسبات الأعياد «الوطنية». اختارت مَن يُخترْنَ دوماً، بنات المدرّسين والمدرّسات و»الشهداء». في إحدى «المسرحيات»، أدّت الزميلات على «الخشبة»، بلباس موحّد أدوارَ «بطولة» ضد الاستعمار، بينما وقفنا نحن في الأسفل أمام المسرح، نتفرّج. نصفّق ونحتفي بزملاءٍ مثلنا تماماً يُقدَّمون إلينا كمبدعين رفيعين. مذاكَ، صارت رغبتي الطموحة

في الرقص تنكمش رويداً رويداً، إلى حدود غرفة خاصة ومرآة صادقة تقول ما أنا عليه دونما تفكير.

من أبناء «الشهداء»، ما كان ليَطلبَ مثلاً مدرّسٌ ما سكبَ الماء في راحتَيه لغاية غسلهما. المدرّس نفسه، لم يطلب من ابنة أخيه «الشهيد»، سكبَ الماء في راحتيه، بُعيد الانتهاء من درس العلوم الذي أجرى فيه تجربةً متواضعة استعملَ خلالها مواد كيميائية استدعت غسل يديه. لكنه طلب منّي ذلك، كسيّدٍ ليس لي أن أنسى ملامحه المتعجرفة. هل سيظنّ أحدٌ الآن، أن ثمة اهتماماً بالدرس والعلم، كان؟ لَعمري إن المدرسة كانت، في جزء كبير منها، موئلَ فرزٍ نسويّ متخلّف بين جميلة وقبيحة، بين هذه تصلح للزواج، وتلك لا. كان معيار الجمال الأوحد الذي يكرّس دونية هذه الفتاة «التلميذة» ويرفع من شأن تلك، هو البياض والشقار والشعر الناعم المسترسل والشفاه الرفيعة. أتطلّع الآن من سماء شرفتي صوب ذاك المنحدَر المنحط، فاكتشف كم كنّا ولا نزال جميلات بسُمرتنا الجذّابة وشعرنا الليليّ وشفاهنا المغرية، وكم كنّ قبيحات أولئك اللواتي طالما صُوِّرن لنا كملكاتٍ في الجمال.(أوَليس في هذا عنصرية تقترب من تلك التي تُعلي من شأن ذوي البشرة البيضاء وتحطّ من شأن ذوي البشرة السوداء؟ بلى، وكم كنتُ ولا أزال لا أستسيغ اسم حلوى «راس العبد»).

في الصف العاشر، كلّفَنا أستاذ» التربية القومية» مرّة، كتابة موضوع «تعبير» عن «الحركة التصحيحية المجيدة»، فعبّرتُ. أخذَ الأستاذ المواضيعَ إلى البيت، وفي اليوم التالي، أعادَ الدفاتر إلى الجميع، عداي. قال لي بالحرف الواحد:»بدّك تعملي حركة تصحيحية ثاني؟ ليش مين إنتي؟ أقسم بالله لو ما كنتي صغيري وبعدك ما نضجتي سياسياً لجبتلّك الأمن السياسي فوراً». كنتُ قد كتبتُ آنذاك، موضوعاً آملُ فيه حركة تصحيحية أخرى، «سارقةً» الفكرة من شقيقتي الكبرى، متأثِّرة بها لا أكثر ولا أقل، إذ لم تكن لدي أفكار تصحيحية أو غير تصحيحية. تذكّرتُ هذا التفصيل بالذات، بينما كنتُ مرّة في نقاش مع مثقف «كبير»، ذات لقاء سنة2012، أبديتُ خلاله اعتراضاً على موقف أدونيس من الثورة السورية ومن حرية الشعب السوريّ، فأجاب المثقف «الكبير» :»ليش مين إنتي لتنتقدي مثقف كبير ومهم مثل أدونيس؟!». يبدو أن «ثقافة ليش مين إنتْ؟» معمَّمة في «آفاق» الاستبداد و»رحابه» كافة.

وكان أنّ في إحدى سني المحْل التعليميّ، قد مرّ فصلٌ دراسيّ كاملٌ، لم يكن هناك أستاذ لإحدى المواد، ولم نتعلّم شيئاً مما في الكتاب، فاجتمعنا أنا وزملائي في الصف (القاعة)، صبياناً وبناتاً، ورحنا نبحث عن طريقةٍ معقولة نحتجّ من خلالها على عدم وجود مدرّس لتلك المادة، ونطالب بإحضار مدرّس(عجيب! كيف لم يتوفّر مدرس،

في حين توفّر الشاغر؟ مع أن الأبواب كانت توصد دوماً في وجه طالبي الوظائف «وما أكثرهم!»، بحجة عدم توفّر «شواغر» . الحجة التي طالما مات الكثير جرّاءها قهراً. المهم أننا قرَّرنا أخيراً أن «نعتصم» في اليوم التالي في أثناء «الاجتماع الصباحي» في باحة المدرسة قبل الدخول إلى الصفوف، وأن نصرّ على عدم دخول الصف مهما جرى، حتى يجلبوا لنا مدرّساً. كنّا بذلك، فطريّين على ما يبدو، إذ لم يكن لدينا وعي سياسي حقيقي. أتساءل الآن مستغربِة: من أين جئنا بمفردة «اعتصام» وقتذاك؟! وكيف اهتدينا إلى هذه الوسيلة الاحتجاجية غير المعروفة على الإطلاق في ذاك الوقت؟! لا أجد إجابة، سوى إن الشعور بالظلم قد يولّد لدى المرء، من حيث لا يدري ربما، دافعاً ما إلى اختراع شيء ما حياله، تماماً ربما كما شعرتْ رفيقتي تلك حين أعطتني قلمَها كردّ فعلٍ فطريّ طفوليّ عفويّ على تعنيف المعلمة لي في غير وجه حقّ. نفّذْنا الاعتصام. دخل الجميع إلى صفوفهم، إلا نحن في شعبة البكالوريا، بقينا واقفين، نطالب بمدرّس، فكان ردّ أستاذ «التربية العسكرية»ومدرِّبها: «نحنا ما عِنّا هون شي إسمو اعتصام. فوتو عالصف أحسن ما نجبلكن الأمن السياسي يشحطكن شحط». البعض منا كان أكثر عناداً وتصميماً من بعضنا الآخر، لكن في النهاية دخلنا جميعاً إلى الصف على رغم أنوفنا، وبقينا من دون مدرّس، حتى إننا اضطررنا إلى دراسة كتاب «المحاسبة»، وحدَنا. قدّمنا الامتحان، الأغلب نجح، والبعض تفوّق، منهم أنا.

2

اتُهِمَ مرّة أستاذ مقرَّر «مبادىء الأخلاق» ببيع الأسئلة الامتحانية لبعض الطلبة في قسم الفلسفة. فأُحيلَ على القضاء. في الفصل الدراسيّ التالي عادَ الأستاذ نفسه إلى تدريسنا، كأنّ شيئاً لم يحصل. أحدٌ لم يشرح كيف ولماذا وما الذي جرى حتى عاد هذا الأستاذ إلى مزاولة المهنة. ذهبتُ إلى رئيس قسم الفلسفة آنذاك، قاصدةً سؤاله حول أمر كان جارحاً بالنسبة إليّ. لا أنسى نظرة الازدراء التي استقبلَتني بها الموظفة(أغلب موظفي البعث نسَخٌ، يتعلّمون مع مرور الأيام والسنين، كيف يصيرون لئاماً، كارهين للناس، ومتجبّرين). تبلكمتُ. بقيتُ واقفة نحو ربع ساعة لم يُسمح لي خلالها بالجلوس على الكرسيّ. أخيراً، بعدما «تفضّى» لي رئيس القسم، سألني لِمَ أنا هنا، فشرحتُ. شكرَني بعد الشرح، على اهتمامي بـ«الأخلاق» وقال في «بساطة»: إن القضاء برّأه. ومع السلامة.

في تلك الفترة، كانت قد سرت شائعات عن انتحار أحد رجال المخابرات «الكبار». في إحدى محاضرات «الإبستمولوجيا» التي طالما كانت تتناول السياسة كـ«علم» متسائلةً حول ذلك، سمحَ لنا أستاذ الإبستمولوجيا، بـ«معرفة» أي شيء في ما يخص «نظرية المعرفة»، شرطَ الابتعاد عن «المعرفة» في السياسة. كان هذا بمثابة ردّ على محاولة أحد الطلبة سؤاله: «هل انتحرَ رجل المخابرات إياه أَم قُتِل؟».

كانت «الحياة» الجامعية للشباب والشابات مؤطَّرة دوماً. الحب فيها منبوذ، والعشق ممنوع، لكن مسموح بالجلوس العاهر أمام صنم حافظ الأسد المهيب وهو يحمل كتاباً ضخماً في وسط الساحة الكبيرة في «المدينة الجامعية»، وأنت تتأمّل نفسك كجامعيّ قزَم أمام تمثالٍ عملاق وكتابٍ إسمنتيّ لا يساوي نبض قلبك العاشق حياله شيئاً. في عام 2007، سُيِّر الطلبة كالأغنام لكي يشاركوا في مسيرةٍ ضخمة تحت عنوان: «منحبّك»، لغرض «تجديد البيعة» لابن حافظ الأسد هذه المرّة. بينما كانت المهرجانات «الراقية» على طريق «أوتستراد المزّة» على أشدّها، كان حمَلة العصا داخل «المدينة الجامعية «قُبالته، يلاحقون بعض الطلبة الرافضين المشاركة وأنا منهم، من مكان إلى مكان، بالشتم والصراخ، بعدما أُغلِقت مداخل المدينة الجامعية ومخارجها كافة. بينما كانت الاستعراضات البهلوانية على أشدّها لرأب الصدع، وترميم الشعور بالنقص المتولّد عن»كَحْشِ» الطاغية وجيشه من لبنان عام2005، كان هناك طلبة ليس معهم ثمن ربطة خبز، تُسحب منهم بطاقاتهم الجامعية ولا تُعاد إليهم إلا بعدما ينتهون من المشاركة في مسيرة «الحُب» إياها. وقبل هذه المسيرة بسنوات، في أواخر تسعينات القرن المنصرم، في المكان نفسه، أي «المدينة الجامعية»، «بصمنا بالدم» لحافظ الأسد، في مناسبة «تجديد البيعة». كنتُ آنئذ طالبة في المعهد المتوسط التجاري، عائدة من المعهد، داخلة من الباب الرئيسي للمدينة،

ساهمة كشابة صغيرة بريّة بألوان طبيعية خالصة. فوجئتُ بطاولات على الرصيف، يجلس خلفها موظفون وموظفات، باغتتني إحداهن بلؤم وعجرفة وكره ينبعث من كيانها كلّه:»تعي. هاتي إيدك«، فسلّمتها يدي بخوف. نقرتْ بإبرة على إصبعي، ففرّ منها دمي، ثم وضعت إصبعي على دائرة كرتونية تحتوي «نعم» بموازاة «لا». شكّل دمي بقعة صغيرة فوق ال»نعم«. أشتاق لتلك البقعة، ولا أعلن براءتي من قطرات دمي تلك، بل أريد استرجاعها. إعادتها إلى مكانها الطبيعي بعد تطهيرها. ربما يكون هذا حلم الكثير من السوريين والسوريات.

3

في «سورية الأسد»، النجاح «النظريّ» ممكن، لكن كل ما يقترب من أن يصير عملانيّاً، واقعياً، يصير، في المقابل، شبه مستحيل شيئاً فشيئاً، خصوصاً إن كان الشخص واقفاً، نظيفاً، غير ممالئ وغير منافق. وعليه، فالنجاح نظرياً بالنسبة إلى مجتهدٍ من أمثالي كان ممكناً في «مسابقةٍ» ما، لكن النجاح نفسه في المقابلة التي من شأنها «التعيين» الفعلي العملانيّ، كان يعني المستحيل في ذاته. هذه كانت إحدى سياسات المراوغة الأسدية القهرية حيال»المواطنين« في بلاد البعث والعروبة. اللغة العربية مثلاً كانت الأساس دوماً، حتى إنها مادة مرسِّبة في المدارس، هذا في المستوى النظري، لكن في مسابقات التعيين، تصبح اللغة الإنكليزية هي المرسِّبة. كيف؟ يُطلَب من ناسٍ

تعلّموا بركاكة لغة إنكليزية ركيكة في مدارس حكومية ركيكة. ناس لا يمكنهم إجراء دورات من شأنها تحسين اللغة الإنكليزية كونها مكلفة مادياً، يُطلب منهم النجاح بنسبة عالية في امتحان اللغة هذه، كشرط «تعجيزيّ» أحياناً وإلا لا تعيين(معلومٌ، على أي حال، ما الذي يتطلّبه التعيين في «مؤسسات» البعث إياها). يدخل هذا عادة، ضمن السياسة المزدوجة التي طالما اتّبعها نظام البعث في سوريا. يمعن، على صعيد الداخل خصوصاً، في تأكيد نفسه ك»ممانع ومقاوم وقومي وعروبيّ». يمعن، من جهة أخرى، في إظهار نفسه للعالم، الغربيّ على وجه التحديد، كعلمانيّ منفتح ومتحضّر، عبر إجراء مسابقات تعيين شكليّة، على المتقدمين إليها أن ينجحوا في اللغة الإنكليزية وفي المعلوماتية، لكي يجدوا «فرصتهم» في التعيين.

في مسابقةٍ خاصة بوزارة الخارجية عام 2004. كنتُ قد نجحتُ في الاختبار النظري آنذاك، وكنتُ من بين قلّة نجحوا على مستوى «الجمهورية». في الاختبار النظري الكتابيّ، كان الآتي واحداً من الأسئلة المطروحة: هل يحقّ لإيران امتلاك سلاح نووي لأغراض سلمية؟. كلمتُني آنذاك: «ليش مشغولين بإيران ومشاريعها كل هالقدّ؟». بعد اندلاع ثورة الحرية عام2011، صارت الغالبية الساحقة، تعرف أشدّ المعرفة، «ليش كانو مشغولين» بإيران و»بَعدهن مشغولين». قبل أن نذهب إلى المقابلة في مبنى وزارة الخارجية، نصحَ موظفٌ في الوزارة

نفسها: «تعو بلباس رسميّ. تعو بشَعر مهندّس ومش منكوش». استدنتُ آنذاك، حتى تمكّنتُ من شراء لباسٍ «رسميّ» لم أحبّه يوماً مثلما لم أحبّ يوماً «هدوء» الساسة والدبلوماسيين. ذهبنا. كالعادة: أجواء رهبة وترهيب. قذارة تسود وتفوح. هذه «شرمو..؛» تبتسم هنا (بالمناسبة، «الشرمو..؛» الحقيقيّة، دبلوماسيّة هادئة، قلّما تُعصِّب)، وذاكَ برفقةِ مسؤولٍ «يحوص» هناك. تخرجُ من مُناخ القوادة و»التعريص» هذا، مُريداً رميَ نفسك في أقرب نهرٍ لغرض الاغتسال فحسب. يضنيكَ في البداية الضبابية عدمُ «قبولك». لتكتشف، بعد انقشاع الضباب، أنّ ما من دليل دامغ على رفعةِ أخلاقك وجمالك ونباهتك، أهمّ من عدم قبولك موظفاً في مملكة الفساد والانحطاط. إنها بلادنا وهم محتلّوها. لذا، كان ولا يزال، الصحّ الوحيد في حياة السوريين والسوريات، هو الثورة.

4

خضتُ تجربة التدريس المؤقت، في ثانويات عامة عدة قبل اندلاع الثورة، وقبل فصليَ لاحقاً، من التدريس المؤقت هذا، بسببٍ من مواقفي الحرّة، غير الممالئة للسلطة البعثية الأسدية وأتباعها ومرتزقتها؛(فُصِلتُ على الرغم من «معدني النظيف»! وهذا كان وصف مدير الثانوية العامة لي. المدير الذي قدّم لي أيضاً كتابَ شكرٍ وتقدير موقّع ومختوم من إدارة المدرسة ومن مديرية التربية في

السويداء، على إثرِ مساهمتي في نشاطٍ كان الأول من نوعه في مدارس البعث، حيث شجعتُ الطلبة على القيام بمشروعٍ قدّمنا خلاله حلقات بحث تضمّنت مواضيع فلسفية واجتماعية مهمّة، احتفظت بها إدارةُ المدرسة، في أرشيفها، لكي تكون مرجعاً، وقد كان شرطي في هذا المشروع هو ألا يضع الطلبة صورة للرئيس أو أي شيء يشير إلى الشخصنة أو الأيديولوجية، حرصاً على استقلالية البحث العلمي واحترامه في حد ذاته ولذاته. هنا أيضاً يمكنني ذكر التقييم الذي أرسله موجّه مادة الفلسفة إلى إدارة المدرسة، وما قاله لي، بعدما حضرَ ذات مرة درساً في «علم المنطق» لطلاب «البكالوريا»:هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها مدرّسة تعطي درساً في المنطق بهذا المستوى المهم. أنت مثقفة ثقافة عالية، لكن أرجو منك ألا تكرري مرة ثانية مفردات من قبيل:»برافو. أو أوكي» كونها ليست مفردات عربية). لا أهمية لأي شيء في قبالة أن تكون موالياً منافقاً فاسداً حراميّاً ولصاً وقوّاداً في بلاد البعث الأسديّة. طلبَ منّي مرّة مدير إحدى الثانويات العامة: «ألاّ أعطي الطالب حقاً حتى لو كان مُحقّاً». طلبٌ أخذَني مباشرة حينذاك، إلى سنوات القهر التي طالما عانيتُها وغيري، في المدرسة. كانت تفاصيل السنوات تلك وكلّياتها، وراء حرصي على أن أكون إلى جانب الطلبة المقهورين(وهل ثمة غير مقهورين في بلاد البعث؟!)، حين صرتُ مدرّسة في مدارس البعث المهينة نفسها.

ناداني المدير وغيري من المدرّسين والمدرّسات مرّة لغاية الوقوف وقفة «وطنية». بالفعل، وقفنا أمام الطلبة في باحة المدرسة، بينما راح المدير يخطب بالجميع. يبدو أنه كانت هناك تعليمات آنذاك في خصوص «الإمعان» في تأييد حركة «حماس» في سنة 2008. بعدما أنهى المدير الخطابَ، طلبَ من الطلاب أن يدفع كلٌّ منهم مبلغ 25 ليرة سورية، وأن يعملوا على تشجيع ذويهم على التبرّع من أجل غزّة. على سبيل المداعبة، ابتسمَ أحد الطلاب؛ فهبَّ المدير قائلاً: «عبتضحكْ! إلّي بعمرَك بفلسطين عبيلبس حزام ناسف ويفجّر حالو». المهم، انتهى الاجتماع، ودخلنا غرفة الإدارة، ثم سَرَت أجواءٌ ساخرة مفادها: «هنّي (أي الطلاب) يِدفعوا الـ25ليرة وما بدنا شي ثاني».

وكمثل الكثيرين، لم يجرِ تعييني في مسابقة التدريس التي أُجريَت عام2010، على الرغم من نجاحي بتفوق في الاختبارات كافة التي طَلَبَتْ في شأنها. طفحَ كيلي حينذاك؛ فكسرتُ كمبيوتري الذي طالما اشتريتُه بشقّ الأنفس. مرّت أيام معدودة، على واقعة كسرِ الكمبيوتر تلك، قبل أن يتناهى إلى سمعي من الراديو قرب سريري، بينما كنتُ شبه غافية؛ خبرٌ يقول إن شاباً تونسياً أحرق نفسه، جرّاء يأسه وقهره من عدم الحصول على عمل. تغلغلَ الخبر إلى أعماقي. بدا كأنه استقرّ في قاع القاع، قبل أن ينتفض مجدَّداً، على إثر توارد أخبار ذات صلة، تقول إن الشاب الذي أحرق نفسه، اسمه محمد البوعزيزي، وإن

شوارع تونس قد غصّت بالثائرين بعدما ألهمهم هذا الشاب المحتجّ على الإهانة والذل، وإن الطاغية في تونس قد ولّى هارباً. راحت أمواج الثورة تتلاطم في داخلي: «ونحنا كمان من حقنا نثور. نحنا كمان بدنا حرية. نحنا كمان شباب مظلومين مثل البوعزيزي، ما عنّا عمل وضاعت أحلامنا. سوريا كمان من حقّا تخلَص من الطغيان والظلم.»

لكن المثير للدهشة حقاً، كان «سهولة» عرْضِ «وظيفة حكومية» عليّ! من قبَلِ رئيس فرع «الأمن العسكري» في السويداء، حين جرى استدعائي إلى الفرع نفسه، بتاريخ1نيسان2014، بقصد منعي من مواصلة الكتابة للثورة السورية وعنها. دامَ الاستدعاء نحو تسع ساعات متواصلة. لم يكن في الإمكان مغادرة المكان، من دون التوقيع على «تصريح» بعدم العودة إلى الكتابة، وكان الضغط «النفسيّ» القاسي «الممنهج والمدروس» الذي طالما تعرّضتُ له بعد ذلك التاريخ، واحداً من بين أسبابٍ كثيرة، دفعَني أخيراً مُكرَهة إلى مغادرة سوريا في 12 أيار2015. (لم يكن ثمة تعليق آنئذ، في ما يخصّ الوظيفة الحكومية «المعروضة». الآن أيضاً: «لا تعليق».)

ثانياً: للمرآة

أميرة الصحراء

1... واسمها تدمر. في جلجلة الصحراء قالت مرّة: أنا تدمر وتدمر أنا، كلانا روحان حللنا صُفرةً شاهقة وممتدة تارة، وطوراً نخيلاً. كان ذلك في نيسان 2004، عندما وصل إلى سوريا، وفدٌ من إسبانيا، مكوّن من أطباء وطبيبات، بعضهم جاء برفقة عائلته وأطفاله، لغرض المشاركة في مؤتمر طبّي في العاصمة دمشق آنذاك، حسبما قيل. يبدو أن خطّة سياحية، من شأنها الترفيه عن الوفد هذا، من خلال زيارة مواقع أثرية في أماكن مختلفة من سوريا، من مثل قلعة حلب وقلعة سمعان ونواعير حماة وأفاميا وتدمر، كانت مقرَّرة لنحو أربعة أيام، وكانت هناك حاجة إلى صبايا لمرافقة الوفد المقسَّم مجموعات موزَّعة على بولمانات عدة. طُرِحت الفكرة على تدمر من زميلات. رفضتْها في البداية: «شو خصني أنا يترفهو أو ما يترفهو!»، فكان الرد: «منجرّب. على الأقل منشتري بالمرتّب كتب الجامعة، ومنشوف مواقع أثرية ببلدنا بعمرنا ما شفناها».

كان أصل الحكاية إذاً، شُغلاً محضاً، أثار الجانب الاستهلاكيّ فيه، اشمئزازاً في نفس تدمر ذات الكينونة غير الموائمة للأمور التجارية. وكما أن الأطفال لا يجيدون في العادة، الارتجال، لحظة الوقوع في خطأ ما أثناء التمثيل، على الرغم من كونهم مرتجلين بارعين على مسرح الحياة؛ كانت تدمر كذلك، لا تجيد ما يتطلّبه هذا الشغل من ارتجال سريع البديهة أمام المطبّات الكثيرة التي لا بدّ أن تحصل في أثناء تمثيل الاهتمام والابتسام، وتقديم الورد الذي هو نقد (عملة). في معمعة ترّهات الشركات السياحية ومهرجانات السمسرة، والإغواء النسويّ المبتذل من جهة، والترمّت النسوي المبتذل من جهة أخرى؛ كانت تدمر تشعر في أن الرابح يبقى وحيداً وبعيداً لكن منتبِهاً(ربما لأن قدَرَه أن يكتب في ما بعد). كان الأصل في الحكاية شُغلاً محضاً، قبل أن يتحوّل بالنسبة إلى تدمر، رحلةً شيّقة، ولقاء إنسانياً مهمّاً، وكشفاً معرفيّاً هائلاً. إذ للحياة معانٍ أخرى لا تُحصى، غير شهوة المال والسلطة والشهرة.»المصاري بتروح وبتجي»، لكن ثمة «أشياء»، ليس من شأنها أن تروح ولا أن تجيء. في الطريق إلى تدمر، سُئل «الدليل السياحيّ» عن أسباب انوجاد هذا الكائن إلى جانب أبيه في كل مكان، فأجاب السائلين من الإسبانيين الذين يتقنون اللغة العربية: «ما بحب الأسئلة الصعبة». الدليل السياحي هذا، الذي يمتشق أساساً مهمة صعبة، ينبغي له من خلالها أن يجيب عن الاستفسارات السهلة والصعبة كلّها في ما يخص الآثار، كان صعباً عليه أن يجيب

عن سؤال من هذا الطراز. لم يكن صعباً، بقدر ما كان شاقاً وشانقاً. في الطريق أيضاً، كانت هناك استراحة، عرض فيها أحد أطباء الوفد الإسباني ما يُسمى بـ«الإكراميّة»، على بدويّ، لقاء خدمة أدّاها الأخير له. رفضها البدويّ. سأل الطبيب، الدليل السياحي نفسه، عن سبب الرفض هذا، فأجاب: «البدوي الحقيقي الأصيل لا يقبل إكرامية من أحد. يرى في ذلك إهانة لكرامته وكرمه. هو يأخذ حقّه فحسب حين يعمل، من دون أدنى اعتبار للمال «البرّاني»، وحين يؤدّي خدمة لا يأخذ مقابِلاً. ردَّ الطبيب مشكِّكاً، مشيراً بإصبعه إلى أحدهم: لكن ذاك الرجل أخذ «إكرامية». فقال الدليل بنبرةٍ واثقة: «هذاك نَوَري مو بَدَوي» (هناك، في ذاك الجبل، درجت عادة الغالبية الساحقة على قولٍ مطبوعٍ بـ«حُكم مسبق» وبالهاجس الدائم في اصطناع الأعداء حتى لو لم تكن ثمة حاجة إلى ذلك: «نحنا مِحْنِتْنا من البدو»! لتحييد العدوّ الحقيقيّ ربما. درجت العادة أيضاً على الابتهاج، كلّما صادف ومرّت في الحياة، عائلة ما بدوية كريمة لا تبخل بما قد يتوافر لديها من لبن وجبن وزبدة وسمن أصلي). أما إحدى طبيبات الوفد نفسه، من اللواتي لا يفقهن اللغة العربية، فقد أومأتْ لتدمر حين رأتها تشمّ زهرة قطفتها للتوّ؛ بما يفيد التحذير من أن تُصاب بالزكام. استعانت تدمر التي بدورها لا تفقه اللغة الإسبانية، بالدليل السياحي، لكي يوصل إلى الطبيبة الآتي: «أنا مستمتعة. لكن شكراً جزيلاً لحرصكِ واهتمامكِ».

***

كان الليل قد جنّ، عندما وصل الجميع إلى تدمر. وبأصوات تصدح بأغنيات تقليدية محلّية، وبقرع الطبول الذي على أشدّه والدبكات الشعبية؛ استُقبلوا في خيمة بدوية كبيرة مقسَّمة أقساماً عدة، مفروشة بـ«الفجّات» و«الطرّاحات» و«المخدّات» الصوفية المحوكة بأيادٍ وبروح بدوية خالصة، وعامرة بالقهوة العربية وبالموائد والأكلات الشعبية البدوية الشهية. على الرغم من سحر ما كانت الخيمة ممجوجة به، وحماسته وصخبه، كانت النساء الإسبانيات، باردات غير متفاعلات إلى حدٍّ ما. صبيّتان فقط، من بين نحو خمسين امرأة من ذوت الأعمار المتفاوتة، شاركتا في الدبكة قليلاً، وثلاث فحسب تفاعلن بنقرٍ خفيفٍ بالأصابع على طاولة خشبيّة أمامهن، وبتلويحٍ هوائيّ أقلّ خفّة بالأيادي البيضاء. وحدهن الصبايا السوريات، كنَّ مفعمات، متمايلات كسنابل قمح في يوم صيفيّ عاصف بريح ساخنة. وكان حاضراً بقوة، ذاك السؤال الوثيق الصلة بـ«الأحكام المسبقة»، عن «الروح الغجرية» الغائبة.

كانت تدمر غائبة في عتمة الليل، وثمة شوق عارم للقاء جمالها صباحاً. للتعرّف إليه عن قرب. لتنفّسه. لطالما شوهد في الصور والشاشات فحسب. أشرقتْ تدمر أخيراً، وانهمر السرّ المطير: الأبراج. القصور. المدافن المزدانة برسوم ملوّنة وتماثيل(مدفن الأخوة الثلاثة

مثلاً: مالي وسعدي ونعماي 160 م. أو المدفن البرجيّ «إيلا بل» القرن الأول الميلادي). حمّامات زنوبيا. الأغورا (السوق أو الساحة العامة). التترابيل (المصلبة). الشارع الطويل المستقيم الذي تساهم في خطّه أعمدةٌ رائعة من الجانبَين. المسرح. قلعة فخر الدين المعني الثاني. المعابد المحفورة على جدرانها وأعمدتها، أزهار وأشجار نخيل وسنابل قمح (معبد بعلشمين مثلاً. هذا الذي بناه مالك بن يرحاي في القرن الثاني الميلادي). إنها الصحراء مطعَّمة بفنّ ذهبيّ مذهل. ناهيك بالمَزارع، بأشجار النخيل الباسقة، المشلّقة أغصانها كشلاّلات، المكنوزة بالتّمْر «طعام الشجعان»، مثلما الموز «طعام الفلاسفة» وفق ما يُحكى، وأشجار الرمّان، والزيتون. وبالتحف والمطرَّزات والحلى المشغولة باليد، المعروضة المفروشة في كل مكان. انتقتْ تدمر لنفسها من الحلى تلك، عقداً من الخرز الأحمر القاني، زيّنت به العنق مباشرة. أهدته لاحقاً إلى سيدة إسبانية أحبّتها وطفلتها ذات السنين العشر. كان الإهداء بمثابة إجابة فورية عن رغبة السيدة في منحها «إكرامية». تعلّمتْ تدمر من السيدة نفسها، جملاً من مثل: «كومو كيراس» أي (سِرْ مثلما تريد). تكرَّرت الطريقة في الإجابة، عندما عرض عليها طبيب إسبانيّ، «إكرامية»، في معبد «بل». التقطتْ تدمر آنذاك، حجراً صغيراً من الأحجار الكثيرة المتناثرة في ساحة المعبد أمام الأعمدة التاجيّة الممهورة بخطوط طولية نافرة، نازلة مثل صرامة قدَر من الأعلى وحتى النهاية في الأسفل. أحاطت

الحجر بأصابع يدها حتى كادت الحرارة تستشيط منه ناراً، ثم قدَّمته إلى الرجل بعدما أوصته بأن يحتفظ به دائماً. حالِمة في عالمٍ لا تكون فيه «الإكرامية» مقابِلاً للطف الإنسانيّ البحت (ترى مَن يراوِد مَن، نحن أم الحُلم؟).

بين شعلتَي غزَل، انحازت تدمر، إلى ذاك الشاب البدويّ الأسمر، صديق الجِمال والجَمال، آخذةً معها حكمة شفاهية من حامل الشعلة الأخرى، وهو شاب إسبانيّ يجيد العربية، أعطاها إياها حين غازلها، فاحمرّت الوجنتان وأُخفِض النظر: «بتعرفي شو بينقصك؟ بينقصك ثقة بنفسك. مرّة تاني بس حدا يقلّك إنك حلوي، قليلو: إي شو يعني! بعرف إنّي حلوي».

انحازت إلى البدوي الأسمر، مدفوعةً بحُلم شبابيّ في إنقاذ العالم. تحسينه. تغييره. بحُلم إحقاق العدل الذي يعني هنا: لا ضير في أن تنشقّ، ولو امرأة واحدة فقط، عن طابور النساء المتقاطرات المتهافتات على الشبّان ذوي المكانة المرموقة اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً، لصالح شاب جدير لكن مهمّش مالَ إليها. أيضاً البدوي الأسمر أعطى تدمر حكمة، لكن مكتوبة هذه المرة، على الوجه الخلفيّ لصورة جذع نخلة يشبه أناناسة ضخمة. كانت الحكمة عبارة عن شقّين: «الحياة ليست كتابة وقراءة فقط. لكن حُبّ وعطف أيضاً»، و«في عينيكِ، لا بد لكل طير سجين أن يتحرر، لكي

يتنشق الهواء النقي، ولكي يعرف معنى الحرية، وأن لا يُقتَل كل شيء جميل موجود في الدنيا».

الأدراج والأبراج فاضت بحِكَمٍ، كان يمكن تدمر أن تشرع في بذرها حكمةً في إثر حكمة، عميقاً في رحم الأكوان المجرَّفة بسيخ العسكر و«العشّاق» الكذَبة، إضافة إلى الرأس المبذورة فيها أصلاً، لولا ذاك الشعور الممضّ بأنها لم تكن مصيرية يوماً. حِكَمٌ حِكَم والكلّ سائح. وحدها الأميرة، تذهِبُ الصحراء معابدَ فنٍّ، وتخضِّرُها حكمةً.

مونولوغ معلِّمة

كمثل شجرة يتيمة في امتداد صحراوي، وقفَت في غرفة فارغة إلا من جدران مكتظّة بالصّور وطاولة تضجّ بالطّوابع والأختام، ورفوف ملأى بأضابير تُفصِح هيئتها عن ضجرها المطلق من المكان. كانت تحمل أوراقاً ثّبوتيّة رّسميّة غريبة عن ألوانها، مريدةً تقديمها في «مسابقة» تدريس.

راحَت ترقبُ نفسها وسط زحمة التوّاقين إلى الحصول على فرصة عمل، ووسط هذه الزَّحمة بدأتْ الأصوات والوجوه من حولها تبْهت شيئاً فشيئاً، تخيّلت أنها قُبِلَت وأصبحت مدرِّسة فعلاً، وبدأت تعيش مونولوغاً طافحاً بالأسئلة، ترى هل سأبقى زهرة بريّة؟ هل ستبقى ألواني، ألواني؟ هل ستظلّ تربتي مصدر غذائي؟. بدأت المخيّلة تزداد اشتعالاً: دخلَت المدرسة فإذ بالمراهقين النّابضين بالحياة، تسلّم عليهم كمراهِقة، وما أن تتماهى في مراهقتها معهم حتى تباغتها عيون الموجّهين التربويّين المسلّحين بالعُصيّ لتعلن لها ضرورة أن تكون أستاذة، فارتبكَت وتيقّظت لتعيَ سلوكها المُستغرَب، وبدأت بالحيرة، هل سأستطيع التخلّي عن مراهقتي؟ هل سأجيد دور المعلِّمة، أنا الكائنة التي تعتبر نفسها دوماً في طور التعلّم في هذه الحياة القصيرة؟ هل اكتشفتُ سرّ الحياة لكي أبوح به للتلاميذ؟ سرعان ما لاحظ المراهقون ارتباكها فسادَ جوّ من الرِّيبة بعد برهة من جوّ المرح

والدهشة الذي كان.

دخلَت غرفة المدير وانطلقت كبنتٍ ساذجة تُفصِح له عن حبّها للفلسفة وتوْقها الشّديد لعيشها والتلاميذ، وعن رغبتها في أن تجعل من ملعب المدرسة «أغورا» وعن..وعن.. فقاطعها المدير بأن أعطاها قائمة بما يجب عليها عمله، وجملة أوراقٍ وتعهّداتٍ يجب أن توقّع عليها، وبضعة كتب محشوّة بمنهاج ممنوع عليها الخروج عنه. خرجَت من الغرفة مثقلة بالمسلّمات.

اتجهت إلى غرفة المدرّسين تردّد في نفسها: ربما يكون هؤلاء مَنْ يمكنني التعاطي معهم، فإذ بهم كائنات اعتادت التَّدْجين، وحين شعروا بطزاجتها، تعاطفوا معها ناطقين بعبارات المواساة: لا عليكِ، هي أيام قليلة وتعتادين كلّ شيء. فعادَت تحاور نفسها مجدّداً، هل سأتحوّل إلى كائن معلّب؟ هل سيكون ما في الكتب من أفكار لأفلاطون وأرسطو، لابن سينا وابن خلدون(لفلان وعلان)هو فقط ما أقدر على تقديمه؟ هل ثمّة مناخ يسمح للتلاميذ بتكوين رأي مستقلّ خارج السّلطات الفكريّة والاجتماعيّة والدينيّة والسياسية؟ هل سأستطيع إعادة الاعتبار للفلسفة في مجتمع توارث تقدير رجل الدين ونبْذ الفيلسوف؟ في مجتمع غارق في النوم منذ قرون، لا يحترم الفكر ولا يفهم الفلسفة سوى أنها تنظير لا طائل منه(علاك مصدّي أو كفر؟!). لكن كلّ هذا لم يكن بالنسبة إليها أشدّ وطأة من كونها امرأة

ستدرِّس مادة تخصّ الفكر في مجتمع لم ينظر للمرأة يوماً بغير نظرة تعتبرها ناقصة في العقل والدين، فكيف لها أن تفهم في الفلسفة؟!. فأن تكون المرأة مدرِّسة في مجتمع كهذا يعني، وببساطة شديدة، امتهانها لمهنة ليست إلا امتداداً لوظيفتها البيتيّة ك«حاضنة»، حيث لا اعتبار لأيّ تفصيل آخر يمكن أن تبرع فيه المرأة في علاقتها التفاعليّة وطلابها.

ومن فرط حساسيّتها تجاه ما يدور حولها وما يعتلجها، تذكّرت قصة(الرجل المُعَلّب)، كانت قد قرأتها منذ فترة، هي المغرمة بكتابات أنطون تشيخوف، وفي لحظة، وجدَت نفسها مرتدية ذاك المعطف الذي كان يرتديه مدرّس اللّغة اليونانيّة القديمة(بطل القصة)، إذ كان حتى في الجوّ الحار لا يخرج إلا بعدما يُعَلّبَ نفسه بمعطف ثقيل ببطانة من القطن وكانت شمسيّته في كيس، وساعته في كيس، حتى المبراة حين كان يستخرجها ليبري قلماً كان يستخرجها من كيس، ووجهه بدا وكأنه أيضاً في كيس، فقد كان يخفيه دائماً خلف الياقة المرفوعة، وكان يضع نظّارة سوداء، ويسدّ أذنيه بالقطن، كان لديه ميل جارف إلى وضع نفسه فيما يشبه العُلبة، وظلّ على هذا الوضع إلى أن فارق الحياة. زاد تذكّرها للقصة الطّين بلّة، فدهَمها سؤالها المقلِق ثانية: هل ستسقط أوراقي وتغيب ألواني؟

بعد لحظات قليلة شعرت بضيق دفعها إلى الخروج من غرفة

المدرّسين، بعدما ضاقت أذناها ذرعاً بما سمعته من كلام لطالما مزَّقها قهراً وعانت منه شديد العناء مذ كانت طالبة في المدرسة، كلام من قبيل هذا الطالب ابن فلان علينا أن نتحاشاه، وذاك ابن فلان فلنغضّ الطرف عنه، وهذا غبي وذاك أفضل من زملائه و.. و، وما أن فتحت الباب فجأة حتى فوجئت بـ»المستخدَم» واقفاً وراء الباب ينصت إلى ما يتداوله المدرِّسون فيما بينهم!.

وقفَت في المَمَرّ وشرَدَت في نافذة تطلّ على ملعبٍ خالٍ إلا من أربعة حجارة حدّدتْ مكان الهدف لكرة التلاميذ. قطعتْ شرودها كلمتا(صباح الخير) فالتفتَت وراءها لتجدَ امرأة تقول لها إنها المرشدة النفسيّة في المدرسة وترغب في عقد اتفاق معها كونها مدرّسة فلسفة وتتقاطع وإياها في فهم التكوين النّفسي للتلاميذ، وبدأتْ تحدّثها عن ضرورة الاستماع إلى أسرارهم ومشاكلهم لكي يسلكوا الطريق الصّحيح ويتجنَّبوا طريق الخطأ والهلاك! وضربت مثالاً: يجب أن نحذّرهم من التورّط في علاقات عشقٍ مشاغِبة، أو التّكتُّل فيما بينهم، ثم همستْ لها(أظنّ أنكِ تدركين خطورة التّكتّل!).

بدأ كلام المرشدة النفسيّة يستحيل ضباباً مع بدْئها في تذكّر ما حدث معها في السنة الماضية، حين كانت مدرِّسة مؤقّتة في إحدى المدارس، إذ احتفلت بالحب مع تلاميذ (الباكالوريا) في الرابع عشر من شباط، أي في عيد الحب. كان من المفترض يومئذ أن تعطيهم

درساً عن «الفارابي»، لكنّ التلاميذ باغتوها بأن زيّنوا الصف ووضعوا الحلويّات والهدايا على الطاولة وقالوا لها: لا نريد الفارابي اليوم، نحن نحبّكِ ونريد أن نحتفل بعيد الحبّ معكِ.

عند رغبة الحبّ هذه، كانت مستعدّة لا للتخلّي عن درس الفارابي فحسب، بل عن تاريخ الفلسفة كلّه! على إثر آراء سياسية وفلسفية واجتماعية كانت تناقشها بجرأة مع التلاميذ، مما أثار حفيظة الإدارة ومن ورائهم الأجهزة المخابراتية الحاكمة، تمَّ إرغامها على ترك المدرسة، فغادرتها حاملة في قلبها حبّاً في نيّتها تقديمه لتلاميذ آخرين يوماً. لم تدرك ما الذي تركته في عقول أولئك التلاميذ بالضّبط، لكن كانت لديها رغبة أن يكون «الحب»، حبّ المعرفة، حبّ الحياة، حبّ الإنسان، حبّ الطبيعة. الحبّ فقط، هو ما رغبت أن تكون قد تركه في عقولهم وقلوبهم.

حين استعادت تلك الذكرى بكلّ تفاصيلها، فكّرَت في أنها في السنة الماضية كانت مدِّرسة مؤقّتة، لديها قدْر من الشجاعة لكي تقوم بفعل كهذا من دون أن تحسب حساباً لخسارة وظيفتها، طالما أنّها مدرِّسة مؤقّتة، لكنّها الآن مدرّسة دائمة، محاطة بكلّ القيود. سرعان ما انطلقت في حوار جديد مع نفسها: ترى هل ستكون لديّ الشّجاعة لكي أحتفلَ بالحبّ مجدّداً في مدرسة يبدو أنها أشدّ توغّلاً في الحكوميّة؟ تابعتْ: في السنة الماضية كنتُ قادرة على أن أقول

للتلاميذ عندما رافقتُهم في الرحلة المدرسيّة إلى «الجندي المجهول»: إنّ البحث عن المجهول يستلزم جرعة كبيرة من الحريّة، وقدرة فائقة على الانعتاق من القيود. لا تبحثوا عن المجهول هنا، في الخارج، تعالوا نبحث عنه في داخلنا. ترى هل سأكون- وأنا مدرّسة دائمة الآن- بنفس التوهّج إذا ما رافقتُ التلاميذ الجُدد إلى المكان نفسه؟.

على صوت أحدهم يقول:(الله أعلم وين بكرا بدن يرمونا، بالرقة. بإدلب. بدير الزور.. ما منعرف!) وصوت آخر يجيبه :(وين ما كان، المهم إنو نتعيّن ويصير في عنّا راتب)، استيقظَت من مونولوغ مرهِق، ورغم شبحيّة إرهاقه المرعِبة لم تستطِع أن ترحل من الغرفة من دون تقديم أوراقها للموظّف. غادرَت الزَّحمة مثقلة بهواجس الانتصارات والهزائم.

امرأة المعنى

لم كن لتستسلم للغواية ذاتها التي طالما استسلمت لها الغالبية الساحقة في مجتمعها، غواية التماهي مع هوية «كمّية» أقلّوية، ومع السلطة الأسدية في زعمها «حماية الأقليات». لم تكن كذلك، لتستسيغ الانتماء إلى «هوية ثقافية اجتماعية دينية طائفية» لم تشعر قط أنها تخصّها أو تعنيها. هي لطالما أمضت شطراً من حياتها قبل اندلاع الثورة، ولا تزال بعد اندلاعها، باحثةً عن هويتها الأرحب والأعمق والأصدق.

دوماً، كان صعباً عليها أن تكون من ذلك الطراز من البشر، الأفقي، المتكيف، المتمدد مع الحياة بشكل أبله. لذا كانت الرغبة الجامحة في التأمل والتفكير في ما ليس مفكَّراً فيه، رفيقتها أنّى اتجهت، من دون أن تشرد عن ذلك في علاقات اجتماعية من مثل الزواج والإنجاب وغير ذلك. تأمّلها ليس من النوع المترَف، بل يمكن القول إنه سيرٌ على رؤوس الحواس، صمتٌ في زمن الضجيج، يعبُّ من كل شيء ولا ينفصل عما يدور في الحياة اليومية.

***

هذا ما حدث ذات ركوب لها في حافلة «أقلوية».

كالعادة، لم يكن متاحاً لها ترَف الركوب في حافلة أفضل. اختارت مقعداً جلست فيه إلى جانب طالبة جامعية تدرس في كلية العلوم السياسية، كانت مثلها عائدة إلى محافظتها من العاصمة دمشق، إلا أنها لم تكن مثلها في ما يخص الموقف من الثورة. عرفتْ ذلك بعد نقاش قالت فيه الطالبة: «ما دَخَلْني بالسياسة». جملة انضمَّت بدورها إلى ركام الأشياء التي دائماً ما تدفعها إلى التعصيب والانفعال والإرهاق الذي يفضي في كل مرة إلى وحدة أشدّ إيغالاً في نفسها. هكذا كانت طوال سني الدراسة الجامعية وما قبل الجامعية، يؤذيها النمط المعتكف من الحياة والمكتفي بالتماهي مع السلطة، أي سلطة. سنوات ما كانت فيها لتطيق فكرة أنه لا يمكنها الحصول على أي شيء ما لم تحترف أسلوب السلطة ومنافقيها، وأنه يجب ألا «تحمل السلّم بالعرض»، كما كان ينصحها القاصي والداني.

لم تؤثّر الجملة تلك على أعصابها توتراً فحسب، بل حملتها أيضاً على مغادرة المقعد، لتجلس في مقعد آخر خلف السائق. مقعد مطلّ على الواجهة الأمامية للحافلة، وعلى الطريق السريعة الماضية أمامها بلا هوادة، الطريق التي يتجلى فيها الماضي والحاضر والمستقبل دفعةً واحدة. في هذه المرة، كان جارها رجلاً أربعينياً، يحمل في يده محفظة تقليدية تشير إليه كموظف حكوميّ. لم يكلّم أحدهما الآخر،

وخصوصاً أنها كانت لا تزال محبَطة ومتأثرة بحديث مزعج انتهى للتوّ في مقعد آخر.

مضى نحو ربع ساعة على انطلاق الحافلة من الكاراج، قبل أن يوقفها في الطريق حاجز عسكريّ أمنيّ. صعد الحافلة عنصر تفصح هيئته عن عمر لا يتجاوز العشرين، وبدأ يطلب الهويات الشخصية من الركّاب. كانت هي أول مَن باشر مهمته معها، كونها تجلس في المقعد الأول. في أثناء إخراج هويتها من الحقيبة، حدجته بنظرة مستاءة وقالت: «اطمئن نحنا سوريين، غريب وعيب يكونو الناس مضطرين يوقفو على حواجز عسكرية ويطالعو هوياتهم الشخصية داخل بلدهم»، فأجاب: «نحنا عمندوِّر على مخرِّبين»، ردَّت: «روحو دَوْرُو عليهم داخل إسرائيل». اشتدّ تنفسّه وارتفع ضغطه، لكنه في ما عدا ذلك ثابرَ على طلب هويات الركّاب، وحين انتهى، عاد إليها سائلاً: «شو قصدك من كل شي حكيتيه؟». كانت حانقة جداً إلى درجة الرد: «روح من وجهي». حدَّق فيها بوجه كأنه قُدَّ من حجارة، ثم أمر السائق بأن يأخذ أقصى يمين الشارع، وقفز من باب الحافلة فوق درجتين، متجهاً إلى ساتر تُرابيّ، خلْفه ما يشبه الخيمة. فيها أسرّة حديد «عسكرية»، انتصب أمامها عمود رُبِطت إلى وسطه بواسطة حبل، صورة من كرتون لبشار الأسد يلبس فيها نظارات شمسية سوداء، وعلى قمته ترنَّح علم «الدولة»، متشحاً ببقايا شحم أسود،

وقد التهم الاهتراء جزءاً من الخطّين الأحمر والأسود.

عاد العنصر برفقة أحدهم، يبدو أنه كان الأعلى سلطة في ذلك الحاجز. كان مدجَّجاً برشاش، وعلى خاصرته اليسرى تدلَّت قيود معاصِم (كلبشات) معلَّقة بالحزام. كانت مبلبلة الذهن. شعرتْ بنبض قلبها يتسارع. تساءلت في سرِّها عما يمكن أن يحدث. جال عقلها بين الخواطر: أَتتصل بالهاتف الخليوي بأخيها تخبره أين هي الآن وماذا يحدث؟ أَتبعث رسالة؟ أَتواجِه أم تصمت و«تعدِّيها»؟ هناك، في أعماق صدرها، كانت تشعر كم هي وحيدة في هذا العالم ومرمية بطريقة قاسية، وكانت تفكر في أن الوحدة نفسها هي التي تجعلها دوماً تدلي بما لا يجسر أحد على الإدلاء به. فهي ليست من النوع المشاغب أو المشاكس، ولا تتقن الاحتيال، ولا تقصد المغامرة المجانية ولا المجازفة العبثية، بل ببساطة، هي تجد نفسها تفعل هذا وتقول ذاك من دون سابق تخطيط، كرغبة في «ممارسة» ما تتأمله في فكرها، وتوقاً إلى معنى ما.

بينما كان الجميع في حال ترقّب وانتظار ما ستؤول إليه الأمور، راحت ترقب من النافذة مشهد استجداء السائق عنصر الأمن «ذا الكلبشات»، ودفعه برفق بكلتا يديه إلى الوراء والتوسّل إليه، في محاولة منه لمنعه من صعود الحافلة. بدا لها المشهد مجرّد تمثيل يقصد ممثلوه إخافتها فقط ربما، ثم سرعان ما قفزت إلى ذهنها ذكرى

تتقاطع كثيراً مع المشهد نفسه. ذكرى أمها التي كانت تدفع أباها عنها قبل أن يوسعها ضرباً، راجية: «خَلَصْ سامحها هذي المرة، بتوعدكْ ما تعيدها مرة تانية. مجنونة لا تعتَبْ عليها». وقفزت إلى ذهنها أيضاً ذكرى المدرِّسة في الصف الخامس، التي جاءها مرة تلاميذ يشكونها إليها، فنصحتهم: «خوثة، أتركوها لا تردّوا عليها». وقد زاد على تشابه المشاهد تشابهاً، أن الرجل، جارها في المقعد، قال لـ«ذي الكلبشات» حين صعد أخيراً إلى الحافلة، وبدأ التحقيق معها: «خَلَص اتركها، بتوعدكْ ما عاد تعيد هذا الموقف التافه»، ثم ختم كلامه بأن طلب إليها أن تعتذر من «ضابط الأمن» بحسب وصفه. لم تستجب طلب الرجل في الاعتذار - مع أنها كانت خائفة- بل لبثت هي و«ذو الكلبشات» قرابة ثلاث دقائق يحدِّق أحدهما في الآخر. كانت نظراته ممعنة في الحقد، والارتباك أيضاً، عندما قال لها بقصد تكريس مزاعم النظام عن «الخونة والعملاء» في أذهان مَن يسمعه من الركّاب في آن واحد: «عبتقولي روحو دَوْرو على المخرِّبين في إسرائيل؟! شو إعملك إذا كل إسرائيل هون؟». لاحظت أن «ذا الكلبشات» كان غير جاد في أذيتها، إذ لم تكن هناك أوامر على ما بدا لها، تسمح بـ«شحط» «أقلوي/ة» كما يحصل لـ«أكثري/ة»!.

بدت الحافلة كأنها نموذج مصغَّر عن «مجتمع أقلوي»، وما دار فيها كان ربما يكثّف «موقف» المجتمع نفسه من الأحداث التي

تعصف بالبلاد، إذ ظل قسم من الركّاب صامتاً لم ينبس ببنت شفة، ولم يطرف له جفن، كأن ما يدور من حوله لا يعنيه في شيء، وانقسم البعض الآخر بين مؤنّب ومعاتِب، ومتعصِّب، ومساوم، وراغب في التهدئة، وكاره، ومتثاقف، ومستعرض، ووسطي، ومتطرف...إلخ. بدا ذلك كله عندما حاولتْ بشكل تلميحي غير مباشر، الاستعانة بالركّاب واستمالة عواطفهم عبر القول بصوت مسموع: «أنا بشو غلطت؟»، فقاطعها في اللحظة نفسها صوت نسائي كاره ويعتمله الغضب: «بَس تكوني وحدك تصرّفي على كيْفك، ما حدا مضطر يدفع الثمن معك». أما الغالبية فقد آثروا تأنيبها. وكان التأنيب نابعاً على ما بدا لها، من ذهنية أبوية طائفية تنظر إلى الشخص بوصفه ابناً ل«الجماعة»، لا يجوز له الانفراد بالرأي أو الشذوذ عما تتبنّاه الجماعة، وتعتبر الحالة الفردية، الفريدة والمتفردة، توريطاً للجماعة بكليتها، وإساءة لسمعتها أمام «الخارج».

عندما علّق أحد المزايدين بلؤم يقصد التناهي إلى سمع «ذي الكلبشات»: «معارَضة زبالة، البلد مليانة عصابات، وفيه كَمْ كلب بدْهم ترباية». وشحَنَ آخر الأجواء المحمومة أكثر بالقول: «يا جماعة ما عاد حدا متحمّل غلاء المعيشة وأجرة المواصلات صارت نار، كلّو بسبب هالحرية إلّي طلعولنا فيها»؛ عَلا صوت الرجل الجالس إلى جانبها: «هلّق مش كل واحد يعمل حالو بطَل زمانو على المخلوقة!

رجاءً أُسكُتو». ثم وجّه الكلام إليها: «إذا بدْهم ياخذوكي ما رح نسمحلهم لأنك بنت بلدنا وما منْكون رجال إذا ترَكْناكي». غير أنه، كمَن تدارك خطورة ما يقول وضآلته أمام ما يطرح، أضاف: «أو يمكن وقت الجد نتركك، الواحد ما بعود يسأل غير عن نفسو. شو بعرّفني!». أما هي، فقد احترمت الجملة الأخيرة. لا لأنها تستحق، بل لأنها أصدق من سابقتها.

شرد فكرها قليلاً في «الرجولة» بمنطقتها الغارقة في أقلويتها. الرجولة التي طالما صُدِّعت الرؤوس بها قبل اندلاع الثورة، ثم تصدَّعت بعد اندلاعها، ولم يبق منها سوى بعض الاستعراض الذكوري الهشّ في «حماية نساء الجماعة». قطعت شرودها يدٌ ربتت كتفها من الخلف. استدارت، فتلاقى نظرها بنظر امرأة تقول لها بلهجة ودّية: «الأمن عبيطلب هوياتنا بقصد حمايتنا، لا تفهمي الأمور خطأ». بيد أنها كانت تفهم الأمور جيداً إلى درجة إشاحة وجهها بسرعة عن المرأة. فهي ابنة المنطقة والثقافة نفسهما، وتعرف ما عنته المرأة ب»حمايتنا»، لذا لم تشأ أن تدخل معها في أيّ نوع من التواطؤ، حتى لو كان مجرّد مساومة بواسطة النظر بالعيون فقط. مع أنها كانت في أمس الحاجة إلى «احتضان اجتماعيّ» ينتشلها من شعورها المتعاظم بالوحدة، والرفض والنبذ.

أصخت السمع إلى صوت أحدهم يتحدث إلى المرأة التي كلّمتها للتوّ.

نتفٌ صغيرة من الكلام الذي بلغ سمعها، من مثل: «ما بيطلَع بإيدنا نعمل شي، ما إلنا غير نبقى مع النظام (القوة) لنشوف لوين رايحة الأمور، نحنا مش طالِعلْنا شي من حدا». شرد فكرها ثانية في ذلك «الابتزاز الأقلّوي» القاصد إلى اصطناع تصديق النظام وروايته عن «العصابات المسلحة»، و«حماية الأقليات»، بغية تحصيل ما يمكن تحصيله من أيٍّ كان، عبر ادعاء «الضعف الأقلوي»، و«الحاجة إلى الطمأنة». بدا التصديق ذاته، بالنسبة إليها كأنه «عقد سياسي أقلوي»، اتُّفِق عليه ضمنياً، رمزياً، ومن دون قصد.

سألها «ذو الكلبشات»، بعدما ألقى نظرة سريعة على الكتب التي تحضنها بين ذراعيها: «ما علَّمتكم سوريا؟!»، ثم أدار ظهره، وبشكل سمج يعوزه الأدب والتهذيب، قال للسائق في أثناء نزوله من الحافلة: «حرِّك يا معلِّم». كانت تعلم أنه سأل ولم يكن ينتظر إجابة، ولا هو في وارد احترام العلم والمتعلِّمين أصلاً. إنما ألقى بسؤال أمنيّ ملغَّم، يشير إلى «خيانة» مَن يعارض «سوريا الأسد»، هذه التي لطالما «علَّمت» الناس «مجّاناً»، و«أطعمتهم» و«عالجتهم» من وجهة نظر «أمنيّة».

مع أنها ارتاحت بعض الشيء، حينما غادر «ذو الكلبشات»، وانطلقت الحافلة من جديد، إلا أنها لم تستطع حبس دموعها التي هطلت على خدّيها فجأة. أدارت وجهها صوب النافذة على يسارها،

وراحت تبكي بحرقة. لم تكن الدموع فقط نتيجة لحظات عصيبة مقزِّزة عاشتها. فقد كان «السؤال» الأخير الذي رماه «ذو الكلبشات» بسرعة قبل أن يغادر موجِعاً أيضاً، وخصوصاً أنه أجَّج في داخلها ذكريات التشرد والبؤس، وقسوة البحث عن عمل في «سورية الأسد» وذلّه، والمعاناة التي تحمّلتها في سبيل إنهاء المرحلة الأولى من الدراسة الجامعية بالاعتماد شبه المطلق على ذاتها، والمسابقات التي كانت تنجح فيها مراراً من دون أن يتم تعيينها، وبقاءها بلا عمل يمكن أن تعتاش منه ويساعدها في تحقيق حلمها في متابعة الدراسة في الماجستير.

كان ذلك كله، قبل اندلاع الثورة. لكنها بعد اندلاعها، ما عادت تفكر في وظيفة حكومية، على الأقل قبل أن يسقط النظام. وما عادت تفكر كذلك في متابعة الدراسة في الماجستير، ليس فقط تضامناً مع كل تلميذ أو طالب اعتُقِل أو استُشهِد أو تركَ الدراسة بسبب قصف مدرسته أو جامعته مثلاً، بل لأنها باتت مقتنعة في أن مجرد ولوجها «مؤسسات» النظام، أو قبض معاشات من «المال الحرام»، هو اعتراف معيّن بشرعيته، وخيانة للثورة والثوار، ولدماء الشهداء.

هكذا، أمضت الربع الأخير من «الرحلة» في الحافلة، وهي تهذي بالتغيير، وبالتعرّف إلى أولئك الذين يشكِّل التعرف إليهم فرصة مهمّة لاستفزاز شيء ما في داخل الآخر. أولئك الذين يتركون بصمة، وما

انفكّوا يعودون إلى الأذهان مهما انقضى من السنوات.

أمضت الرحلة وهي تبحث عن معنى. يحصل أن يفكّر المرء في البحث عن معنى حيث لا يمكن أن يكون ثمة معنى.

ديوتيما

تحوي صفحات الدفتر، نصوصاً لأيام مكتوبة بخطّ يد، بعضها امّحى نهائياً بفعل استحالة الكلمات جثثاً مشوّهة لا يمكن التعرّف إليها، وسط هيولى الحبر الذي لم يعد له شكل أو معنى. البعض الآخر لا تزال قراءته ممكنة، وإن يكن ذلك بمشقّة وصعوبة بالغة. في الدفتر، نصوص من سيَر ذاتية لكثيرين وكثيرات، بعضها لكاتبة اسمها الفلسفيّ «ديوتيما السوريّة»، تلك التي تفضّل – بمحض الإرادة- في ما يخصّ شأنها الشخصيّ، إنجاب ذريّة روحيّة(أفكار)، على إنجاب الأطفال البؤساء. «الرجل ذو الوجوه الستة»، كان واحداً من نصوصها، جاء فيه: «في يوم الكذب الاستثنائيّ، الذي اعتاد خلاله سكان «مدينة الركوع الجبريّ والطوعيّ» الإفصاحَ عن كذبهم الكاذب، على عكس الأيام العادية التي يكذبون فيها حقيقة وصدقاً، من دون أن يعترفوا أو يرفّ لهم جفن؛ حضرتْ ديوتيما إلى مبنى «يعمل» فيه حاكم المدينة العسكريّ، تلبيةً لاستدعائه لها باعتبارها كاتبة ثائرة، وثائرة كاتبة.

بدا المخطط السيكولوجيّ للبناء واللقاء، بالنسبة إليها، على الشكل الآتي: خطٌّ بيانيّ يرتفع تدريجياً، آخذاً شكل قوس منحنية في الأعلى، قبل أن تنحدر من الجهة الأخرى تدريجياً أيضاً، وثمة عنصر لكل مرحلة يتولى فيها مهمة واحدة محددة. في بداية الخط البيانيّ

ونهايته، كان لديوتيما لقاء سريع مع عنصرين مطلوب منهما تولّي مهمتين «ليّنتين» مدروستين. الأول، كانت مهمته الاستفسار بشكل عام عن مقالات ثائرة وحرة، ثابرت ديوتيما على كتابتها منذ اندلاع ثورة الحرية. الثاني، كانت مهمته الاستفسار بشكل عام عن تفاصيل شخصية. في أعلى الخط البيانيّ، كان لها لقاء مطوّل، مشطور نصفين، أحدهما متوسط «اللين»، والآخر عنفه معنويّ مُحكَم الضبط وممسوك، وفق ما تقتضيه المصلحة السياسية البراغماتية، المناطقية، الطائفية، الإعلامية والدولية. صباحاً، وقت الدخول من الباب الرئيسيّ، جاء العنصر ذاته المطلوب منه تولّي مهمّة «ليّنة» وسريعة في بداية الخط البيانيّ، «مستقبِلاً»، ومساءً، عند الخروج من الباب نفسه، في اليوم نفسه، كان العنصر ذاته المطلوب منه تولّي مهمّة «ليّنة» وسريعة في نهاية الخط البيانيّ، «مودِّعاً».

بداية الخط البياني المتصاعد، تكون بمثابة لحظة لا تزال دنيوية حيوية ممهورة بالطاقة والعنفوان، بالنسبة إلى مُستدعَى من مثل ديوتيما، على النقيض من النهاية التي ينتهي إليها الخط البيانيّ نفسه، حيث تبدو هذه الأخيرة، كأنها لحظة أُخروية عدَمية مطعونة ومهزومة. يصعد شخص من مثل ديوتيما، من بداية الخط البياني، إلى القوس المنحنية في أعلاها، حراً، في مقدوره أن يجيب على سبيل المثل، ب«لا تعليق» عن سؤال ما يُطرَح، انطلاقاً من إيمانه في أنه حرّ

في أن يتكلّم أو يجيب، وحرّ في ألاّ يفعل، فهو أصلاً مدنيّ لا ينبغي استدعاؤه إلى مكان عسكريّ. لكنه يهبط من الجهة الأخرى للخط البيانيّ، إلى «العالم السفليّ»(السجن)، لـ«يعود» منه الشخص الذي لم يعد حراً الآن، إلى الحاكم نفسه في أعلى الخط البيانيّ، بعد أن يكون قد أُوحيَ إليه ما الذي يمكن أن يحصل إذا لم يُجب عن أي سؤال يسأله الحاكم ولم ينصع. قلبُ ديوتيما الجسور الذي كان أمام الحاكم، قبل أن تهبط إلى «العالم السفليّ»، صار هشاً في ذاك «العالَم» الذي يُجرَّد فيه الكائن البشريّ من كل إرادة.

في أعلى الخط البيانيّ، قبل أن تلجَ ديوتيما «العالم العلويّ» الفخم(مكتب الحاكم)، كان قد أُوحيَ إليها، بأن الحاكم لديه أشغال وضيوف، لذا ينبغي لها الانتظار الصبور، حتى أنّ ثمة مسرحيات عديدة مُثِّلت أمامها، كشفتْ اصطناعها، انطلاقاً من كونها امرأة مفطورة على الحدس. مسرحيات كانت ترمي أيضاً إلى إثارة إعجابها بما يجري عموماً في هذا المكان، من مثل: مجيء شخص يعرِّف بنفسه أمامها كمسؤول كبير متقاعد، وبعد انتظار طويل، يغادر المكان من دون أن يرى الحاكم، على اعتبار أن الأخير منشغل، وعلى الرغم من كون المسؤول هذا، تربطه بالحاكم علاقة شخصية كما قال على مسامعها أيضاً. هنا أيضاً، قبل أن تلجَ «العالم العلويّ» الفخم، قيل لها في معرض الإجابة عن استفسارها حول أسباب عدم قصفِ

الإرهابيين الظلاميين التكفيريين: «خلّيهن يقتلو ببعض»، أي قوى الثورة وهؤلاء. وقيل لها في معرض الإجابة عن استفسارها حول أسباب وجود ميليشيات غريبة في البلد، يُفترض أن تكون وجهتها العدوّ الإسرائيليّ: «هنّي عندن مشروعن الخاص هون». وقيل لها في معرض الردّ على دعوتها لهم بأن يحترموا المثقفين والسلميين: «إن حمْل الفكر أخطر من حمْل السلاح، وإن «التسميم» بالأفكار أمضى». قيل الكثير غير ذلك، مما يصعب ربما الخوض فيه والتفصيل. الأدوار المختلفة، التي طالما اضطلع بها عناصر عديدون، على هيئة مراحل تقترب رويداً رويداً من «عالم» الحاكم رئيس المكان، كانت جزئيات اجتمعت كلّها في نهاية المطاف في شخصه. فبالكليّة هذه، يصير الحاكم سيداً مطلقاً على مرؤوسيه. خلصَتْ ديوتيما إلى الاستنتاج هذا، بعدما ولجتْ أخيراً «العالم العلويّ» الفخم، وخاضت تجربة، نقّلها فيها الحاكم، بمهارة ساحر، بين وجوهٍ ستة، يرتدي ملامحها ويخلعها واحداً في إثر واحد، بخفّة، وبآلية المعتاد. كان الوجه المزدري، هو الوجه الأول الذي استقبلها فيه. أمرَها بتعالٍ بأن تقف أمامه، هو الجالس خلف طاولة مكتبه، بعدما تَرجم الفلسفة إلى «فزلكة». بدا لها مصطنِعاً الانهماك في الشغل وفي تقليب أوراق على الطاولة المستطيلة الكبيرة أمامه. بدا لها أيضاً أنّ فنجانَيّ القهوة على طاولة صغيرة أمام طاولة مكتبه وأمامها، وُضِعا بعناية تقصد مواصلة الإيحاء بأن ثمة ضيوفاً كانوا هنا. وبدا لها أن قدوم أحد

العناصر مسرعاً وهمْسه في أذن الحاكم، كان مجرّد مقدمة لإرباكها وتشويشها. بعد لحظات، رفع الحاكم نظره عن الورق، ليثبّته على القسم السفليّ من جسدها. حدّق وحدّق. انتبهت ديوتيما إلى أن التحديق المدروس هذا، في انتهاكه حرمة جسد، لم يكن مجّانياً، بل أراد ربما أن يبعث برسائل مفادها: أنتِ مجرّد كائن مختزَل في القسم السفلي هذا. رأسكِ، عقلكِ، فكركِ، وجهكِ - عدا الشفتين فيه، باعتبارهما امتداداً طبيعياً للقسم السفلي، لا حاضنتَي كلام-، ذلك كله لا معنى له ولا مغزى. أمام الانتهاك الذكوريّ الصارخ هذا، لم ترتجف الساقان الملتصقتان الواقفتان، ظلّتا بكامل كبريائهما. بعد «نقاش» لم يتجاوز خمس دقائق، سألها هو فيه عن «القانون»، وعمّا إذا كانت مواطِنة عربية سورية حقّاً، ودَعته هي إلى الكفّ عن «التخوين»؛ قرعَ الحاكم جرساً، فدخل «عالَمه» عنصرٌ. أمرَه بأن يُنزلها إلى «العالم السفليّ». في هذه اللحظة، نظرت ديوتيما في عينَي الحاكم نظرة متوقدة متوعِّدة؛ خلعَ الحاكم على إثرها الوجه الأول، ليرتدي وجهاً متوسِّلاً. قرأت في الوجه المتوسل هذا، هلعاً في شأن كيفية التعاطي مع امرأة كهذه في مدينة كهذه، ورجاءً بألاّ تعارض ما سيطلبه منها، بعدما تعود إلى «عالمه» من «عالم سفليّ» تدخله هو و»العالم العلْويّ» للمرة الأولى في حياتها.

بعد العودة من «العالم السفليّ»، إلى «عالمه»، استقبلَها الحاكم

بوجه ثالث أصفر مبتزّ. شاء للوجه هذا التلصص على حياتها الشخصية كامرأة، قبل أن يستشيط في وجهٍ رابع غاضب يقابل به أي محاولة منها للدفاع عن نفسها، أو التكلم في أي شيء. ربما كان ارتداء هذا الأخير، تمهيداً لارتداء وجه خامس هادئ مفاوِض، قُدِّمتْ إليها من خلاله عروضٌ من مثل «وظيفة حكومية»، كما دُعيت بشكل غير مباشر إلى قراءة ما يكتبه الحاكم في هذه المجلة وتلك، بعدما عمدَ إلى تعريفها لفظياً إلى شهادات عالية حاصل عليها، وغير ذلك مما اقتضاه الظهور أمام امرأة جميلة حرة تفكر، بمظهر اللمّاح، البارع في دحر الخصوم الفكريين بالفكر. ولكي يستحثّها ضد إرادتها، ويوجّهها صوب توقيع تصريح خطّي، تقول فيه إنها كانت مضلَّلة وإنها لن تعود إلى كتابات «تسيء» إلى «رموز الوطن»؛ عاودَ ارتداء وجه الابتزاز ملتفِتاً إلى الأخ، عازماً على تحميله مسؤولية مقالاتها، إذا رفضتْ توقيع تصريح. لم تُعر ديوتيما أدنى اهتمام لعرض الوظيفة الحكومية، لكنها انصاعت إلى أمر توقيع التصريح. لم يكن أمامها سوى أن تنصاع، وبأقل الخسائر.

أمرَ الحاكم العنصر بأن تسجّل ديوتيما عناوين مقالات محددة، كانوا قد احتفظوا بنسخٍ ورقيّة منها. بعد انتهائها من كتابة التصريح وتوقيعه، ساوَرَها سؤالٌ صامت: لماذا استُثنيَتْ مقالات أخرى كتبتْها ولم تُدرَج في التصريح مع هذه؟(سؤال فكّرتْ فيه مليّاً في ما بعد،

ولاحظتْ أن جُلّ المقالات المستثناة، كانت قد ذكرتْ فيها اسم منظمة دولية مثلاً، أو جهة ما خارجية، وخلصتْ من خلال ذلك إلى أنه ربما يرجع ذلك إلى حرص هؤلاء على عدم إزعاج المجتمع الدولي والحلفاء العلنيين والمخفيين في أي تفصيل مهما يكن هامشياً. أما في ما يخص المقالات التي وقّعت عليها، فقد خلت كلّها من أي ذكرٍ أو إشارة لأي منظمة دولية، ما يعني أن الداخل لا يعني هؤلاء، بقدر ما يحسبون ألف حساب وحساب للخارج).

بدا لها الحاكم في الوجه السادس المودِّع، منتشياً بنصر سياسيّ أحرزه للتوّ، ظافراً كمَن يمعن في غزْل خيوط المصائر. قال لها: «إختْنا»، إن عُدتِ للكتابة سنجلبكِ حينها بطريقة غير ودّية. بينما كانت ديوتيما تنصت إلى كلمة «إختنا»؛ حضر مباشرة إلى ذهنها مشهد التحديق، قبل قليل، في القسم السفلي من جسدها، قالت في سرّها: عجيب!

* * *

عرفتْ ديوتيما حين خرجتْ، أنها قد دخلتْ الآن مرحلة جديدة، سوف يجري فيها التحريض الممنهج ضدها، والتشويه الممنهج لصورتها أمام الناس. عرفتْ أكثر، مصدر اللوثة. مصدر هذا الكمّ الهائل من الوجوه المستنسَخة، حيث نظرة الحقد نفسها، الابتسامة السخيفة

نفسها، خطوط اللؤم نفسها، اللون الممسوخ نفسه، الرتابة نفسها، التركيب نفسه، الاستجابة حيال المواقف وكل شيء نفسها. خرجتْ فاقدة الثقة في كل شيء تقريباً، خصوصاً بعدما أدركت كم كانت مخدوعة في أشخاص، وكم كانت بريئة وطيبة حين كانت ولا تزال، تظن أن حياتها الشخصية وحريتها الشخصية، ملكها وحدها، وأن أحداً في هذا العالم لا يحقّ له التدخّل فيهما. خرجتْ فاقدة الثقة في كل شيء تقريباً، في ما عدا عاشقَيْن يافعَيْن مستقبليَّيْن قادمَين (في يوم ما من عام 4015 م مثلاً)، تسابق أقدامهما الريح، يستقلاّن أوّل مركبة فضائية، ويشدّان الرحيل صعوداً إلى السماء، لغرض استكشاف شيء ما عن آثار أسلافٍ ثائرين، تهيم أرواحهم في نجوم ونجمات مضيئة خالدة، محتسين شفقاً قانياً ساعة المغيب، ضاربين كؤوس الغيم، وبأيادٍ لها خاصيّة النسيم، ممدودة من حواف السماء، يروحان يحاولان برفق، انتشال الجزء المحروق من الأرض.

وعرفتْ أكثر، حجم الكارثة إذ تصير المرأة «شبّيحة»، والنساء «عصابة»، إذ يُقاد الأطفال إلى «القوادة»، وكادتْ تسمع هديراً كونياً يدقّ ناقوس الخطر حيال الكارثة هذه.

وعرفتْ أكثر، كيف أنّ بعض الذكور من «الثائرين» و«المثقفين»، ليس لهم أن يساندوا امرأة تفكر. تريد أن تفكر. تفوقهم في ذلك. يطيب لهؤلاء مساندة امرأة ثكلى مثلاً، أو امرأة تبكي بالعينين

لا القلب، وتنزف بالجسد لا الروح (وهذا طبعاً ضرورة إنسانية وأخلاقية)، لكن ديوتيما، مراراً قرأتْ شماتة في عيون «ثائرين» و«مثقفين»، بدا لها أنهم كانوا يتمنّون أن تتوقف عن الكتابة. مراراً سمعتْ تبكيتاً في غير محلّه. لكن أحداً لم يقل كلمة حق حيال حق، وأحداً لم يشكر (هي التي لم تُرد شكراً أصلاً). الجميع راح يريد جرّها إلى هاويته، لكنها ببساطة، لا تريد أحداً. وعرفتْ أن حقد بعض النساء على امرأة تفكر وغير تقليدية، لا يقلّ عن حقد بعض الرجال حيال المرأة نفسها. وعرفتْ أكثر أن أقرب الناس في أوقات المحن – والأوقات هذه لم تهدأ يوماً – قد يكونون من ألدّ الأعداء. وأن أحطّ الناس، في أزمنة الغثيان، يظنّون أنفسهم قِمماً.

وعرفتْ أكثر أن الوجه الأشدّ خطورة، قد يكون وجه امرأة استحالَ فطْراً سامّاً، تحت سطحه خطوطٌ صفراء صفراء، تقطر السمّ قطراً، مُفضيةً إلى نزيف. وجه يسدي النصح الوقح إلى النازف بأن يعتبر النزف «تبرّعاً بالدم».

* * *

«لا أطيق التحدّي، ولا المجابهة أطيق، لكن بالوحدة الكثيرة هذه، سأفتح السماء ستارةً، وأشعل النارَ في هشيم الحب الذي في براريَّ».
هكذا قرّرتْ ديوتيما.

ثالثاً: أنا.. هي

لم أعتد في حياتي على الالتزام بشيء، لا لأني مخادعة، بل لأني خائنة من طرازٍ عالٍ. لكن هي، أعني ثورة الحرية السورية فكّكتني، أسرَتني قطعة قطعة، ووحدها جعلت مني عاشقة مخلصة، منحلّة فيها كمثل حلول إله اسبينوزا في الطبيعة. كنتُ لا أطيق أي محاولة لتصنيفي أو اختزالي، غير أني وجدتُني لاهثة، مستسلمة لذلك الاختزال الرفيع، حيث اللا أفق واللا نافذة واللا باب واللا قيمة أو امتداد سوى شعاع الحرية والكرامة. ماعدتُ باحثة عن جمال لأني وجدته، هو الحب إذن وقعتُ فيه، بل علوتُ به. إنه حب متقد لا مشتعل، لأن الاشتعال لحظة قبل انطفاء، فيما الاتقاد توهج دائم ومستمر. هو حب يرى، ويرى جيداً والعمى معه معدوم. أحبكِ يا ثورة العزّ والانعتاق.

باقة حب لعيون أطفال درعا

أعذّبني، أقهرني، أوبّخني، وأسألني، ماذا فعلتِ؟ ماذا قدّمتِ؟ أعترفُ بأني لستُ بالشجاعة التي تخوّلني إنهاء حياتي احتجاجاً على ما حصل لأطفال درعا !ما قيمة أن نكتب؟! نستهجن؟! نستنكر؟! وطني حبيبي، رمّم جراح أطفال درعا. درعا تنزف.

تربّيت على مقولات يردّدنها نسوة عجائز: «الجار موصّى بالجار» و»إذا جارك بخير؛ إنت بخير» و»الرسول وصّى بسابع جار». من السويداء أنا، جارة درعا وشقيقتها. سامحيني يا درعا لأني لم أستطع أن «أتوصّى» بكِ. سامحوني يا أطفال درعا وأنا أعلمُ كم أنتم كبار.. كبار..كبار، سامحوني لأني لم أستطع أن أقبّل أصابعكم المنزوعة الأظافر .أتآكلُ أنا. قلبي يحترق. لستُ بخير فجيراني»أخوتي» ليسوا بخير! أصمّ أذنيّ لكي لا أسمع أصوات الطّبول تُقرَع احتفاء بالموت، موت جيراني. أغمضُ عينيّ لكي لا أرى ابتهاج الناس من أجل حفنة من الليرات لونها بلون دماء جيراني «أخوتي» المُرَاقة في الطرق.

أتذكّر يوم زفاف صديقتي كيف كان بارداً، باهتاً حيث اللاغناء واللارقص احتراماً لجيرانهم الذين مات ابنهم. ما أنبل هذا العُرف! أن يُكتم الفرح حرصاً على مشاعر الحزن التي تكتنف صدور الآخرين. والآن، كيف؟ كيف يُفرّط بأجمل الحميميّات وأحنّها؟! كيف يرقص

الناس ويغنّون دونما اكتراث لحُرمة الموت، ودونما اعتبار لمشاعر مَن فقدوا أغلى أقربائهم؟! ملعونة هي الحياة إذ يفارقها نبضها! ملعونون هم البشر إذ يفارقهم الحُبّ!

ستكبرون يا أطفال درعا .ستكبرون. تتذكّرون تلك اللحظات من حياتكم. لحظات الاعتقال والتّعذيب. لحظات انحناء أجساد رجال «الأمن» الطويييييييييلة.. الطويلة لكي تطالكم وأنتم من القصر ما يكفي، ومن غضاضة الجسد ما يكفي. نعم، قصير الجسد، قاصر العمر !ربما حلمتم داخل معتقلكم ببسكويت وشوكولا وألعاب، وربما افتقدتم أصدقاءكم حيث كنتم تلعبون معهم بالكرة في ملعب المدرسة، أو ربما لم تفكّروا في شيء سوى الخلاص من وجعكم اليوميّ. لكن العزاء الوحيد ربما رغم كلّ شيء هو أنكم أطفال بعقول مفتوحة على شرفات الطفولة الطافحة حُبّاً، حَدْسَاً، دهشة، تساؤلاً، بصيرة نافذة تتخطّى رؤى الكبار. كبار السّن. ستكبرون.. تتذكّرون لحظات تعذيبكم، ولكن ستباغِتُ تلك الطفولة ذاكرتكم الحزينة، المتألّمة دوماً، تذكّركم بأنها أشعلت بطراوتها وطزاجتها فتيل الحرية فتنسون وجعكم، بل ربما»ستسامحون أعداءكم! لكن المهم أن لا تنسوا أسماءهم».

أعلمُ جيداً أنكم الآن في حاجة إلى صدور أمهاتكم وأحضانهنّ الدافئة أكثر من أي وقت مضى. أعلمُ أنكم في حاجة إلى رعاية طبيّة جسدية

ونفسيّة. وأعلمُ أنكم لستم في حاجة لبضع كلمات منّي، كلمات قد لا تتمكّنون من قراءتها أصلاً، ومع ذلك لديّ رغبة في إهدائكم كلمات أغنية كنّا دائماً نردّدها أنا وأخوتي حين كنّا صغاراً، هاربين من وحشيّة إسرائيل حين اجتاحت لبنان سنة 1982، قادمين إلى سورية حيث الوطن الأم لأبي. أمي لبنانية، كانت دائماً تقول لنا حين ترانا نعاني قسوة التفاصيل اليوميّة في سورية: إن سورية آمنة والتعليم فيها جيّد لذلك تركنا لبنان وهرعنا إليها. لكن كم مرّة باغتتُّ أمي تبكي شوقاً لوطنها وأهلها في لبنان فأكتشفُ حجم ما تعانيه. طويلة هي الساعات التي جلستُ فيها أفكّر: لماذا أبي لايزال يسافر للعمل في لبنان ما دمنا غادرنا ذلك البلد قاصدين سورية كموطن أصليّ؟!

أستحضرُ الآن كلام أمي وتجتاحني أسئلة ينخرها الألم والفضول: ترى ماذا تقول الأمهات في درعا لأطفالهن؟! وإلى أين سيأوي الأطفال إذا ما طردتهم بيوتهم. مدارسهم. وإذا ما تبرّأ منهم الوطن؟! عن أي تربية وتعليم سنتحدّث بعد اليوم؟!

إليكم الأغنية يا أطفال درعا. أقدّمها باقة حبّ لعيونكم المحدّقة في الأفق.

«يلّلا نعمّر يا أصحابي/ بيوت صغيري بوطنّا / بكرى منكبر يا أصحابي/ وكل الدنيا بتكبر معنا/ يلّلا نزرع شجر أخضر/ حتى معنا يِعْلى ويكبر/ بطرقاتك يا وطنّا/ كل الدنيا بتبقى إلنا».

أولى محاولات نفث الروح في القانون

على الجدران، كتبَ الأطفال «الشعب يريد إسقاط النظام». إلى المعتقل، سُحِبوا وسُحِبَت أظفارهم. هَشَلَ أهلوهم تنهش عقولهم مخالب الأسئلة، فوُوجهوا بالصفاقة وصفْق الأبواب. هام الناس على وجوههم وقامت قيامة الاحتجاج. سِلمياً كان، وكان الرصاص الحي رداً. سالت الدماء، خُضِّبَت الطرق بالقتلى والجرحى، علَتْ أصوات الأنين والوجع، والفزع والفزعة. علت أكثر، ووضح أكثر صوت حريةٍ فتيّ، وصلت الأصوات إلى مسامع الجيران في جبل حوران، فتلقّفها عقل متوفز. في السويداء، سارع محامون إلى طرْق أبواب النقابة، وكمَنْ ينحت في صخر الإعجاز، مُهِر بيانٌ بختم النقابة، يجهَر بالموقف مما يجري في سهل حوران (درعا)، فكان البدء، وكانت الكلمة الحرة في بيان. إنه أول حراك نقابي في سوريا الثورة.

دعا البيان إلى: «1- رفْع الطوق الأمني المفروض على مدينة درعا والتحقيق الجاد والشفاف في الحوادث التي ترافقت مع إطلاق الرصاص الحي على المواطنين العزّل، بمعرفة لجنة قضائية نزيهة تشارك فيها نقابة المحامين. 2- السماح لوسائل الإعلام كافة بممارسة دورها بما يتلاءم وحرية الإعلام ومهنيته. 3- رفْع حال الطوارىء والأحكام العرفية وإلغاء المحاكم الاستثنائية، وكفالة الحق الدستوري بالتظاهر السلمي. 4- إصدار العفو الخاص عن معتقلي

الرأي كافة، وإطلاق سراحهم فوراً وتسوية أوضاعهم الوظيفية والنقابية. 5- تحقيق مبدأ الفصل بين السلطات، والتفعيل الحقيقي لاستقلال القضاء. 6- إلغاء النصوص القانونية التي فرضت حال الوصاية على النقابات المهنية. 7- إصدار قانون عصري للأحزاب. 8- مكافحة الفساد ومحاسبة المفسِدين أياً كانت مواقعهم وصفاتهم. 9- تحديد صلاحيات الأجهزة الأمنية، وإلغاء رقابتها على التعيينات للوظائف العامة، وإلغاء رقابتها أيضاً على منْح التراخيص لطالبيها، وحصْر ذلك بجهة إدارية مستقلة. 10- تشكيل لجان قانونية ومهنية متخصصة لإعادة النظر بالقوانين التي تخالف المبادئ والأعراف الدستورية ليصار إلى إلغائها أو تعديلها».

***

كُتِبَ البيان بعد خمسة أيام من اندلاع أحداث محافظة درعا (مهد الثورة السورية) 18/3/2011، وظهر للعلن بتاريخ 27/3/2011، بعدما مُهِرَ بختم فرع نقابة المحامين بالسويداء، وأخذ شكله النقابي. في اليوم نفسه، نفَّذ المحامون بلباسهم الرسمي الخاص «الروب»، أول اعتصام نقابيّ أمام فرع النقابة بالمحافظة ذاتها، قُرِأَ البيان المذكور في الشارع، ورُفِعَتْ أول لافتة، كانت تقول: «كلّنا درعا، نعم للحرية، لا للقتل»، كما ارتفعت أصوات تنادي للمرة الأولى: «يا حرية وينك وينك، والطوارئ بيني وبينك». ما أجبَرَ ممثل الحكومة

في المحافظة آنذاك، على المجيء الفوري إلى النقابة. اجتمع بالمحامين المعتصمين، متمنّياً عليهم فضّ اعتصامهم، «واعداً» بتنفيذ بيانهم ذي المطالِب التي كانت تُعتبَر في ذلك الوقت من أقوى المطالب وأكثرها جرأة على الإطلاق.

***

كتفعيل للحراك النقابي، تصدَّر محامو السويداء الأحرار بتاريخ 19/7/2011، الدعوة إلى اعتصام أمام مقر فرع نقابتهم، بالمشاركة مع أحرار نقابات المهندسين، والمعلمين، والأطباء، والهيئات النقابية والتجارية الأخرى في المحافظة. ما دفع بميليشيات حكومية «شبيحة» إلى تطويق النقابة، بإشرافٍ من «رجال الأمن» وممثلي النظام في المحافظة، بغية منْعهم من تلاوة بيان أصدروه، كان ينص على ضرورة تفعيل دور الدولة كمؤسسات، ويرفض ظاهرة «الشبّيحة» التي شاعت وسادت، ويدينها كونها تمثل تهديداً خطيراً للسلم الأهلي. وعلى الرغم من المحاصَرة والتهديد، اعتصم المحامون أمام مبنى النقابة، وقرئ البيان بشكل علنيّ. كانت نتيجة ذلك كله، اعتداء شرساً على أيمن شيب الدين (شقيقي)، أحد المحامين الذين شاركوا في الاعتصام. اعتداء قصد من خلاله المعتدون، النيل من الحراك النقابي المتصاعد واجتثاثه. إلا أن الاعتداء على المحامي المذكور فجَّر موقف المحامين، فأعلنوا اعتصاماً مفتوحاً بتاريخ

21/7/2011، مطالِبين النقابة بحماية أعضائها أولاً. ظلّ الاعتصام يومها صامداً حوالى ثماني ساعات متواصلة داخل مبنى فرع النقابة. كان المعتصمون طوال الساعات تلك، محاصَرين من «الشبيحة» الذين حاولوا مراراً اقتحام مبنى النقابة وإحراقها، وكادت الأحداث تتفاقم وتتسع لتشمل المحافظة كافة. بيد أن النظام أيقن خطورة تأجُّج الوضع، فأرسل ممثليه في المحافظة إلى مبنى النقابة من أجل مقايَضة رخيصة: يفضّ المحامون اعتصامهم، مقابل خروجٍ آمِن لهم يضمنه «الأمن». رمى النظام، عبر المسرحية الهزلية تلك، التي تُظهِر الأجهزة الأمنية كـ«حامية» و«حيادية»، إلى تهدئة الوضع في محافظةٍ عمِلَ جاهداً على تحييدها، لكي يثبت صحة اتهامه للثورة الشعبية عليه، بالطائفية. فالسويداء محافظة ذات غالبية درزية، وهذه من الأقليات الدينية التي ينسب النظام إلى نفسه دور حمايتها، ويسوِّق لذلك إعلامياً، في حين يستعملها دروعاً بشرية يحتمي بها عملياً. غير أن ما ذكِر في المقال، قد يساهم في تكذيب مزاعم «طائفية الثورة»، و«حماية الأقليات». خصوصاً أن كل ما رُوي عنه، موثّق بالمستندات والتواريخ، وبالصور والفيديوات، وهي متاحة ويمكن أيّ مهتم الرجوع إليها. ما لم يُذكَر عن الحراك الثائر في المحافظة أكثر بكثير مما ذُكِر هنا طبعاً، إذ هذا المقال خاص فقط بحراك المحامين الأحرار كأول حراك «نقابي» في سوريا الثورة.

***

بعد واقعة حصار النقابة ومحاولة إحراقها، تنبَّه المحامون الأحرار في السويداء إلى ضرورة تنظيم الصفوف، وتعميق الانخراط في الثورة، عبر التظاهرات والاعتصامات، ومن خلال العمل الإغاثي والإعلامي، والمشاركة في الندوات السياسية التي دأبت المعارَضة على إقامتها في المحافظة. كان من تجلّيات تعميق الانخراط في الثورة، أن المحامين الأحرار شكّلوا هيئة «محامو السويداء من أجل الحرية»، لتكون سنداً قانونياً للمعتقلين من المعارضين والثائرين، ومن أهم الأعمال الثورية للهيئة، تشكيل «حاضنة قانونية» من شأنها الدفاع عن المعتقلين. دفاع كان عبارة عن جهد تطوّعي مجّاني، حيث تشكّل فريق كبير من المحامين عالي التنظيم من حيث المتابعة والمرافعة. تقاسم أعضاء الفريق أعباء ملفات المعتقلين أمام القضاء، بغية دفاع قانوني يبدأ منذ اللحظة الأولى لاعتقال أي معارض أو ثائر على خلفية نشاطاته الثورية، السلمية، المدنية. تابع الفريق باهتمام شديد، الدعاوى المرفوعة في حق المناوئين المدنيين السلميين للنظام، ما ولَّد لدى عموم المعارضين والثائرين في محافظة السويداء، حالاً من الطمأنينة عمَّقت الشعور بأن هناك سنداً قانونياً قد يحمي وينقذ ويصون. لكن المفارقة، أن المحامين الأحرار الذين أخذوا على عاتقهم دور الدفاع القانوني عن المعتقلين بسبب أنشطة ثائرة سلمية مدنية، أو بسبب

رأي سياسي، طالهم الاعتقال أيضاً، والتهديد والملاحقة و«التشبيح»، بغية تقويض سعيهم المهم إلى تفعيل دور القانون وفرض سيادته، إذ تفعيل القانون يعني تطويق الغريزة المنفلتة من كل عقال التي يمثلها شبّيحة السلطة، كما يعني الفضح، والكشف، والمساءلة، وكل ما لا تريده سلطة غاصبة خارجة على القانون! من المحامين الذين طالهم الاعتقال: نواف الجرماني، جابر مهنا، مهند بركة، محمد العبدالله، علاء صيموعة، أيمن شيب الدين، مهند شقير. في كل مرة حدث فيها أن اعتُقِل أحد المحامين، كان بقية زملائه يسارعون إلى تنفيذ اعتصام مفتوح، كنوع من الضغط على النظام للإفراج عنه، متمسكين بالقلم سلاحاً، وبالقانون مرجعاً، وبالنقابة منبراً.

***

في الذكرى الأولى للثورة السورية، اعتصم المحامون الأحرار في مقر فرع نقابتهم، وأصدروا بياناً أكدوا فيه الاستمرار في الثورة، والتمسك بقيمها وأهدافها، وندّدوا بالمجزرة التي ارتكبها النظام في «كرم الزيتون» بحمص 12/3/2012. وفي الذكرى الثانية للثورة، اعتصموا كذلك، وأصدروا بياناً أكدوا عبره الاستمرار في الثورة، والعمل الدائم لتحقيق أهدافها. ومنذ البداية خاضوا السلوك القانوني بثبات، عبر توجيه الكتب النقابية إلى فرع نقابتهم، لكي تمارس دورها كحامية لأعضائها أولاً، ضد الخروق والاعتداءات التي يتعرضون إليها كرجال

قانون يُفترّض أنهم يتمتعون بـ«حصانة» نقابية!

***

ليس منهج الرفض والاحتجاج، الذي اعتمده المحامون الأحرار، سلبياً من الوجهة القانونية، ولا يؤدي في مواجهة نظام الاستبداد إلى اللاقانون. إنما هو «ثورة قانونية» من شأنها نفْث الروح في القانون، وعصيان واقع غُيِّبَ عنه القانون، وجُعِلَ منه مجرَّد «أكسسوار»، حبر على ورق لا يُنفَّذ ولا يُطبَّق ولا يُمارَس. فالحراك النقابي كان بمثابة رد اعتبار للقانون الإنساني، المدني، الحضاري، بعد سواد قانون الغابة، الطبيعي، الغريزي، المتوحش، طوال عقود من حكم «الأسدَين».

إن استعمال القوانين في مجالات بعيدة عن أصلها الروحي، كان دائما مخيِّباً للحق والمأمول، مضعضِعاً ميزان العدل، مهيناً للكرامة الإنسانية، مثيراً للقلق والنزق، وكانت النقابة مرحَّلة عن نفسها، عقيمة خادعة، مرتهنة للأجهزة الأمنية، وفاقدة لتماسكها الروحي. لذا، كان أمراً بالغ الأهمية رؤيتها في أصالتها الحقيقية كـ«نقابة». إذ حراك المحامين الأحرار، حاول إعادة الروح إليها، ومهَّد الطريق الذي قد يفضي إلى عدم جواز استعمالها لأغراض غير التي تنشدها وتحدِّدها لنفسها.

بدت النقابة، مع حراك المحامين الأحرار، كأنها انشقّت عن «النظام الكتلة». نظام الاستبداد الذي لا حركة فيه، لا دينامية، لا إيقاع، وهو خارج التاريخ والزمن كأنه العدم، وكأن الحراك النقابي صار فاتحة التاريخ. وإذ يبدأ التاريخ، يبدأ القانون والتشريع والتنظيمات السياسية والمدنية، وتدبّ الحياة في أوصال الدولة والمجتمع والأفراد. إذ الروح الفاعل الذي كان مطموراً في لجّة العماء، حيث الكل ممزوج في الكل ضمن هيولى «النظام الكتلة»، قد انبلجَ لينير ويميِّز ويشكِّل.

امرأة وطفل

لم يمضِ أكثر من خمس دقائق، على بدء أحد الاعتصامات النسائية في مدينة السويداء، يوم 16/6/2012، وقد رُفعَت فيه لافتات تندّد بالمجازر، وتؤكد أن الشعب السوري واحد، وأن الدين لله والوطن للجميع؛ حتى اندلع صوت في أقاصي الشارع المقابل للساحة التي يُنفَّذ فيها الاعتصام. كان الصوت ليافِع، يبدو في الرابعة عشرة من العمر، يصرخ بشكل هستيري: «الله سوريا بشّار وبس»، ويركض بسرعة متوترة في اتجاه المعتصِمات. كانت ملامح وجهه، وهيئته الجسدية عموماً تشي بأنه فاقد التركيز، كأن ذهنه مشوّش ومشطور بين الأوامر المعطاة إليه، وتنفيذ تلك المهمة الصعبة عليه، كطفل بريء لا يزال «حديثاً» في مهنة «التشبيح». وصل أخيراً إلى ساحة الاعتصام، وبدأت المواجهة مع المعتصِمات، وبشكل جنوني عاصف، قال: «أنزِلي اللافتة وِلِي»، وبعدما لقي مقاومة بسيطة من جانب المعتصِمات، انسلّ الخوف إلى عينيه، وتراجع قليلاً، لكنه عاد وانتزع إحدى اللافتات ومزّقها. لم يكن وحده في المهمة هذه، فقد كان إلى جانبه طفل أصغر منه لا يتجاوز التاسعة، يحمل في يده عصا كهربائية، يهدِّد بها المعتصِمات، أما بقية الأطفال، فقد اكتفوا بالوقوف بعيداً من المعتصِمات، يرقبون رفيقهم بخوف، وذهول، وحيرة.

ما كان استخدام الأجهزة الأمنية للأطفال يومذاك، وتجنيدهم في قمع نساء سلميات، ارتجالاً، بل سياسة ممنهجة، مدروسة، ولها دلالات عدة، لعل الدلالة السيكولوجية أهمّها. فتجييش أطفال لقمع نساء، يدلل ربما على رغبة في تدمير العلاقة الجميلة والحميمة التي تربط المرأة بالطفل، علاقة الأمومة والإنسانية والجمال. ناهيك بالرغبة في تحقير المرأة، واعتبارها قاصراً، ناقصة عقل، عبر وضعها في مواجهة طفل دُرِّب ليكون «شبّيحاً» كنوع من الانتقام من الطفل أيضاً، ومحاولة لتشويه بنيته النفسية والعقلية والروحية، من خلال إفساده بترسيخ الخصائص الأمنية المنحطّة أخلاقياً وإنسانياً وغرسها في عقله الغضّ، وقلبه الطازج، ثم الزجّ به في معمعة العنف. تجنيد الأطفال في قمع اعتصام سلميّ ليس إلا جزءاً هامشياً من لوثة الانتقام العميق والكبير والشامل من الأطفال، ربما لأن هؤلاء كانوا فتيل الثورة في البلاد(المقصود أطفال درعا)، وهم الذين طالما كانوا حاضرين في التظاهرات جنباً إلى جنب مع النساء والرجال، ومثلهم تشبّعوا بمفاهيم الحرية.

في أثناء الاعتصام، لم أكن أفكر في غير أننا واقفون نحمل لافتاتنا التي تقول إحداها:»حين تغسلون ثياب أطفالكم..تذكّروا سراويل «أطفال الحولة» المبللة ذعراً قبيل الموت». لم يكن ثمة فسحة للتأمل أو التفكير في غير أننا فقط نقف حاملين لافتاتنا، لكن مشهد ذاك

الطفل الذي مزّق إحدى اللافتات يبكيني بحرقة الآن، وأنا جالسة وحدي في بيتي، أستطيع التفكير والتأمل في الطفولة البائسة لهذا الطفل، وفي القبح الكامن في نفوس مَن شوَّه طفولته. الآن أبكيكَ يا طفلي، وأتمنى لو أضمّك علّك تأخذ جرعة إنسانية وتتخلى عن الكره والحقد قبل أن تكبر.

ثورتنا والعالم

بروميثيوس أودّ أن أكون، فأسرق نيران الآلهة مرتين. مرّة لأضرمها في طغاة الأرض وظلّامها الظالمين، وأخرى لأهديها لمهمّشيها المظلومين المظلِمين فتنيرهم .هكذا كنتُ أدوّي، حين كان يفكّر في نبوءة آينشتاين الآتية:»لا أعلم ما الذي سيحدث في الحرب العالمية الثالثة، ولكن ما أعلمه جيداً أنه في الحرب العالمية الرابعة ستتقاتل الناس بالعصي»، ثم قال لي: يراودني شعور بأن الثورة السورية قد تشعل حرباً عالمية ثالثة. فقلت: ليكن، لا رجوع عن هذه الثورة، وليحترق العالم بنيرانها المبارَكة. لنيران هذه الثورة وظيفتان: الحرق، والإنارة، وإذا كان من شأن الحرق ترميد الماضي، فالإنارة من شأنها الإشراق.

تابع يقول: نعم، ليحترق العالم المتواطئ الذي لا يتوقف عن الحديث عن «طرفين» يمارسان العنف في سوريا، فهل مَن يقتل بسلاح فردي خفيف دفاعاً عن النفس، وعن المدنيين العزل يوازي مَن يهاجم، وبكل أنواع الأسلحة؟!

قلت: ليس من عنف في سوريا، فالعنف قد نصف به نظرة عدوانية مثلاً، أو صفعة على الخد، أو قتلاً برشاش خفيف أو مسدّس كأقصى حد. ولكن أن تُقتحم المدن والبلدات بجيش كامل العدّة والعتاد، وأن تُقصف بالدبابات، وبالمدفعية، وبراجمات الصواريخ،

والبراميل المتفجّرة، والأسلحة الكيميائية..؛ وأن تُقتل النساء والأطفال والشباب والشيوخ، وأن يُعتقل الألوف ويُمارَس عليهم أشدّ أنواع التعذيب تصل أحياناً إلى درجة مفارَقة الحياة، وأن يُختطف ويُفقد الألوف، وأن تُغتصب النساء، وأن يُذبح البشر ذبح النعاج، وأن تُقتَلَع الحناجر وتُبتَر الأعضاء التناسلية والأطراف وتُنزَع الأظافر، وأن تُحرق البيوت وتُنهب الممتلكات، وأن يُهجّر الملايين إلى لبنان، وتركيا والأردن وإلى أصقاع العالم، عدا عن حركة النزوح الهائلة في الداخل السوري، وأن.. وأن، حينئذ يكون من أكبر المغالطات التاريخية، والمنطقية، والأخلاقية، والواقعية وصف ما يجري على الأرض السوريّة بال«عنف»، وألا يُقال: إنها حرب إبادة حقيقية تشنّها سلطة لا شرعية وحلفاء لها ومتواطئين معها، ضد الشعب الثائر.

جلسة

في أرض الدار، حضّرت كل ما يمنح للجلسة وداً وحميمية قبل أن تصل ابنة عمي وزوجة أخيها لزيارتنا. وضعتُ على الطاولة فاكهة و«متة»، وجهّزت المسجّلة لكي نسمع معاً أغنية جميلة لعبد الحليم أعرف أن ابنة عمي تحبها.

وصلتا. تبادلنا الأسئلة الحنونة حول الأوضاع العائلية والصحية والمالية وغيرها.

بعد مضي حوالي ساعة على الجلسة شعرت بتأنيب الضمير لكوني انشغلت عن الثورة، أنا التي قطعت كل صلة بالحياة الطبيعية العادية منذ اندلعت؛ فخطر على بالي أن أسألهما عن رأيهما في ما يحدث في بلدنا، بعد حوالي شهر من اندلاع الثورة، وكنت أعرف حجم مغامرتي إذ أدخل في متاهة هذا السؤال.

ابنة عمي: «ما في شي، شوية عصابات مسلحة، بس سوريا بخير».

زوجة أخيها: «ثورة سنية شيعية، الأدالبة والدرعاوية نوَر وشراشيح».

حاولتُ الهدوء لكن ملامحي فضحتني، فقد كنت أقرأ ما في عيونهما من شراسة ونهم لافتراس أية كلمة إيجابية في حق الثورة. فسألتُ: أنا مع الثورة حتى الرّمق الأخير مني، ترى لو كانت الثورة سنية شيعية،

أو فيها عنف وتسلّح هل كنت سأدافع عنها؟!

وبعدما شعرت بنفسي ضعيفة كون كلامي أخذ معهما منحى التبرير والدفاع والرغبة في الإقناع، فيما هما تأخذان دور المهاجم؛ قررتُ أن أذكّرهما بأن رأيهما هذا ليس نابعاً إلا من مصلحة تربطهما بهذا النظام، إذ أنهما من بيت كل رجل فيه إما ضابط في الاستخبارات، وإما عنصر في الأمن، وإما شرطي، وبهذا أكون قد كشفتُ لهما وربما لي لغز تأييدهما الأعمى، فما كان من ابنة عمي إلا أن بادرت إلى قول: «إلنا الشرف»، فقلت لها نعم لكِ الشرف لو كان الأمن أمناً حقاً، لكن الأمن عندنا يقتل الأبرياء والعزل فأين الشرف ها هنا؟! فسألتني: لو كنتِ في موقعي وأحد أفراد أسرتكِ يعمل في الأمن، ماذا كنت ستقولين؟ ألن تخافي عليهم من القتل وبالتالي ستؤيدين؟ فأتى ردي سريعاً: بأنه لو كان أحد أفراد أسرتي في الأمن لانشقَّ على الفور ولما وضعني في عار تأييد الإجرام و«التشبيح» لأجل حمايته. عند هذه اللحظة وحين رأت أختي ما يعتمرني من قهر وانفعال قالت لي: ارتاحي، سيسقط كل نظام مستبد وديكتاتوري على رغم أنف كل مَن لا يريد ذلك، ومهما طال الزمن، فها هو القذافي «الممانع المقاوم الكذّاب» قد سقط!

حين فقدت الجلسة كل معنى للحميمية والمحبة؛ قررت ابنة عمي وزوجة أخيها المغادرة بملامحها العابسة المتجهمة. أجهشتُ بالبكاء،

ورحت عبر مونولوغ طافح بالأسئلة أسأل: يااااه ألهذا الحد يقدر البعض على التخلّي عن ضمائرهم فيؤيدون الإجرام والقتل والذبح حفاظاً على مصالحهم؟ !يالفظاعة الكره والحقد الذي زرعه نظام البعث على مدار أكثر من أربعين عاماً!. يا لبؤس الإنسان إذ يعادي حتى أقرب الناس إليه دفاعاً عن قاتل!

نقاش

في ذاك المساء، التقيتُ بشخص لم يتوقف طوال الوقت عن الامتعاض من دعوات «المتثوّرين» السوريين- بحسب لغته- لـ« لا حوار مع القتلة»؛ جازماً أن هذه الدعوات تؤسّس لإعادة إنتاج الاستبداد عبر التربية على رفض الحوار؛ فقلت له حالكَ وأنت تتحدث بهذه الطريقة تقارب حال مَن يقول: «لا تقربوا الصلاة» ثم يتجاهل «وأنتم سكارى»، والأمر عينه بالنسبة لـ«لا حوار» إذ لا ينبغي غضّ الطرف عن الشق التالي من الدعوة نفسها، أي لا حوار «مع القتلة»، حينها يتضح المعنى ويختفي اللّبس، ليظهرَ جليّاً أن الشعب السوري الحقيقي الثائر هو مؤسّس عظيم للديمقراطية في مفهومها الأخلاقي والسياسي.

في معسكر طلائع البعث

لم أعرف كيف وصلتُ إلى البيت حينذاك! كانت خطواتي سريعة متعثرة، وقدماي تقذفان كل ما يظهر أمامهما: حصى، علبة عصير فارغة، عيداناً. المهم أنني وصلت أخيراً، وبلهفة أخبرت أمي بأن الأستاذ طلب منا تحضير أنفسنا للذهاب إلى معسكر طلائع البعث. كان علينا الذهاب بعد أيام قليلة من انتهاء الدراسة في الصف الخامس الابتدائي، وأتذكر أني «أقمت الدنيا ولم أقعدها» حين أفصحت أمي عن عدم توفر الأموال لذهابي، بيدَ أن نضالي انتهى بانتصاري بعد أن أعطتني آخر ما تبقى في صدرها من نقود، وقالت لي: « طيب ماما خلص روحي ». ما اعتقدتُه انتصاراً كان هزيمة حقيقية بعد عودتي إلى البيت من المعسكر، خائبة حزينة؛ فقد تصورتُني ذاهبة مع أصدقائي إلى حيث الملهاة الإنسانية الكبرى، لكن ما كان ليس إلا ضجيجاً من «الأمة العربية الواحدة ذات الرسالة الخالدة»، وخياماً إسمنتية مرقّمة، كل سبع خيام تشكل وحدة مفصولة تحت إشراف «رفاق» تولوا مهمة الفصل هذه. كان معسكراً، ارتدينا فيه جميعاً لباساً موحداً من الأصفر والكحلي، وعلى صدورنا رُسم شعار البعث وعلَمه مبدِّلاً فردية كل منا إلى قطيع من طلائع بعث!

لماذا أستعيد هذه الذكرى الآن؟ لأني أريد أن أشكر العسكر، فقد باتوا الآن أكثر انسجاماً مع أنفسهم، وأكثر شفافية مع الشعب

السوري. هم الآن لا يكذبون - إلا في إعلامهم- أما على الأرض فهم في منتهى المصداقية، ما عادوا في حاجة إلى الكذب على الناس بشعارات أو وعود أو.. أو، فهم الآن يدركون جيداً أنهم يجب أن يكونوا صادقين جداً، عبر ضرورة كشفهم عن الوجه الحقيقي للإجرام. الآن يعلنون على الملأ أنّ ما معسكرات الطلائع والمدارس والجامعات منذ أكثر من أربعين عاماً سوى ثكنات عسكرية في قالب تربوي. الآن كسروا ذلك القالب وقرروا إظهار الثكنات بشكل فاضح. الآن يتخذون من معسكرات طلائع البعث والمدارس في المدن والبلدات السورية المختلفة مراكز ينفذون منها عملياتهم العسكرية ضد شعب مسالم أعزل، وعبرها يتم قصف البيوت والناس، كل الناس.

في المتجر

هي مصادفة ربما، أني لم ألتقِ يوماً بتاجر ورجل دين في آنٍ واحد، وكان محترماً. المصادفة عينها قادتني إلى أحد المتاجر في مدينة السويداء. متجر يمتلكه رجلان يرتديان زي طائفة الموحدين الدروز «أجاويد يعني»، ولكن بفصيح العبارة، لم يكن أي منهما بحاملٍ لقيم الجود، والجودة، والإجادة وما شابه. وصلتُ إلى هذا الاستنتاج بعد تجربة معهما حين طلبتُ خلالها نوعاً من الصابون كنتُ قد اشتريتُه من عندهما قبل مدة قصيرة بسعر معيّن، لكنهما في هذه المرة طلبا سعراً أعلى بكثير، وحين اعترضتُ على السعر الجديد مقارِنة إياه مع السعر الأول، قالا لي: «شو بدنا نعمل خربوها، وقيادتنا ما إلهاش دخل، ورح تقظي عالمخربين وترجع البلد مثل ما كانت». المضحك في الأمر، أنه لم يشكّا ولو للحظة أنني قد أكون معارِضة لـ القيادة»، وتكلّما معي بأريحية شديدة على اعتبار أني ابنة المحافظة، وأني بداهة (درزية ولازم كون موالية لأولاد العم العلَويين)، غير أن المفارَقة الغريبة العجيبة بالنسبة إليهما، كانت حين قلت: «القيادة هيي إلي خربتلنا البلد، شو رأيكن نبطّل نفاق؟»، فما كان منهما إلا أن صمتا صمتاً جباناً، وتغيّرت ملامح وجهيهما، وربما دار في رأسيهما سؤال نادم حول لماذا امتدحا القيادة وخسراني كزبونة؟. المهم أني اشتريت الصابون بالسعر الجديد الغالي وخرجت، وما أن خطوت بضع

خطوات حتى اجتاحني شعور بالهزيمة، والسّخط، فعدتُ أدراجي واضعة في ذهني أن أسجّل موقفاً قد يجعلهما يفكّرا ألف مرة قبل أن يؤيدا «قيادة» تشنّ حرباً على شعبها، فأرجعتُ الصابون، ووعدتهما بألا أشتري من عندهما مرة ثانية. وثانية خرجتُ من المتجر الصغير، وفي رأسي يطوف السؤال الآتي: إذا كان هذا حال صغار التجار، فما هو حال كبارهم من الداعمين الشّرسين للنظام، المموِّلين لشبيحته، والدائبين على قمع الثائرين الأحرار؟!

غرام وهيام

في الحافلة، جلسَتْ إلى جانبي امرأة مغرمة بالقائد الرّمز المفدّى، وراحتْ طوال الرحلة تحدّثني عن عشقها لأزرق العينين، وعن امتعاضها من «تخلّف الثورجيين»، تارة تصفهم بالحُثالة، طوراً بالهمج والرّعاع. أما أنا، فرحتُ أرقب الأوساخ تحت الأظافر التي لم يقوَ الطلاء الأحمر الفاقع على إخفائها، مثلما لم يستطع عطرها الواخز تورية رائحة الجسد الواخزة. وحيث إنه لا يحقّ لي ربما الاعتراض على نظافتها الشخصية، وربما على هيامها بقائد الوطن وكرهها للثائرين عليه وعلى نظامه، كنتُ صامتة طوال الوقت، بيدَ أني خرجتُ عن صمتي، ودعوتها إلى الكفّ عن وصف ثوار الحرية والكرامة بالهمج وبالرّعاع والمتخلّفين حين بدأتْ برمي قشور البسكويت والمناديل المستعمَلة من نافذة الحافلة.

بعد الاعتصام

«بعدما ضُرِبتُ في الشارع، وسُحِبتُ من شَعري: اعتقلتُ، وداخل المعتقل التقيتُ بعنصر أمن كان أحد اللذين أوكِلتْ إليهم مهمة إهانتي، فطلب منّي أولاً أن أُخرِجَ «الفايس بوك» فوراً ومن دون كثرة حكي ولا جدال، فقد كان يعتقد أن «الفايس بوك» جهاز كمثل جهاز الموبايل مثلاً.»

كانت هذه القصة المُضحِكة المُبكية، واحدة مما قصّته عليّ (س.خ) وهي إحدى الناشطات اللواتي حطّمن الطوطم في الشارع السوري، وخرجن محتجّات، كاسرات حاجز الخوف، متحدِّيات رعب الأمن، ليعتصمن أمام وزارة الداخلية من أجل المطالبة بالإفراج عن المعتقلين. في ذاك اليوم ضُرِب أستاذ الفلسفة الدكتور طيب تزييني ثم اعتقِلَ. يبدو أن ذلك الرّاغب في لمس «الفايس بوك» إنْ هو سوى عيّنة من عيّنات عناصر الأمن اللذين يمارسون ضد المعارِضين والمحتجّين كل ما يخطر على البال وما لا يخطر.

فرار لكنه انشقاق

عند حوالي الساعة الثانية صباحاً طرِقَ الباب بشدّة، فاستيقظت ابنة خالتي مذعورة، هي التي لم تعتد على طرق الباب في مثل هذا الوقت، وقبل أن تفتح، سَمِعَتْ ابنها يقول: (إمّي هذا أني افتحيلي لا تخافي). لم تكن عودة ابنها ذي العشرين عاماً من خدمته العسكرية هذه المرة كغيرها من المرات، ففي هذه المرة جاءها هارباً، فارّاً، لايريد الرجوع إلى «حمص» حيث كان يخدم، بعدما رأى ما رأى من ويلات وبشاعات وفظاعات، وبعد أن عاش تجربة رعب ولّدت في داخله كل أسباب ترك الخدمة العسكرية، وغضّ الطرف عن كل العواقب المحتمَلة. أمه التي ما انفكّت تسمع عن عسكريين يرجعون إلى ذويهم في الأكفان هنا وهناك في أرجاء محافظة السويداء كافة، والتي ما انفكّت تنام وتستيقظ داعية الرب أن يحمي ابنها، وجدَتْ في هربه حبل نجاة ينتشلها من قلقها الدائم، ووجعها المستمر، فقررت مساندته، فحين أتوا لكي يسألوا عنه في المنزل قالت لهم:(أني بعثت ابني ليخدم بالجيش مش لينقتل، ابني مش منشق بس أني ما عاد بدي إبعثو منشان ما يرجعلي مقتول). تجدر الإشارة إلى أن ابنة خالتي معارِضة صامتة، وهي من المدرِكات جيداً لأسباب عودة ابنها إلى البيت، وقد لجأت إلى المناورة مع مَن سأل عنه لحماية ابنها، ولحمايته فقط، هذا ما همسته في أذني في ليلة ماطرة من ليالي شباط.

إصرار

صديقي اليساري مصرٌّ على أن الثورة السورية ثورة فقراء ومفقَرين. مراراً ذكّرته بردّ الشعب الثائر على مستشارة الرئيس حين أقدمَتْ على رشوة الناس من خلال زيادة رواتب العاملين في الدولة(يا بثينة يا شعبان/الشعب السوري مو جوعان)؛ لكنه ظلّ مصرّاً على أن الثورة ثورة فقراء ومفقرين. وعندما حاولت أن أناقشه بشأن خروج ألوف مؤلَّفة بمشاركة الأثرياء في حي «المزة» في قلب العاصمة دمشق، معارضين متظاهرين، تابع الإصرار على أن الثورة ثورة فقراء ومفقرين.

ينبغي العلم أني محبِّة لصديقي اليساري، وشاكرة له شغفه بالفقراء والمفقَرين، ولكن لا أعلم ما الكيفية التي تمكّنه من رؤية الحياة من منظور الحياة نفسها؟! وكيف له أن يشيح عقله قليلاً عن أيديولوجية لا ترى في الثورة إلا أناساً فقراء ومفقرين؟! فالثورة السورية ليست إلا واحدة من ثورات «ربيع عربي» طرحَتْ فيه الشعوب الحرية كفعل يتفلّت من قبضة كل الأيديولوجيات، لا بل إن ثورة الشعب السوري هي الأهم كثورة حرية وكرامة في المقام الأول(الشعب السوري ما بينذل)، (الموت ولا المذلة). إنه الشعب الذي آثر الانعتاق، وما عاد يرضى بالعبودية والخضوع (ما رح نركع/ما رح نركع).

ناشطة ونازحة

فور انتهائنا من إيصال سلّات غذائية ودوائية وغير ذلك مما يحتاج إليه نازحون، اقترح قاطنو الدار من النازحين، شرْب الشاي في أرض الدار مع فريق الإغاثة، وفي حين جلس الجميع على الكراسي يتبادلون أطراف الحديث، فضّلتُ الجلوس على أريكة إسمنتية (طوطاية) إلى جانب مجموعة من الأطفال تتراوح أعمارهم بين سنتين واثنتي عشرة سنة، ورحتُ أمازحهم تارة، وطوراً أتصفّح كتباً موجودة مع فتاة في الصف السابع، تدرس فيها استعداداً لاختبار بالمدرسة في اليوم التالي. الكتب كانت خاصة بالأدب العربي، وقد قرأتُ مع الفتاة قصيدة للشاعر إيليا أبو ماضي. كانت الفتاة قد حضَّرت جيداً للاختبار، حتى أنها قرأت قصيدة أبو ماضي غيباً من دون أن تقع في أخطاء.

بينما كنتُ منهمكة في تقديم النصح للفتاة حول ضرورة أن تتفوق في الدراسة، بما قد يساهم في تغيير كل فكرة خاطئة قد تكون موجودة في عقول بعض السكان الأصليين للمنطقة، عن النازحين إليها من منطقة ثائرة، لمحَتُ فجأةً في عيني الفتاة لا اكتراثاً لنصائحي. إذ كانت، على ما بدا لي، غير معنية بما قد يقوله الآخرون عنها. اكتشفتُ في ما بعد أن نصائحي، كانت مجرّد إسقاطات ذاتية خاصة بثائرة لا حاضن اجتماعياً لها في منطقة غير ثائرة، في المعنى الحقيقي للثورة، وأن الفتاة كانت أكثر قوة وأقل حساسية حيال ما يمكن أن يُحكى عنها.

مضى حوالى نصف ساعة، قبل أن تنضمّ إلى المجموعة أمّ أحد الأطفال، فأجلَسَت في حضنها طفلها الذي كان إلى جانبي، وجلست هي في مكانه. سألتُها إنْ كانت مرتاحة، فأجابت: «ماشي الحال الله يسلّمك». قلت: «نحنا نتشرّف بكم، لا تفكروا السويدا منطقة أقليات وموالية، نحنا معكم قلباً وقالباً لأنو كلياتنا سوريين وما رح نسمح لطاغية يفرّق بيننا، نحنا معارضين والبعض منّا ثار من أول ما بدأت الثورة، وعملنا كذا وساوينا كذا». استرسلتُ في كلام كنتُ أعلم أنه دلالة على شعور بالنقص، يعانيه شخص ثائر منبوذ ومحارَب في منطقة غير ثائرة في المعنى الحقيقي للثورة، أمام شخص نازح من منطقة ثائرة حقيقة. لكن المرأة كانت تصغي بشكل بارد لا يتّسق وحرارتي في الحديث. يبدو أنها، كما الفتاة، كانت في وارد غير واردي.

في سياق الحديث، أخبرتني المرأة عن استشهاد زوجها وأخيها وأقارب كثيرين، عن بيتها الذي احترق أسوةً ببقية البيوت التي إما هُدِّمت وإما احترقت وإما قُصِفت. دمعت عينايَ، وهممت بأن أواسيها بكلام حنون، إلا أن المرأة أوقفتني، وبالترافق مع قسوة في النظرة وقوة في النبرة، قالت: «عادي، بدنا حريتنا، بكرا إن شاء الله رح نرجع على بلدتنا الحراك بدرعا ورح نعمّر بيوت جديدة».»

قبل أن يغادر فريق العمل الإغاثي، طلب أحد أعضاء الفريق إليّ، أن أسأل مَن كنت جالسة معهم، إنْ كانوا يريدون شيئاً، فأجبت: «مو

هِنّي إلّي بدْهم مِنّا، نحنا إلّي بدّنا منهم». ثم، بالعناق والقُبَل، ودَّعتُ المرأة والأطفال وودّعوني.

كثيرة هي المواقف التي يقف المرء فيها أمام نفسه، حائراً لا يعلم، أهو يساعد؟ أم يحتاج إلى مساعدة؟

في عشق الحياة

عُبادة، امرأة مات زوجها منذ سنين، قبل اندلاع الثورة، وقبل أن تعيش عائلته من بعده مأساة القصف، ثم مأساة النزوح. لدى عُبادة ستة أولاد، أحدهم معوّق جسدياً وعقلياً، كانت تقيّده بواسطة حبل إلى جذع شجرة، حتى لا يهرب، كما نوّهتْ. الشجرة كانت إحدى أشجار جبل في السويداء، لجأت إليه عُبادة وأولادها هرباً من قصف الطاغية وحقده، مع عشرات العائلات الأخرى. ظلّوا في العراء يومين تقريباً، قبل أن يؤمِّن لهم الناشطون في المنطقة بيوتاً يسكنون فيها.

اللافت في شخصية عُبادة، حبّها المرح والفرح، وهي تعتني بجمالها، مع أنها تعيش أوضاعاً مزرية، كما أنها في الستينات من العمر. هي سمراء البشرة، جذابة، نحيفة الجسد، وتهتم في أدق تفاصيل الزينة والتبرّج، من مثل تعليق الأقراط في أذنيها، والاعتناء بالبشرة ووضع مساحيق التجميل وغير ذلك من تفاصيل أنثوية شكلية. كانت تنصح الصبايا الناشطات اللواتي أتيْن لتقديم المساعدة، فلهذه الصبيّة تقول «عليكِ وضع «كْريم» كذا، ولتلك تقول «استعملي مرطّب» كذا، إذ هي خبيرة تجميل، وقبل أن تنزح عن منطقتها في السبينة بريف دمشق، كانت تعمل، حسبما تقول، في محل مختص بالتجميل. أما ضحكتها، فلا تختفي، حتى لَكأنكَ تشعر أن الأشجار و«سَدّ الروم» وكل ما يدخل في تكوين الجبل ذاته، يرتعش سعادةً كلما عَلا صوت

ضحكتها.

في الجهة الأخرى من السَدّ نفسه، جلستْ ريم وفاتن ومنار مع عائلاتهن. وفي غمرة الضجيج الجماعي المهور ببكاء أطفال، ونواح مُسنّات مقهورات، مريضات في القلب والسكّري والضغط، ووجع امرأة حامل في شهرها التاسع، ونقاش هنا، وجدال هناك؛ انفردت الصبايا المذكورات مع الناشطات، واخترن مكاناً بعيداً من الضجيج، فارتسمت مجموعة ملوّنة من صبايا سمراوات وبيضاوات وشقراوات، أمام مياه السدّ الرائقة، ذات يوم صيفي رائق إلا من أصوات قصف الطاغية على درعا، ورحن يتبادلن أحاديث البنات وخصوصياتهن. ريم، فتاة في السادسة عشرة، كانت مشتاقة إلى خطيبها الذي ما عادت تعرف عنه شيئاً. فاتن، التي تكبرها بسنة تقريباً، كانت طوال الوقت تتحدث عن افتقادها صديقاتها ومشاغباتهن معاً في المدرسة في حي الميدان بالعاصمة دمشق، وعن أغنيات نانسي عجرم وعمرو دياب، التي تحبّ الاستماع إليها دوماً. أما منار، فقد كانت شديدة التأمل إلى درجة الصمت والاكتفاء باللهو في سوار يدها الفضيّ صعوداً ونزولاً. وحين آن أوان رحيل الناشطات، طلبن من الفتيات ذِكْر ما يحتجن إليه، وتسجيل حاجياتهن على أوراق لكي يجلبنها لهن في أثناء العودة. تفاوتت الطلبات واختلفت. وحده العطر، كان مطلباً مشتركاً يجمع بين نساء سوريات، جميلات، عاشقات الحياة رغم أنف القهر.

عشّ العصفور

لا يزال ذلك المشهد حياً في الذاكرة. مشهد يعود إلى سنين مضت قبل اندلاع الثورة الشعبية في سوريا عام 2011، في سوق الحميدية بدمشق، حين كانت لزيارته، برفقة الأصدقاء في السنة الأولى من الدراسة الجامعية، متعة خاصة.

اندلع فجأةً صوتٌ قوي في أقاصي السوق، فتوجَّهت الأنظار إلى الجهة التي صدر منها الصوت، فإذ بحشد من المتّشحين بالسواد، يضرب المنخرطون فيه على صدروهم ويلطمون، ينوحون ويبكون، وبعضهم مدمًّى. بدأ المارة في وسط السوق، يتباعدون بسرعة يميناً وشمالاً، بغية إفساح المجال لمرور الحشد. ولمّا كان شيءٌ مما يخصّ الأديان أو الطوائف والمذاهب، غير داخل في الوعي بوضوح آنذاك، وما من خبرة ولا معرفة حقيقيّتَين بعادات الآخر وتقاليده وعقائده وطقوسه؛ سألنا رجلاً مسنّاً كان واقفاً إلى جانبنا: «مين هدول الناس وشو عبيعملو؟» فأجاب: «هدول إخوتنا الشيعة الإيرانيون».

في تلك الفترة، كانت هيلين إحدى الصديقات الكُرديات المقرَّبات. كان الخجل أحياناً من سيطرة العربية على تواصلنا اللغوي، دافعاً إلى محاولة تعلّم بعض مفردات لغتها. قالت مرةً، بينما كانت تعلّمني، إن اسمها في اللغة الكُردية معناه «عشّ العصفور». كانت تكتب لي

المفردات الكُردية، بأحرف عربية، إذ لم تتعلّم الكتابة بلغتها الأمّ، المحظورة في «بلاد التعريب».

كان مهيمناً على شخصية هيلين وسلوكها، الإحساس بأنها من أقلية قومية غير محمية ومسلوبة الحقوق في بلدها. كان ذلك يظهر بوضوح عندما يحدث أحياناً أن تسرد بعض تفاصيل قمع الأجهزة الأمنية لها ولعائلتها وللأهالي في مدينتها القامشلي، في الحادي والعشرين من آذار من كل عام، أي في عيد النوروز. إذ كان الأمن، كما كانت تروي، يمنعهم من إشعال النار، وغير ذلك من طقوس خاصة بتقاليد الاحتفال بالعيد نفسه، وأحياناً كان يطلق عليهم النار.

آنذاك، كنّا نحسّ أكثر مما نفهم، أن ثمة ما يهين الكرامة، متغلغلاً في كل شيء. ظلَّ ذلك على ما يبدو، يشحن الوعي الفردي والجماعي، إلى أن تفجَّرت الثورة، وصار يُفهَم لماذا كان يُسمَح للغريب بأداء الدور الذي يريد على مسرح البلد، ويُستبعَد ابن البلد كغريب، وتُلقى عليه تعاويذ السيادة الوطنية والاستقلال، وخرافات البطولات القومية. ولماذا كان الأكراد السوريون مثلاً، محرومين من أبسط الحقوق، كتعلّم اللغة الأمّ، أو التكلّم بها في الفضاء العام، أو حتى تسمية حديثي الولادة بأسماء كردية. ولماذا كان الأمن «يشحط» عاشقَين سوريين يجلسان تحت شجرة في حديقة عامة، ويُبتزّان باتهامات بشعة، بينما يُرخَّص للبيوت اللا أخلاقية، وتُفتح الأبواب على

مصاريعها للخليجيين وأمرائهم في «مواسم» الصيف.

يفهم مَن ثار من السوريين بوضوح الآن، لماذا كانوا لا سوريين إلى هذا الحد، ولماذا يصول الإيرانيون وأذرعتهم من أمثال «حزب الله» وغيره، ويجولون في سوريا قتلاً وتدميراً، من دون حسيب أو رقيب.

صلخد

هي بلدة في محافظة السويداء بجنوب سوريا، وإلى هذه البلدة (بلدتي)، عاد العديد من المجنَّدين بالأكفان، شأنها في ذلك شأن معظم قرى المحافظة وبلداتها. مجنَّدون أعمارهم بين 18 و25 سنة، كانوا يؤدّون الخدمة الإلزامية في جيش النظام الأسدي المسمَّى «الجيش العربي السوري».

غالباً ما تسبب ذلك في إثارة التساؤلات همساً بين بعض الأهالي حول الأسباب التي تحول دون العودة نفسها لـ«ضباط» من الجيش نفسه، ودفْعِ بعضهم الآخر إلى تطوير استراتيجيا قد تضع حداً لاعتبار أبنائهم طعوماً ودروعاً. أمّ هشام مثلاً، عندما جاءها أحد عناصر الأمن سائلاً عن ابنها الذي أتى في إجازة ولم يعد إلى القطعة العسكرية التي يخدم فيها، قالت له: «ما رح إسمح لإبني يروح يموت في الجيش، إبعث إبنك إنت»، وبعدما اقترح العنصر أن يدخل بيتها، طالباً منها أن تحضّر القهوة بغية الجلوس للتفاهم، صاحت في وجهه: «ما عندي قهوة، ولهون ما عاد تجي»، حسبما شاع في البلدة. أما المزارع، أبو نضال، فقد طلب من ابنه التواري في إحدى غرف البيت، وقال لعنصر الأمن عندما جاء طالباً ابنه لما يُعرف بالاحتياط: «إبني في لبنان، وما منعرف أي شي عنّو». في ما عدا وقفة احتجاجية نفّذها بعضٌ من شباب البلدة بعد أيام من تفجّر الثورة في سوريا وبدء سيل

الدماء في الطرق، لم تشهد شوارع صلخد تظاهرات أو احتجاجات ضد السلطة. غير أن عزوف بعض أبناء البلدة عن القتال إلى جانب النظام، كان بمثابة معارضة أو عصيان من طراز مختلف.

تشتهر البلدة بقلعة أثرية جميلة وآسرة. الواقف في أعلى نقطة فيها، يمكنه أن يمتّع ناظريه في الاتجاهات كافة من دون أن يعوق رؤيته شيء، كونها تعلو ولا يُعلى عليها. للوهلة الأولى، يخيَّل إلى المرء أن أصابعه تكاد تلامس السماء، إلا أن وجود نقطة عسكرية في قمة القلعة يتمركز فيها جنود النظام، كافٍ ليجعله يكفّ عن الحلم، وليجد نفسه منغمساً في صميم الواقع البائس. إذ بعض الناس غالباً ما يُنهون الحديث المتذمِّر عن الارتفاع الجنوني في الأسعار وغلاء المعيشة الفاحش، متهامسين: «إذا تظاهرنا بتتمركز دبابات النظام بالقلعة وبيقصفونا منها». بات الناس ذوي مهارات حدسية واستدلالية عالية، يستنتجون ما قد يحصل لهم إنْ احتجّوا، من أصوات القصف المرعبة على الجارة درعا، التي ما انفكّت تتناهى إلى الأسماع، تهزّ من شدّتها، أبواب البيوت ونوافذها.

هناك أشياء كثيرة تغيّرت، يمكن وضعها في خانة المضحك المبكي. منها: تضاؤل حجم قطعة البسكويت مثلاً، وازدياد السوء في مذاقها، كلما ارتفع سعرها. أو انخفاض جودة مواد التنظيف إلى درجة التوسيخ، كلما ارتفعت أسعار هذه المواد أيضاً. ينطبق هذا على كل

السلع التي باتت رديئة ومغشوشة بشكل غير معقول. يأتي ذلك كله وغيره ضمن سلسلة إجراءات مدروسة سيكولوجياً، تبعث السلطة الأسدية وعملاؤها من خلالها برسائل رمزية مفادها: أرأيتم كم كانت الحياة قبل الثورة «أطيب» و«أنظف»؟ يسخر بعض أبناء البلدة المعارضون:» طعم كل شي صار مقرف ومواد التنظيف صارت توسِّخ، هاي هيي الإصلاحات؟»، يردّ البعض الآخر من الموالين: «لأ هاي هيي الحرية إلّي بَدّن ياها».

« انشالله ما يصير مجاعة، منشان ما تاكل الناس بعضها»، تقول إحداهنّ بنزق لطفلها ذي العامين في أثناء التهامه قطعة خبز بشراهة. بات هذا الطراز من الخطاب اعتيادياً، يمهر يوميات الناس وأحاديثهم. وبات الطعام يأخذ أهمية مبالغاً فيها، بالنسبة إلى أشكال النشاط الأخرى لدى الناس، نتيجة تعمُّق مشاعر قلق الخواء والجوع.

الانصراف إلى التقدير المفرط للطعام، وتخزينه، تحوّل إلى نوع من التعبير عن الذات نظراً للإحباط الوجودي العام وتفشّي نظام القهر والتسلط الذي يكبح الحريات ويخنق التعبير اللفظي والحركي والسلوكي. خنْق وكبْح، يتجلّيان بوضوح في التكتيك السيكولوجي الذي ما انفكّ النظام يلجأ إليه في عملية قطع التيار الكهربائي والإنترنت والاتصالات عموماً. تكتيك ماكر من شأنه الجذب والنبذ، المدّ والجزر، الشدّ والتراخي، الاتصال والانفصال، انتظام في موعد

الانقطاع ومدته، لا يكاد المرء يعتاده لساعات أو أيام قليلة، حتى يعقبه عدم انتظام تختلط فيه أوراق الزمن، ولا يُعرف معه متى تنقطع الاتصالات والكهرباء ومتى تعود. هكذا، يبقى المرء في حال من القلق الدائم وعدم الاستقرار، وفي مزاج عام كئيب، ووضعية يمهرها الإنهاك واللهاث، التوتر والضيق والتشنج. يستمرّ بذلك صمت مَن يُسمَّون «الفئة الصامتة»، وتستمر الوجوه متسربلة بجهامة واكفهرار يبعثان الوجوم في النفوس، ويتضرع الجميع إلى الله، منتظرين الفرج القريب الذي لا يقترب.

عن كذب الزغاريد وصدق البكاء

كانت أمّ فادي في الحانوت تشتري أغراضاً برفقة زوجها، عندما التقيتُها مصادفةً. كانت تكلّم زوجها بنزق، وهو يبادلها النزق بنزق أشد. ما إن تباطأ الرجل قليلاً في تعبئة الخضر في الكيس، حتى نفد صبرها، وقالت غاضبة: «بسرعة يا زَلَمة، خلّصنا». وضعتُ يدي على كتفها الذي انسدل عليه منديل يقارع في بياضه سواد ثوبها الحالك، وقلت: «طَوْلي بالك». لم أكد أنهي الجملة، حتى فرّ الدمع المحتبس من عينيها. سألتها عن السبب، فأجابت: «إبني إجا مبارح شهيد». فادي، كان يخدم في الجيش بحمص، كما قال أبو فادي الذي حفرت السنون في وجهه أخاديد عميقة تشي بالتعب والشقاء، عندما عاد حاملاً كيس الخضر. قلت: «يا عم ما عاد تخلّو أولادكم يروحو على الجيش». قال: «إبني كان بالقطعة العسكرية، وصارلو فترة طويلة ما أعطوه إجازة وما سمحولو يجي». قلت: «ما كان أشرف لإبنك لو مات على جبهة الجولان المحتل؟»، قال: «وكمان شرف لإلو يموت داخل سوريا». قلت: «يموت داخل سوريا؟ منشان مين يا عم؟». استشعر الرجل ما قصدتُه، فطلب أن أخفض صوتي، ثم همس في أذني بعدما أطرقَ في الفكر: «في جواسيس كثير!».

الحال التي كانت عليها أمّ فادي في الحانوت، كانت طبيعية إنسانية وصادقة، اختلفت تماماً عن حالها في اليوم السابق. يوم عاد ابنها

إلى البلدة في تابوت محكم الغلق، كما روَتْ، ملفوفاً بعلم «الدولة»، ترافق موكب جنازته أعيرةٌ نارية تشقّ سكون البلدة المعتاد المألوف قبل أن تعود إليهما مجدداً بعد انتهاء كل مهرجان من هذا الطراز يحتفي بالموت الذليل البشع.

في جوّ من الهستيريا الجماعية، ترعاها السلطة وعملاؤها في البلدة، زغردت أمّ فادي، شأنها في ذلك شأن الكثيرات، لابنها، شهيد الوطن، المجنَّد الذي بات «ملازم شرف» بعد موته مباشرة. «ملازم شرف»، ذلك اللقب هو كل ما أعطته السلطة الأسدية لأمّ فادي ك»رشوة»، تستحق في قبالتها أن تزغرد إرضاءً للسلطة ولمجتمع يخشى، في غالبيته، تكذيب السلطة. في هذا الجو الهستيري، وحدهم الأطفال يحدسون أن ثمة شيئاً غير سليم يحدث، لا ينسجم مع حدث مهيب وجلل كالموت. الموت الذي لا ينبغي أن يفرح الناس لحدوثه. يستولي الذعر على الأطفال، يتعلّقون بأذيال أمهاتهم، أو يقبعون في الزوايا يراقبون حركات الرجال وهم يطلقون الرصاص الحيّ في الهواء ابتهاجاً بالموت، بفضول وتوجّس واستغراب! أما ذوو الصمت، فيخرجون من البيوت إلى «الأَجْر»، واجمين، ينظرون إلى كل شيء نظرة مَن لا يعنيه من ذلك كله شيء.

أمّ فادي التي كانت في الأمس تزغرد، لم تكن نفسها الموجودة اليوم في الحانوت. فقد انتهت المسرحية الهزلية، ودخلت في حقيقة أن ابنها

مات، وأن رتبة «ملازم شرف» لن تمكّنها ثانيةً من معانقته أو تقبيله أو شمّ رائحة جسده. بدا وجهها أكثر بهاء في حزنها، فهي الآن إنسانة طبيعية، مثخنة الجراح، لا يفرحها موت ابنها، يعتصر الكمد قلبها، تبكي بكاء مرّاً. هي الآن في زمن خارج زمن السلطة الذي اضطرت فيه إلى الزغردة المخادعة بينما كانت تساورها الرغبة العارمة في البكاء. الزغردة كانت موقفاً خارجياً، ترجمت استهانة السلطة المطلقة بالمشاعر الإنسانية. أما البكاء، فهو ذاك الموقف الداخلي الأصيل، تنثال معه الأفكار والخواطر والآلام بشكل حرّ، في غير حذر.

عن حذف الواو وكسر الباء

حوّل أحد رجال بلدتي صلخد، مكان التبريد الذي يخزّن فيه التفاح في العادة، بعد جنيه من الكروم، إلى مستودع يضع فيه الناشطون في الثورة مواد غذائية وألبسة وأغطية وغير ذلك مما يأتي من تبرّعات ومساعدات من أجل إغاثة مَن نزحوا من المناطق السورية المختلفة إلى البلدة والقرى المحيطة بها. أخبرتني مرّة، زوجة صاحب المستودع، بعدما افترقت شفتاها عن ابتسامة ساخرة، عمّا كتبه شبّيحة البلدة في أحد الأيام، على جدران بعض البيوت وواجهات المحال العائدة إلى بعض المعارضين. كانت الكتابة بين عبارات شتم وذمّ للمعارضين من قبيل: «إرحل يا عرعور»، وعبارات تأييد للسلطة مثل: «الله سوريا بشار وبَس». أحد الذين كُتب على واجهة محلّه عبارة التأييد المذكورة، تم تهديده وتحذيره من مغبّة مسح العبارة. استجاب صاحب المحل مبقياً العبارة، غير أنه طمس حرف الواو قبل الكلمة الأخيرة في الجملة بالطلاء، ثم وضع كسرة تحت حرف الباء للكلمة الأخيرة ذاتها، فصارت العبارة: «الله سوريا بشار بِس». في قاموس البلدة، تعني كلمة «بِس» الهرّ.

تحت جنح الليل، كان «الرجل البخّاخ» يكتب أحياناً على بعض الجدران ما لا يروق للسلطة مشاهدته من كلمات الحرية، ويشوّه بعض صور «القائد الخالد» في البلدة، بينما يعمد رجال السلطة

في اليوم التالي، إلى طمس كلمات الحرية بالطلاء، ثم كتابة شعارات مثل: «الأسد للأبد»، «الأسد أو لا أحد». في حين يعلم معظم الأهالي ما حصل خلف الطلاء، مهما حاولت السلطة الإمعان في الترقيع. مثلما يستشفّ بعضهم الآخر ضعف السلطة وصغر عقلها، واستخفافها في عقولهم، من خلال شيوع كلمة «الجزيرة» المكتوبة باللون الأصفر على كل الحاويات في الشوارع، في إشارة إلى تلك القناة «المغرِضة»!.

بين وعد بالسلمية وتوعّد بالقتل

بالترافق وابتسامة خبيثة سألَتْ: هل المعارضون «رِجالُكِ» أيضاً؟ لم تعرف الصبيّة الناشطة آنذاك بماذا يمكنها أن تجيب عن سؤال المرأة الخمسينية، فقد كانت تتصبّب عرقاً، عند منتصف الظهيرة بينما كانت الشمس في كبد السماء، وتنوء بحملها الثقيل. في يدها اليمنى، أدوية وحليب أطفال وخبز، وفي اليسرى، ثياب وأحذية، اشترتها بقصد تقديمها لأشخاص نزحوا إلى البلدة. سألت المرأة سؤالها السابق، عندما التقت الصبية مصادفةً، في أثناء عودتها من السوق، قاصدةً البيت الذي يقطن فيه النازحون الجدد، وبفضول «الحشريّين»، زادت المرأة على السؤال، أسئلة أخرى: من أين اشترت الصبيّة كل تلك الأغراض، لمَن ولماذا؟!

كان السؤال الأول الذي انطوى على تشكيك في أخلاق الصبيّة بمثابة إجابة أيضاً، كونه جاء رداً على كلام حميميّ تحدثت من خلاله الصبيّة عن النازحين، ناسبةً إليهم صفات الأهل والأخوة والأخوات والأبناء والبنات، ما دفع المرأة إلى أن تتكلّم بغيظ، شأن مَن عيل صبره من «عصابات مسلحة»، وأن تلعن الساعة التي نزح فيها «غرباء» إلى منطقة آمنة، «مؤدّبة»، «باطنيّة جوّانيّة، يمشي الناس فيها الحيط الحيط ويقولون يا رب السَّتْر»، ولم تشارك في التمرّد على سيّد البلاد «حامي الأقليات»! عند مفترق طرق، ودّعت المرأة الخمسينية الصبيّة

متوعّدة – لفظياً فقط - بقتل كل «مَن يستأهل القتل»، بينما وَعْد الصبيّة كان، «السلميّة» دوماً.

أبو خالد

منذ بدايات الأحداث، درجت العادة في البلدة، على ألا تشارك غالبية المعارضين في مجالس العزاء الخاصة بموتى النظام، والعكس صحيح. كلّ طرف يعتبر ميته شهيداً، وميت الآخر قتيلاً، وبينما يُشيَّع موتى النظام الذين لا تُعرَف أحياناً ظروف مقتلهم؛ يُمنَع المعارضون من تشييع شهدائهم الذين تُعرَف تماماً ظروف مقتلهم، كأن يكون أحدهم قد توفى تحت التعذيب مثلاً، في أقبية الاستخبارات، ويُواجَهون بعنف شديد. بيد أن ثمة خروقاً لما يبدو كأنه اتفاق غير معلَن صراحةً، كانت تحصل دوماً. أمّ تيسير المعارِضة مثلاً، ذهبت إلى منزل أبي خالد الموالي، لكي تعزّيه بابنه، وآثرت مشاركته وجدانياً والتعاطف معه. ابن أبي خالد، مات قتلاً في حي ركن الدين بدمشق، قبل أن يعود إلى البلدة، مسقطه، جثة هامدة ليُدفَن فيها ك«شهيد».

رُويَ أنه قُتل بسبب أعمال تشبيحية مارسها ضد الثائرين السلميين بدمشق منذ اندلاع الثورة، بعدما انضمّ إلى ما يُسمّى «اللجان الشعبية»، التشبيحية الموالية للنظام. كان أبو خالد، ككل الموالين للسلطة، شاعراً بقوة يستمدها من السلطة في قبالة معارضين سلميين، يبدون ضعفاء غير محميين، مُنِعوا من التعبير عن معارضتهم عبر الاعتصامات أو التظاهرات وما شابه، وقُمعوا.

لكن أبا خالد، بعد مقتل ابنه، بات مستكيناً، غادره الاستكبار والعنجهية اللذان طالما لازما الموالين للسلطة كونهم واثقين من استحالة كسر شوكتهم. قال لأمّ تيسير: «خالد ما كان شبّيح مثل ما عبقولو». يبدو أنه حتى الموالي، يعرف في دخيلة نفسه، أن التشبيح فعل مهين ومشين، ينبغي إنكاره، وتبرئة الذات منه، ويبدو أيضاً أن الموالي يدرك عند لحظة فارقة، أن ميته لم يمت من أجل قضية تستحق، وأنه بعد فترة ستبدأ الحشائش بالنموّ فوق قبره، وهذا كل شيء!

حاجز «وطنيّ» لكنه شغلٌ طائفي مأجور

عند المدخل الأساسي للبلدة يطالعك علم الدولة الأسدية الذي يحتوي على صورة الأسد. تطالعك أيضاً عبارة «شبيحة للأبد»، وعبارة أخرى مكتوبة على قطعة اسمنت متوسطة الحجم موجودة على ناصية الشارع، كان مرسوماً عليها صورة «القائد الخالد» وابناه ماهر وبشار على يمينه ويساره طوال عقود خلت. يبدو أن الصورة تعرّضت للتشويه على يد أحد أحرار البلدة، فتمّ طمسها نهائياً بطلاء بُنيّ اللون. منذ نحو ثمانية أشهر تقريباً كُتب على المساحة الموشاة بالطلاء عبارة: «جيش الدفاع الوطني. نُصِب إلى جانبها حاجز، يرتدي عناصره لباس الجيش النظامي التقليدي، إلا أنهم ليسوا بجيش نظامي. إنهم من أبناء البلدة المدنيين العاديين، غير متعلمين، وغير عاملين، سلّحتهم السلطة وعملاؤها، ليقفوا على الحاجز، ويدعموا سياسة السلطة وغاياتها ومصالحها. يتقاضون في مقابل ذلك، أجراً يُعتبر مغرياً. ما يعني أن التشبيح صار «مؤسسة رسمية».

على الرغم من عنونة الحاجز بتسمية وطنية: «جيش الدفاع الوطني»، إلا أن فحوى التسمية مناقض تماماً لشكلها، إذ هناك مَن يشتغل بدهاء على مسألة الطائفية والمذهبية. كل تفصيل في الحاجز يوحي بأنه، أسوة ببقية الحواجز، نُصب بغية عزل المناطق في داخل المحافظة بعضها عن بعض، وعزل المحافظة عن شقيقاتها

المحافظات السورية الأخرى، باعتبارها محافظة ذات أغلبية درزية مستهدَفة من «أصوليين وتكفيريين، وعملاء ومتآمرين». كما توحي ملامح عناصر الحاجز وهيئتهم الجسدية عموماً أنهم صائرون لا محالة إلى الفظاظة والإجرام في أي لحظة!

يدرك معظم أهالي البلدة، أن أولئك الذين سلّحتهم السلطة لا يقفون على الحاجز بغية حمايتهم أو حماية البلدة من «مسلحين غرباء»، إنما هم من العاطلين عن العمل، وما عليهم إلا الجلوس المريح في خيمة موجودة بالقرب من الحاجز، وتقاضي «رواتب»، في مقابل شغل يعمد أصحابه إلى إيقاف كل سيارة داخلة إلى البلدة أو خارجة منها وتفتيش البطاقات الشخصية، وإشاعة الخوف في النفوس. لا ينال أولئك، في الغالب، احترام الناس وتقديرهم، بيد أن الخوف منهم، يدفع الناس إلى الصمت، والقبول بهم كأوصياء مدجَّجين بالرشاشات، يطلبون البطاقات الشخصية دونما خجل. هم يسمّون أنفسهم «حماة الديار»، لكنهم لا يؤدّون «خدمة» كتلك التي يؤديها ذاك المجنّد البسيط «المعثَّر» الذي طالما أنهكه الجوع في «الخدمة الإلزامية» بالجيش النظامي. إنما أولئك في حال جاهزية تامة للتمرد على النظام، أو على «معلّميهم» في كل لحظة، إذا لم يعطوهم أجورهم مثلاً، أو إذا تأخروا عن صرفها.

ذاك الواقف عند الحاجز، قد يكون نموذجاً لـ«الإنسان المقهور»

الذي أتيحت له فرصة تزوّد بعض أسباب القوة، وبات يشعر أن له الحق في التعويض عما أصابه طوال عقود مضت، من حيف وتهميش وتبخيس. هو الآن يحقق ذاته من خلال ما أوكل إليه من مهمة «قانونية» و«رسمية». يتشفّى، من خلال استباحة القانون الحقيقي الذي يفترض أن يكون الحاكم والرادع، وربما ينتقم ممَن يمثلون الحظوة في نظره ويتمتعون بمكانة محترمة، يقدّرها المجتمع.

أين البئرودلوها؟!

بأُمّ العين الرؤوم الحزينة، شاهدتُ كيف «دُحرِجت» براءة الأطفال إلى قاع اللعب الدنيء. كان النهار قد انتصف، وكنتُ في حافلة. على الطريق، بين بلدتي صلخد ومدينة السويداء بجنوب سوريا، هناك قريتان لا بدّ من المرور منهما إنْ ذهاباً أو إياباً، اسم إحداهما الرَّحى، والأخرى الكَفر. هذه الأخيرة كانت تزيّن ساحتَها الرئيسية تحفةٌ فنيّة، متجلّية في بئر ودلو. قوام البئر «الفنيّة» هذه، حجارةٌ «صَرّ» صغيرة، ملتقَطة من البيئة الجبليّة المحلّية نفسها، مخرمَشة خشنة، يطغى عليها اللون البنّيّ الموشَّح بالأصفر الباهت والقرميديّ. تبدو البئر لـ«الرائي» كأنها مشغولة بالحنين الغامض، بالروح الهائمة، وبالرغبة الشغوفة في استرجاع تفاصيل ريفية معيّنة لِما فيها من حنوّ وشاعريّة.

إلى عمودٍ انتصبَ في وسط الساحة، تسلّق طفلان يبدوان في الثامنة من عمرهما، وحول دائرة البئر المستسلمة لمحض سماء، المفضية إلى قعرٍ مجهول نزولاً، وإلى ساحةٍ معلومة طلوعاً، تحلّقَ نحو خمسة أطفال، وإلى جانب البئر تجمهر نحو ثمانية آخرين كانوا يدبكون على إيقاع أغنية «وطنيّة»، طائفيّة حربوقة تطوف عادة في الكراجات والشوارع المزدحمة بالبسطات ومحال الأدوات المنزلية البلاستيكية والمنظفات ومساحيق التجميل الرديئة النوعية. كلّه، على أي حال، صناعة «وطنية» وما من غريب إلا «الشيطان». خلَت الساحة-

الملعب تقريباً، من الكبار في السنّ، ومن الكِبَر مطلقاً. قبالة الأطفال كان أحدهم يخطب بواسطة مايكرفون. بصوتٍ غليظ، راح يدعو الناس إلى «الانتخابات» قائلاً بالحرف الواحد: «بادرْ إلى الانتخاب. «صوتكَ هو طلقة في وجه كلّ مَن تآمرَ على هذا الوطن». كنتُ أرقب المشهد «الدراميّ - التراجيديّ» هذا من شبّاك الحافلة حينما توقّفتْ في الساحة، بضع دقائق، قبل أن تعاود المسير، إلى وجهتها المحدَّدة المحدودة. في المقعد الأول، جلس مسلّحان بزيّ الجيش، من شأنهما بثّ الرعب في نفوس الركّاب، وحراسة أجواء الإرهاب، بينما كان الجميع «خرساناً نعساناً» لا حول له ولا قوة.

قبل المرور بالمشهد الموصوف في عُجالة هنا، بنحو ساعة، كنتُ قد مررتُ بمشهد سيارات تجوب شوارع السويداء، ملأى بمسلّحين، يطلقون الرصاص الحيّ- الميت، في الهواء التوّاق إلى الانعتاق. كان مجرّد النظر إليهم مخيفاً حقاً، لكن ليس إلى درجة تراجُع الحرية عن نفسها في نفوس الأحرار. يجري الترهيب في الأيام «العادية»، فكيف لا يُفاقَم في يوم 3 حزيران 2014؟ ! أعني في يوم «الانتخابات الشرعية، الديموقراطية، الحرة النزيهة الشفافة في الوطن- المقبرة». «وطنٌ» إنسانُه محطَّم من قبلُ ومن بعدُ، تُراقُ فيه دماء أهله، يومياً منذ أعوام (وينزف منذ عقود)، تتناثر أشلاؤهم، يُشرَّدون يهجَّرون، يقضون في المعتقلات تحت التعذيب، تُهدّم بيوتهم ومدارسهم

ومستشفياتهم، تُدمَّر مدنهم وقراهم ومزارعهم ومصانعهم ومتاجرهم، وتُحرَق حضارتهُم وتُباد، تُسرَق وتُنهَب وتُسلَب وتُغتَصَب على مرأى من العالم أجمع، «الحر» والعبد؛ ولا شيء حقيقيّاً صادقاً. لا أحد! في ما عدا كل أحد حقيقيّ صادق ليس في إمكانه، فعلياً وواقعياً، وقْف المذبحة، ولجْم المأساة.

* * *

قبل يوم «الانتخابات» هذا، بثلاثة أيام ربما أو بيومين، كانت ثمة سيارة بمكبِّرات صوت، تجوب الشوارع في بلدتي إياها، وثمة صوت زاعق ذكوريّ يعزم على الناس باستخفاف شديد في العقول والنفوس، من أجل المشاركة في «الاستحقاق الرئاسيّ». بحرقةٍ ابتسمتُ آنذاك، عندما تناهى إلى سمعي الاصطلاح الأخير، بينما كنتُ صباحاً، أَسقي ورودي الليلكية والبيضاء والزهرية في حديقة بيتي المسحور من كرومٍ وعصافير. إنها المرّة الأولى منذ عقود طويلة مضت، تغيب عن مسامع «المواطنين» السوريين في «مناسبة» كهذه، اصطلاحاتٌ من مثل «الاستفتاء». «تجديد البيعة».

* * *

لتنتهِ الثورة إذاً! ما دامت الاصطلاحات السياسية قد تغيّرت، و«الإصلاحات» صارت واقعاً، فها هو «الرئيس». «الدكتور».

«المتحضِّر». المتعلّم «ببلاد برّا»- بس مش خاين ولا عميل ولا متآمر. «وطني» بامتياز!- «المصلِح». «الفيلسوف المجدِّد»، ها هو قد قوّض الاصطلاحات القديمة الرثّة، واستبدلها بأخرى «حديثة»، لكن أبديّة على رغم أنوف «منافسيه» الذين طالما «رشَّحوا أنفسهم» إلى منصب رئاسة «الجمهورية» أيضاً. ها هو نظام «الرئيس» يمعن من «جديد»، في تحويل الحداثة بوصفها جديداً مستمراً أو جِدّة دائمة ومتجدِّدة، أو تجاوزاً مستمرّاً للذات؛ إلى»أبديةٍ» مغلقة، على غرار الغلق التام والنهائيّ الكلّيّ المطلق في: «علّم آدمَ الأسماءَ كلَّها». لتنتهِ الثورة إذاً! فأن «يفوز» «الرئيس المعلَّب» «متنازِلاً» عن نسبة 99,99 في المئة، مكتفياً بنسبةٍ «عفويةٍ» هي 88,7 في المئة في هذه المرّة من عام2014؛ يعني أنّ «المتآمرين» على البلد، قد أُوقِفوا عند حدّهم، ب»طلقات» الأصوات «الحرة» في وجوههم (أُف. إنه لَأمر مملّ، حين لا يكون هناك مجال للاسترسال في الكلام، من دون التوقف «كِلّ شوَيْ» عند مفردات وتعبيرات لا يجوز ذِكرها من دون وضعها بين مزدوجَين).

***

وكانَ، أنّ «الفوزَ الكاسحَ» في «الانتخابات» والمخابرات، ل»الرئيس المعلَّب»، لم يدفع الناس «العاديين» في محافظة السويداء، إلى الإدلاء باهتمامٍ بالغ مهمّ، إذ الغالبية هناك هي تلك المستعصمة بجملةٍ «أقلّوية» ببغائيّة: «الله يهدّي البال»، و»البال طاير وما بدّو

يهدّي، مش لأنو حرّ. لأنو مُصرّ على إنّو: «حايدي عن ظهري بسيطة». الأغلب «عايف حالو وما إلو خِلق لا للحزن الحقيقي ولا للفرح الحقيقي». بلادة مطلقة يعني، تشوب الذهنيّة في هذه المحافظة العصيّة على التغيير. كل تغيير: سياسيّ، دينيّ، سوسيو/ ثقافيّ، فكريّ. لكن- والحقّ يُقال- كانت هناك مظاهر «احتفالية»، على مستوى «الشبّيحة»: رجال دين «عقلاء». بعثيون «أمناء». أعتى من هؤلاء، أولئك من المنحازين انحيازاً من طراز جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية، إلى نظامٍ يقتل «شعبه»(مهلاً. شعبه! السوريون ليسوا شعباً لـ«أحد»). أحد المظاهر «الاحتفالية»، كان مرور بضع سيارات ليلاً، تعلو منها أصواتٌ «مُجاكِرة» مثابِرة على التأكيد القطعيّ الوثوقيّ بأن الأسد للأبد أو يُحرَق البلد. توقّفت السيارات. زمَّرتْ. لم يتفاعل أحد من نيام البلدة. غادرتْ. انتهت الاحتفالات. لم تنته الحرب. ولم تنته الثورة أيضاً، على الرغم من التحطيم المريع الممنهج والعشوائيّ (هل لثورة حقيقية أن تنتهي؟!)

قبل «فوز» «الرئيس المعلَّب»، لم تُرَ في شوارع المحافظة نفسها، صورة واحدة فقط لـ«المنافسين» الآخرين. امتلأت الشوارع فقط بصور «الرئيس نفسو ما غيرو»، بالترافق وتعبيرات لغوية خاصة بالشبّيحة والمخابرات من قبيل: «شهيد ورا شهيد، غيرَك ما بنريد»، وبالترافق طبعاً وكلمة «نعم» مكرَّرة في كل صورة نحو عشر مرّات

أو – للأمانة- أقلّ بقليل.

* * *

مرّت أيام على مشهد الأطفال نفسه مع البئر والدلو في ساحة قرية الكَفر، قبل أن أمرَّ ثانية من الساحة نفسها، وأفاجأ بأن التحفة، قد اختفت تماماً، وبدت الساحة من دونها مقفرة بشعة. سألتُ مستغرِبةً، قريبةً – عائليّاً- وهي من أهالي القرية المذكورة: «أين البئر ودلوها؟!»، فلم يكن لديها معلومات في هذا الخصوص. اكتفت بالقول: «شو بعرّفني. يمكن البلدية شالتها». خُيِّل إليّ أنّ البئر أُزيلت لغرض إزالة أي دليل على «انتخابات» مريضة مشوَّهة، هزلية هزيلة، استُعمِل الأطفال الذوات فيها كموضوعات. كأدوات في موضوع لا يفقهونه. مَن يدري؟ قد يكون السبب وراء اختفاء البئر ودلوها، هو الخشية من أن يكون أحد ما من «المتآمرين» قد صوّر المشهد المذكور، موثِّقاً بذلك مسرح الجريمة: «الصوت– الطلقة في الساحة - الملعب».

ومَن قال إن الأقليات يحميها التكفير الأسدي؟!

في افتتاح أعمال الدورة الثامنة والستين للجمعية العامة التابعة للأمم المتحدة بنيويورك 24 أيلول2013، قال أوباما من جملة ما قال، بعدما أفصح عن إدراكه بأنه «سيُتهم في بعض الأحيان بالنفاق»: إن «التسوية السياسية للأزمة في سوريا يجب أن تعالِج مخاوف الأقليات هناك». سخرتُ آنذاك في سرّي، من ذلك النفاق الذي لا مجال للشك فيه. سخرتُ باعتباري امرأة محسوبة على إحدى هذه الأقليات، لا تؤمن بهوية ثابتة، مطلقة، خالصة، نهائية وكَمّية. جالت في عقلي تلك التظاهرة المطالِبة بإسقاط النظام في صيف 2012، ب«ساحة النجمة» في مدينة السويداء (مرتع إحدى الأقليات الدينية)، التي كنتُ فيها مع مجموعة من الشابات والشباب. اثنان منهم، استشهدا في ما بعد. أحدهما اسمه صلاح صادق، مات في حلب إثر قصف النظام، صالة كان فيها برفقة أطفال، ذهب إليهم للمشاركة في برنامج دعم نفسي خاص بهم، والآخر اسمه مأمون نوفل، شاعر ومخرج سينمائي، قضى تحت التعذيب بعد اعتقاله نحو عام من الزمن. أسوة بآخرين من شباب المحافظة المعارِضين، لم يقتل الشابين المذكورَين، تكفيريون إسلاميون، بل تكفيريون أسديون. في التظاهرة المذكورة، الموثّقة بصور وفيديوات، كان الهتاف الأبرز «بالروح بالدم

نفديك يا درعا، يا حمص، يا حماة، يا إدلب».

لقد أثبتت التجارب أن كل السياسات الخارجية حيال سوريا، خصوصاً السياسة الأميركية، كان لها دور بارز في نموّ التطرف الديني في سوريا، التي تُركت تتدمّر، حمايةً لأمن الاحتلال الإسرائيلي في المقام الأول. الاحتلال الذي قال أوباما في كلمته المشار إليها نفسها، في ما يخص أطفاله: «إن لهم الحق في الحياة». طبعاً لهم الحق في الحياة، شأنهم شأن أطفال العالم جميعاً. نحن ننتمي إلى أولئك الذين يعزلون الأطفال، كل الأطفال، عن كل بشاعة لا يمكن أن تنتمي الطفولة إليها. بيدَ أننا في الآن عينه، ننحاز انحيازاً مطلقاً إلى أطفالنا، فلذات أكبادنا في فلسطين وسوريا تحديداً. هؤلاء لهم الحق المطلق في الحياة وفي كل شيء جميل. هم بالنسبة إلينا، أهمّ من أطفال إسرائيل وأطفال الزعماء والملوك والحكام والشيوخ والأمراء والرؤساء العملاء. أطفالنا الذين يسلبهم القتلة يومياً حقّهم المقدس في الحياة واللعب والدراسة وكل ما هو لائق بحياة ملونة.

النوم على سرير الوجع

كثيراً ما يُروى عن عائلات يشعر الرواة أنها تستحق أن يعرفها الناس، خصوصاً تلك التي يكون أفرادها، جميعهم أو بعضهم، قد قدَّموا ما هو جدير على صعيد ثقافي فنيّ فكري مثلاً، أو اقتصادي، أو علمي. مذ تفجّرت الثورة في سوريا، كُتب الكثير عن عائلات ثائرة، وعن تضحيات نبيلة جمة قدّمَتها في سبيل الحرية والكرامة الإنسانية. في المقابل، كُتِب الكثير أيضاً عن عائلات معروفة لدى عموم الناس، بالجشع وبالانتهازية والفساد والإجرام. هكذا، نجدنا أمام روايات من شأنها إما نشر فضيلة ما لدى عائلة ما، سواء أكانت معروفة لدى عموم الناس أم لا، وإما فضح رذيلة ما لدى عائلة ما مشهورة؛ لكن تندر الروايات التي تتحدث عن عائلة ليست فاضلة وليست مشهورة دفعة واحدة.

في الآتي من السطور، ثمة ما يعرّف ولا يشهّر- وفق ما تقتضيه المسؤولية الأخلاقية- بعائلة في مجتمع يمور بالرذيلة والفضيلة وبما بينهما وفوقهما وتحتهما في آن واحد، شأنه في ذلك شأن المجتمعات الإنسانية كافة، وخير ما يمكن أن يعرّف بالبشر عادة، أفعالهم لا أسماؤهم. فإذا ما سألَ سائل، عن الفائدة المرجوة من معرفة ما يراه هو هامشياً، قد يكون مفيداً عندئذ، التذكير بأن الهامش لا يقلّ فاعلية وخطورة عن المركز في سلبه وإيجابه، وبأن الشر

والقبح قد يجرّان، من حيث لا يدريان، إلى نقيضهما، إذا ما أُجيدَ التعلّم من دروسهما السيئة المريرة، وقد يدفعان تالياً إلى التفكير في ضرورة العمل «المجنون» وبشتى الوسائل «المجنونة» التي تضمن المحاسبة القانونية لكل مَن ارتكب جرماً في حقّ الشعب السوري. أصلاً، لا يمكن لمرحلة انتقالية مقبلة أن تمرّ، من دون تحقيق العدالة أولاً، عبر ملاحقة المجرمين والفاسدين ومحاكمتهم، وإنصاف أُسَر الشهداء، والمعتقلين، ومَن تدمّرت بيوتهم، ونُهبَت ممتلكاتهم، وانتُهكَت أعراضهم.

***

أمضى الرجل سنوات طويلة في وظيفة حكومية، كان يشغلها باعتباره سائقاً في مستشفى عام، قبل بلوغه سنّ التقاعد. اتُّهم خلالها مرّة، بسرقة مواد من مستودعات المؤسسة العامة التي يعمل لديها، ثم بُرِّئ وأُفرجَ عنه بعد حبسٍ دام أشهراً قليلة، على غرار الكثير من قصص الفساد المتصلة بالشأن العام، التي لم يكن الناس ليعرفوا معها كيف يُتّهم أشخاص أحياناً وكيف يبرَّؤون أحياناً أخرى، خلال فترات قياسية. كان الرجل يستعيد في كل مناسبة تجمعه بآخرين، تفاصيل عاشها في الحبس، يلقيها على سامعيه من دون حرج. تفاصيل خاصة بالتعذيب، تحديداً الضرب بالعصا على باطن القدمين(الفلقة)، ومن كثرة ترديده لـ«الفكرة الجهنمية» التي خلّصته أخيراً من العذاب

والألم، بات الجميع يحفظونها عن ظهر قلب ويرددونها بالنيابة عنه في أحيان كثيرة من باب التهريج والمزاح: «برحمة باسل الأسد تْرِكْنِي»، الجملة التي أنهت عذاباته، بعدما توسَّل من قبلُ مراراً للعنصر الذي كان يعذّبه، مستحلفاً إياه بأهله وعرضه وشرفه وبكل غالٍ عليه، من دون جدوى. هكذا، إلى أن خطرت على باله فكرة، قرر من خلالها الاستعانة بالابن الميت للسيد. وبالفعل، ما إن فتح الاسم الرهيب المهيب المرعب، باسل الأسد، كوة في أذنَي العنصر الصماء، حتى توقف عن الضرب فوراً.

للرجل نفسه، المولَع بالأفلام الهندية، وباقتناء أشرطة الكاسيت والفيديو في خزانةٍ وحده يمتلك مفتاحها ووحده القادر على فتحها وغلقها، المواظِب على زركشة حيطان بيته من الداخل بصور سِبيلكان، الفنانة الاستعراضية الشهيرة وقتذاك، وبروسلي، بطل الكاراتيه المعروف؛ زوجةٌ أصابها شلل منذ سنوات، وسبعة أبناء وبنتان، متزوجون، لديهم أبناء وبنات. فقط الشقيق الأصغر استطاع أن ينال شهادة معهد متوسط، بينما لم يتمكن أشقاؤه من إنهاء المرحلة الابتدائية في التعليم أو الإعدادية كحد أقصى. السمة الغالبة على أولئك، فعلُ كل شيء خلسةً بعيداً من عيون الأب، والمسالَمة التي هي ضعف في الشخصية يُترجَم غالباً بسلوك مهادن، مساوم، نمّام، كأن يكونوا مثلاً، مع الكل في حضورهم، وضد الكل

في غيابهم، وفق ما تقتضيه الحال. يندر أن تلتقيهم وهم لا يتسوّلون رضا الآخر. أقصى طموحاتهم، تدبير الشؤون اليومية، و«جَعْلكة» زواج وإنجاب كيفما اتفق.

هُم من الطراز المنبسِط، إلى درجة يندر معها تفويت مناسَبة اجتماعية، خصوصاً تلك التي تتطلب مهارات في الهرج والمرج. المتكيِّف، إلى درجة الانصهار في كل ما يخص الأعراف والتقاليد، على اعتبار هذه غريزة تنشط أكثر كلما غابت أكثر الأفكار والقوانين وقيم التمدن ومفاهيمه. لكن غالباً ما يخالفونها في مكان آخر مخالَفةً نفعية، فعلى سبيل المثال هم ضد «الزواج خارج الملّة»، خصوصاً عندما يتعلّق بالإناث، لكن عندما سافر اثنان منهما إلى خارج البلاد، كان أول ما فعلاه الزواج من «خارج الملّة». على غرار ذوي السلطة والنفوذ وشيوخ «العقل الجاهل» الذين يخرجون على الملّة من دون أن يحاسبهم أحد، بينما قد يجد السكّين ممرّاً آمناً في العنق الجميل الطريّ لبنت فقيرة ومفتقرة للجاه والحسب والنسب، إذا تجرّأت على الخروج نفسه؛ لم يتسبب الأمر للعائلة بالكثير من الإرهاق و«العار» ما دام الاثنان اللذان تزوجا من خارج الملّة، ذكَرين، وعندما يرجعان إلى البلد ثانية سيكون أول ما تشتغل عليه العائلة، تزويجهما ثانية «من داخل الملّة»، وهذا ما حصل مع أحدهما بالضبط.

***

بعد اندلاع الثورة بأسابيع؛ راجت شائعات تتحدث عن مشاركة معظم أفراد تلك العائلة في «التشبيح» وقمع التظاهرات المدنية السلمية، وتعذيب الناس وضربهم وسلب بيوتهم ونهبها. ظلّت الشائعات شائعات، إلى أن بدأت تظهر دلائل بيّنة تفيد بحقيقة ما كان يُشاع. فمنذ نحو سنة ونصف السنة، اختُطف ابن الابن الأكبر للعائلة، ومنذ ذلك الوقت انقطعت أخبار الشاب اليافع وانصهرت ملامحه في غياهب المجهول. أما السبب المباشر للخطف، كما قيل، مشاركة أبيه في قمع الثائرين ضد النظام والمعارضين له، إذ هو متطوّع في أحد الأجهزة الأمنية منذ عقود، وكان يعمل إضافة إلى ذلك في ملاهٍ ليلية في العاصمة . ناهيك برجوع ابن ثانٍ للعائلة، بعد نحو سنة من اندلاع الثورة، مصاباً برصاصة في الفخذ، بعد مشاركته في القتال إلى جانب القوات النظامية ضد الأهالي بريف إدلب. اللافت في ما يخص هذا الأخير، قصة حياته الممهورة بالفشل. فهو بعدما تقطعت به السبل في سوريا؛ آثر السفر إلى ليبيا، أسوة بما كان يفعله أغلب الشباب الذين لم يتعلموا ولم يجدوا فرص عمل في بلدهم. ظلّ هناك نحو عشرين عاماً، لم يحرز خلالها إنجازاً مهماً يُذكر، وعندما عاد جارّاً خلفه خيباته وهزائمه، راح يقول للناس إنه تعبَ وشقيَ، وأمضى سني عمره في الدرس والتعلم إلى أن حصل على

شهادة جامعية عالية في الهندسة. الكذبة التي سرعان ما انكشف أمرها، وباتت موضع سخرية وتندر بالنسبة إلى كل مَن استمع، ليس فقط لأنه ثبت أن الشهادة مزوّرة، بل لأن نطقه ومنطقه وشخصيته بكليتها كانت فضّاحة، إذ غالباً ما يكون لغالبية الناس بصر وبصيرة من المعيب الاستهانة فيهما. بعدما تقطعت به السبل ثانيةً في البلد الذي غادره للسبب نفسه ثم عاد إليه منهَكاً من بلد آخر غادره أيضاً للسبب نفسه، لم يجد أمامه أخيراً سوى الانخراط في صفوف جيش النظام، والمشاركة في قتل أطفال بلده ونسائه وأبريائه! ربما يكون هذه المرة قد حقّق ذاته فعلاً، وأصبح ذا «شأن» و«إنجاز»!

* * *

منذ أشهر قليلة، افتتحت العائلة نفسها، محلاً تجارياً يجلس فيه الأب غالباً، يبيع أثاثاً منزلياً، كالأدوات الكهربائية، والأرائك، والأسرّة، وغير ذلك مما يحتاجه كل بيت. يُحكى أن كل ما يُباع في المحل عبارة عن مسروقات نُهبَت من بيوت الناس في مناطق سورية مختلفة ثارت على النظام، اقتحمتها قوات النظام والشبيحة والمرتزقة بتشكيلاتهم كافة. ما كان هؤلاء ليكتفوا، على ما يبدو، بانتهاك الأعراض، وارتكاب أشنع المجازر والمذابح وأشدها فظاعة وفظاظة، بل كانوا يعمدون دوماً

إلى نهب كل ما تقع عليه أيديهم في البيوت المقتَحَمة، ومغادرتها بعد حرقها. ما لا يقلّ قسوة ربما، وانحطاطاً أخلاقياً وإنسانياً وجمالياً، عن ذلك كله؛ تواطؤ بعض الزبائن وانتهازيتهم الراشحة من إشاحة العقل والضمير عن أصل الأثاث المبيع هذا وفصله، بل تجاهله، والموافقة على شرائه. إن النظر إلى هذه المسألة من منظور أخلاقي وجمالي، يدفع إلى اعتبار المشتري العارف بأن ما اشتراه مسروقاً أو منهوباً، شريكاً في الجريمة بمعنى ما. الجريمة نفسها التي طالما حماها وصانها مَن يُفترض أن يكونوا حماة القانون والإنسان والكرامة الإنسانية، لو كنّا في دولة الحق والقانون. ف«سوق الحرامية» مثلاً، الشهير في وسط العاصمة، لم يكن انوجاده أمام وزارة الداخلية محض مصادفة، أليس شائعاً قول «حاميها حراميها»؟.

***

ترى بماذا يفكر مَن اشترى للتو سريراً مسروقاً، وهو يؤوي إليه في ساعة مبكرة، متأهّباً لليلةٍ أُولى يمضيها في حضن سرير مسوَّر بشهقات الموت، مثقل بذاكرة الأنين والهول، تنحفر فيها دروب من جراء الاضطراب الذي يستجرّه احتمال وقوع هول مشابه في المكان الجديد؟ ماذا لو لم يكن للعينين اللتين تحاولان الإغماض قدرة على

احتمال ظلام حالك هائل؟ طيّب، بماذا يحلم؟ أتراه يحلم حقاً، نوماً أو يقظةً! أم أن الكوابيس المنبعثة من جنبات سريرٍ شاهد على الجريمة تلك الليلة، توقظه بعدما تصدم عقله نوبةُ إفاقاتٍ قصيرة تمتد للحظة، أي الزمن اللازم لسماع نقط دم ضحية لم يجف بعدُ، تسقط من خشب السرير على الأرض العارية للغرفة، وينظر في الظلام الحالك الهائل قبل أن يعود ويتحدّ بلا إحساسه؟

لو كان النائم على سرير الوجع أُمّاً، تضغط وجنتها على الوسادة قبالة وجه ابنها ذي الأعوام الستة، ترى أي الحكايات سوف تحكيها له؟ سِنان؟ السنافر؟ أم صاحب الظل الطويل؟ ربما يتحول هذا الأخير، بفضل إشراقة وعي مؤقتة، خيط ضوء يتسلل من تحت الباب، ترى الأمّ فيه حقولاً مقفرة، بيوتاً مهجورة، وتسمع على رغم المسافات، صوتَ طفل بعمر ابنها يئنّ مودِّعاً الحياة مذبوحاً على سرير الوجع نفسه.

الزوجان كيف يرتعشان، على سريرٍ اختبرَ رعشة كائن يموت. ظلّ يرتعش لحظات قبل أن يسلّم الروح ويسكن سكوناً أبدياً؟!

اللحظة الوعرة

هرباً من جملة أشياء، أوضحها جملة بلهاء: «كل عام وأنتم بخير»، في وطن من الواضح أنه ليس بخير؛ تفاديت في عيد الأضحى الفائت أسوة بما سبقه من أعياد ومناسبات، الالتقاء بأولئك المعتكفين في أقلويتهم. لو جاءت فيروز آنذاك لمعايدتي ما كنت لأقابلها بغير ذرف الدموع، وبضع كلمات حزينة للشاعر السوري فواز القادري: «ما عم يلعبو لولاد يا فيروز، ليلى ولين ما عم يلعبو والسماء لم تعد زرقاء».

طوال أيام العيد كنتُ أمضي مع ريّان، ابن الحياة الجميل وابن شقيقي وابن الأربعة أعوام إلا ثلاثة أشهر، قاصدين «ملعبنا». في الطريق إليه، كنا نحيّي الطبيعة كصديقة كما جرت العادة. نتحسس شوكة هنا، نستعير أوراقاً من شجرة هناك، أو نصفر لعصفور يمرّ من فوقنا مغرداً...؛ تارة يمشي ريان يده في يدي، طوراً يتعب فأحمله. يناديني باسمي وأناديه باسمه على غرار المألوف بيننا. حتى الآن، لم يتعرّف ريّان ذهنياً إلى مفردة من قبيل «عمّتي». هو سعيد كما يبدو لي بانعدام الوسائط اللغوية الثقيلة بيننا، التي قد تعرقل بلوغه المباشر إليّ. سعادة لم ألمحها في عينيه تجاه عبارات لها أصداء طبقية من قبيل «أحسنت يا أمير الأمراء» أو «ثابر يا بطل» التي ملأت بها معلمته دفتره، في الروضة التي دخلها حديثاً. لقد خلا دفتره من جملة تشجيع واحدة تخاطبه باسمه مباشرة من دون وسائط لغوية لا يفهمها ولا

معنى لها بالنسبة إليه. هذا جزء من ثقافة تربية وتعليم رامية عفوياً أو قصدياً إلى تغريب الشخص عن ذاته، ونسْب أي نجاح له إلى آخر مجهول.هي ثقافة رائجة وراسخة عندنا على أي حال، لا يكون في ظلها الإنسان مهمّاً ويستحق الشكر والتقدير ما لم يكن أميراً، ابن حسَب ونسَب، أو بطلاً خارقاً العادة.

ذات مساء، بينما كنتُ أقصّ على ريّان «حَكايا الشجرة الجدة»، عرّجنا على الحصان والحمار، ثم فجأة، قرأتُ في عينيه ما يفيد بأن الحمار أقل شأناً أو أدنى مرتبة من الحصان. ثبتَ ما قرأته، بعدما قرر إنهاء إحدى القصص بفوز الحصان وهزيمة الحمار، مع أن موضوع القصة كان مختلفاً تماماً، وما من نهاية لها بهذا الشكل. أمّا كيف انتقل إلى ذهنه تصور كهذا؟ فالأمر على ما يبدو في غاية التعقيد، لكن ليس مستبعداً أن يكون قد انتقل إليه من خلال ما رآه في حصان الجار الفلاّح، من رشاقة وعلوّ وذيل مضفر يكاد يصل الأرض، وتعاطي الكبار ذوي النزوع التقليدي الصلف إلى المراتبية، أمام ناظريه، مع تلك الخصائص، باهتمام لم يعيروه للحمار المثقل بحمولات القمح والشعير والتبن.

ما علينا، لنعد إلى «ملعبنا» الذي قضينا فيه على مدار أيام أجمل أوقات ما قبل الظهيرة. ملعبنا، كان عبارة عن فسحة ترابية، مسوّرة بحجارة، فيها شجرة تين وحماران ودلو ماء وضعه صاحب الفسحة

ليشرب منه حماراه قبل أن يعود مساء على عادته كي يأخذهما. أحد الحمارين كان أسود والآخر أبيض موشّح بالرمادي. للوهلة الأولى، دهمَنا إحساس عن بُعد مفاده أن ذا اللون الأسود حمار، وأن الآخر حمار(ة)، وبقينا نتعاطى مع كليهما على هذا الأساس مع أننا لم نختبر صحة إحساسنا، ربما لأن الأسود لم يبرح مكانه ولم ينظر إلينا البتة، أو لأن سواده حالك، بينما زهوّ لون الآخر وحيويته، وتفاعله معنا عبر النظر إلينا أو الاقتراب منا، كان من شأنه أن يدفعنا دفعاً لاعتباره أنثى، كون تلك الخصائص، وخصوصاً التفاعل، أنثوية تماماً في التصور، كما أن البشاشة لم تفارق وجه الحمار(ة) طوال فترة النظر إلينا بصمت. بشاشة تثير في العقل تساؤلاً غامضاً في شأن تجاهل الذين عرّفوا الإنسان بـ«الكائن الضاحك» تمييزاً له عن بقية الكائنات الحية، بشاشة بعض الحيوانات، بل تفوقها في ذلك أحياناً على الإنسان الذي يمضي شطراً مهماً من حياته حزيناً متألماً لا ضاحكاً.

سمات التسخير التي هيمنت على صاحب الحمارين في علاقته بهما، لم تكن لتهيمن على «اللعب الخالص» معهما من جهتنا، إذ انعدم أي إحساس لدينا بـ«السيادة» أو «المركزية» البشريتين تجاههما، في أثناء الدعة واللعب معهما. لا بل ما كان ريّان ليفصل نفسه عنهما، كطفل لا يحمل في ذهنه أثقالاً من الأحكام والأيديولوجيات، لايزال في

أوج دهشته ومفاجأته بالمحدثات. عندما أخبرته أن الحمار(ة) حيوان أليف، استحضر حيوانات لا تعدو معرفته بها التلفاز أو الألعاب البلاستيكية، وقال: إذاً الحمار ليس متوحشاً كالنمر والأسد. الألفة جرّت التوحش من حيث لا ندري. يبدو أن النقائض وفصفصة الأشياء من خلال نقائضها تدخل في صميم وجودنا كبشر.

في تلك الفسحة، كنا كمَن يلزم نفسه بمهمة ممتعة ليست هينة، نمضي في الكلام المشوق، كلمة تستدعي أخرى، كذاك الذي يصنع عقداً من أقحوان. كنا أمام الحمارين، متأملين كأننا أمام معضلة فلسفية. ما من شيء أكثر متعة ربما من اللعب الخالص مع حيوانات، ومن التحدث إلى طفل.

***

لم يستوعب الرصين «ش»، كيف يمكن البشر أن يكونوا أنانيين إلى هذا الحد. يحتطبون الأشجار الحية لكي يتدفأوا، يأكلون الكلاب والحمير لكي يبقوا على قيد الحياة. مع أنه سبق لـ»ش» نفسه أن استوعب – ويا للمفارقة والفارق- حرق الشبيحة بيته قبل نزوحه مع أسرته من محافظته إلى دمشق. الهمّة التي أظهرها الرصين المثقف «ش» في نقد المستضعَفين، لم يكن ليجرؤ على مثلها في ما يخص الحصار والمجازر والمذابح التي يرتكبها «النظام» منذ اندلاع

الثورة. لم يكلّف نفسه عناء فكّ «شيفرة» عدم تمكّن فرق الإغاثة الدولية من الوصول إلى المحاصَرين، وبأي حق يُحاصَرون وتُمنع عنهم أسباب الحياة أصلاً. لم ينبس ببنت شفة، لم يكتب كلمة يدين فيها «النظام» في التهامه لحوم السوريين واحتطابه سوريا!.

ليسوا قلائل مَن يشبهون «ش» في «الرصانة»، خصوصاً بعض زعماء «الأسرة» الدولية، وعملاؤهم مخرِّبو الطبيعتين الإنسانية والطبيعية الحقيقيون. لكن مما لا شك فيه، أننا في غالبيتنا ربما، نكون ظرفاء لطفاء مع المحيط الذي نحن جزء منه، مع أمّنا الطبيعة، عندما نكون في حال «اللعب الخالص». لا نتخيلنا نقطع شجرة مثمرة، أو نأكل كلباً أو حماراً، مع أن الأمر من «منظور حيواني» بحت لا يفترق كثيراً عن أكل دجاجة أو خروف. بيد أن الظُرف واللطف، قد لا يبقيان على حالهما عندما تحلّ كارثة تهدد وجودنا الإنساني في الصميم، خصوصاً أننا كبشر، نخضع مثل غيرنا من الكائنات ل«قانون» البقاء أو الصراع من أجله. أمّا كيف يمكن أن يتصرف أيّ منّا إذا ما تعرّض لما يهدد وجوده كالجوع وغيره، فهذا ما لا تمكن الإجابة عنه قبل التجربة، العيش، المكابدة والمعاناة. بعدها فقط، في تلك اللحظة الوعرة بالذات، قد نتعرّف إلى نصفنا الآخر الذي لم تكن لدينا أي فكرة عنه في أحوالنا «العادية». إصرارنا على الحياة أو البقاء لا يقلّ غموضاً عن الميتافيزيقا، وغالباً ما ننسى عندما نتعاطى

مع الطبيعة باعتبارها لغزاً أو أحجية تتطلب التفسير، أننا نحن أيضاً لغز من ألغاز هذا الكون(؟!).

***

لنا أن نستشرف مستقبلاً تؤسس له لحظة يتفرّس فيها طفل في عنق طفل آخر منحور، أو في وجه كلب مذبوح. كلب صديق لطالما لعب معه، يأكل لحمه جوعاً. إنها اللحظة الوعرة التي قد تكبر معه، ويكبر معها الميل الكبير والفظيع إلى التدمير، أو نقيضه الخلاق المبدع، إن شئنا أن نتفاءل في ولادة جمال عظيم من خراب عميم. دوماً سيبقى للتفرس في الذاكرة، عميق الأثر في كل شيء، وقد يضيف إلى حياة الكثيرين من السوريين، الكثير من المدى.

انتقاد الذات

كمِثل جلّ البدايات التي تحتاج إلى حماسةٍ كبرى: كنتُ في محافظتي السويداء، في بدايات الثورة السورية، أهدرُ من الوقت والطاقة، وأحرقُ من الأعصاب، الكثيرَ مما ظننتُه«سيغيّر العالم»، ويحثّ«البخلاء»، على فتح النوافذ لكي «يروا». لكي يقولوا كلمة واحدة فقط، من أجل حرية سوريا وكرامتها. كان ذلك قبل أن تبهتَ لديّ، بعد مرور سنوات مديدة، معمَّدة بالدماء والأشلاء، «طفلنةُ» «تغيير العالم» واستنهاض «البخلاء» الذين ليس من شيمهم العطاء، أو الانتفاض والثورة.

ذات لقاء، في صيف 2011، أتذكّر أني«جاهدتُ» في سبيل حثّ سيدة على تركِ سياط كلماتها، والكفّ عن قولِ «كنّا عايشين أحلى عيشي»، وعن جَلدِ الناس التوّاقين إلى الحرية عبْر نعْتهم ب«الإرهابيين». لكنّي بعد دقائق قليلة، اكتشفتُ أن «الحرية»هذه، كانت مجرّد كلمة فضفاضة، يشقّ على تلك السيدة، الاهتداء إلى معنى واحد حتى، من معانيها الخصبة، وأن «سوريا» هي أيضاً كانت مفهوماً شديد العمومية والتجريد بالنسبة إليها؛ فقلتُ في سرّي: «لأقرّب المسألة، بحيث تصبح حميمة تمسّ الذات مباشرة، وتهزّ على المستوى الشخصيّ، ما دام التعاطف مع الآخر والعام، غير مقدورٍ عليه». رحتُ أذكّرها بعمرها المتقدّم، وبأنها «يجب» أن تطالب

لـو بالحـد الأدنى فقـط من الحقـوق، خصوصـاً أنهـا خرجـت خاليـة الوفـاض، من وظيفـة حكوميـة، أفنـت نصـف عمرهـا في خدمتهـا. وظيفـة مؤقتـة بشـكل دائم، لـم يجـرِ تثبيتهـا فيهـا، على الرغـم من أنهـا زاولتهـا طـوال عقـود؛ قبـل أن تخـرج منهـا بـلا راتـب تقاعـديّ، ولا تأمينـات ولا ضمانات قد تمكّنها من عيش ما بقي من عمرها عيشاً كريماً. فما كان من السـيدة إلا أن بادرتْ إلى «مجابهة» ذلك كلّه بـ«نقـد الـذات»، ذاتهـا، قائلـةً: إن الحـق دومـاً كان عليهـا لا معهـا، وإنهـا كانـت كسـولة، فلـو أنهـا بذلـت مجهـوداً وأكملـت تعليمهـا؛ لحصلـت على وظيفـة جيـدة ودائمـة! أقـول «نقـد» الـذات هنـا، وأقصـد «انتقادهـا»، لكـون هـذا الأخير ينزع إلى تقريـع مجانيّ، إلى تحقير، وتبخيس وتبكيت، لغاية تبرئة المتسلّط وصـبّ اللّـوم كلّـه على«موضـوع» المتسـلط عليـه، أي «الـذات» التي يجري الحـطّ من شـأنها وتثبيتهـا في موقـع منحـطّ. بينما يحيـل «النقـد» على معـاني التبصّـر كافـة سـلباً وإيجابـاً، لغـرض الارتقـاء والتصويـب وغيرهمـا من صـور الحركـة والديناميـة.

ذاك اللقـاء ومـا دار فيـه من «نقـاش»، قـد يكـون مألوفـاً، فهنـاك الكثير ربما التقوا ويلتقـون بمَن يلجأون في المواقـف نفسـها إلى«انتقـاد» الـذات نفسـه، والسـعي إلى تبرئة المجرم من خلال تعبير «كنّا عايشـين» وأمثالـه. قـد يدفـع ذلـك إلى التأمّل: لقـد كان هـؤلاء المنتقـدون ذواتهـم

الآن، هم أنفسهم من كانوا طوال عقود، شيمتهم «النقّ»، يشكون سوء أحوالهم الممضّ، يتذمرون»ع الطالعة والنازلة» في خصوص الأمور كافة، عدا أمرين ممثلَين خطَين أحمرَين، هما المتسلّط نفسه، والذات نفسها. ترى ما الذي جرى بعد اندلاع الثورة، حتى صار «انتقاد» الذات بمثابة «منهج رصين»؟! قد يكون الأدنى إلى الصواب، تفسير ذلك ب»العبودية المختارة»، تيمّناً بالمفكر الفرنسيّ لابويسيه في «مقالته» الشهيرة التي يربط فيها الطاعة والهيمنة معاً.

أيتها الزرقة، أيتها السماء، ارفعيني إليكِ

في مناطق سوريّة مسمَّاة «آمنة»، مسكونة بسكونٍ مدجَّج، مصبوغة بمسالَمَةٍ ظاهريّة، وتجهد في قمع ما بقيَ من طاقات حيوية لديها عبر مزيد من الرضوخ الاستسلاميّ طلباً لسلامة منزوعة الكرامة؛ وربما يكون ذلك مجرّد رضوخ مشدود يتفجّر عند أوّل بوادر تَراخٍ ما؛ في المناطق هذه، لم يعد الذهاب، بالنسبة إلى البعض من الفقراء والعاطلين عن العمل والعلم وأشياء إيجابية أخرى؛ إلى مناطق سوريّة أخرى مشتعلة حرباً وثورة وأشياء أخرى؛ يحتاج إلى استعذابِ الموت «البطوليّ»، أو إلى تشريعٍ عملانيّ، وتسويغٍ لغويّ راقٍ وأخلاقي من مثل: «الدفاع عن الوطن»، على جرْيِ العادة منذ سنوات. لم يعد هؤلاء، على ما يبدو، في حاجة إلى إجهاد أنفسهم في اختلاق ذرائع مؤدَّبة مهذَّبة ومشذَّبة، ربما لا تنسجم إلى حدّ كبير أو صغير واقتناعاتهم واقتناعات مَن يستمع. يبدو أنّ الملل وتفاقم سوء الحال وانعدام الأفق والأمل، باتت تحول دون الاعتناء بالمظهر، لغوياً أكان أم غير ذلك، مع ما يستتبعه ذلك من انعدام الشعور حيال كلماتٍ من مثل: الوطن، الأرض، العرض، الشعب، وغيرها من عبارات، من كثرة ما استُعمِلت وتكررت وترددت وتناهت إلى الأسماع من دون أن تتناهى إلى قوام وتجسُّد، انطفأ الشعور الحميم بها. لقد خلعَ أولئك الأردية المثالية كلّها، وتناهوا إلى واقعية فجّة، معلنين مصرّحين: «بدنا

نعيش». لا تشبه إرادة العيش هنا، البادية في «بدنا»، التي تتمنى «استمرار الحرب» باعتبارها «باب رزق» يؤمّن ضرورات العيش من مأكل وملبس ومأوى؛ إرادة الحياة في صرخة الاحتجاج «بدنا نعيش»، التي يصرخها مَن يريدون «انتهاء الحرب»، وانتهاء القتل والاستبداد في أشكالهما كافة، توقاً للركون إلى السِّلم والمحبة والحرية والعيش المشترك الحر الكريم والفرح والمرح والفن والجمال والإبداع والعشق.

الإمعان في «الركون» المهمّ هذا، يكشف عن تفرقة ثانية بين معنيَي «بدنا نعيش» هذين، ومغزاهما، على الرغم من تطابق التعبيرَين لغوياً. تفرقة من شأنها بيان التصاق المعنى الأول بعيشٍ محض «بيولوجيّ»، منغلق على ذعرٍ وجوديّ، لاهث خلف حاجات بيولوجيةطبيعية، فاقد لأي معنى من شأنه أن يمنح وجود المرء، معنى إنسانياً كالحلم وغيره. تنفكّ في «العيش البيولوجيّ» هذا، الارتباطات العاطفية والوجدانية بالآخر، ليحلّ محلها عداء وقسوة ونميمة وكره وعنف، هو في الأساس، وليد تغيّر بطيء داخليّ علائقيّ، قضى على التسامح والمحبة والمشاركة، وفجّر محلّها القتل والتدمير والاضطهاد المعنويّ والماديّ. تخيّم هنا كارثة علائقية تصيب الذات والآخر معاً. ففي «العيش البيولوجيّ» هذا، تهفو النفوس، فتمسي فقيرة جدباء هزيلة. تتضخّم الذات على حساب الآخر- الضحية، الذي أمسى القاتل الطامح إلى «عيش بيولوجيّ»، معدوم الإحساس

حياله، بعدما صار بالنسبة إليه مجرّد شيء، أو «باب» مفتوح، يدرّ «رزقاً»، فتبرز، من خلال ذلك، أنويّة فاحشة مفرطة، قد تتخذ أشكالاً دموية وكاسحة، تنهار في قبالتها قيمة الآخر ويُستباح. وإذ يُستباح الآخر؛ يكثر النهش وتتسع غابة الذئاب. يجري حينئذ، تحقير ذوي الحق والخلُق، والسخرية من الفضيلة والفضلاء، وتنعدم الحرية. وإذ تنعدم الحرية؛ يكثر الوشاة الذين يعتاشون من أذيّة الغير ويرتزقون، و«تزدهر» الدسائس والمؤامرات.

في المقابل، يظهر المعنى الآخر، مدى حبّ الحياة لدى «صارخٍ» يريد أن «يحيا» لا أن «يعيش». أن يحيا، يعني أن يتحرَّر من أَسر «العيش البيولوجيّ»، أن لا يطيل الوقوف عند متطلّبات الجسم، أن يشبعها قليلاً أو كثيراً، لغرض التحليق فوقها والإمعان في المعنى العقليّ، الروحي، الجمالي، الأخلاقي وكل ما يهب الحياة الإنسانية معنى يمدّ الشخص بمشاعر الامتلاء الحميم، والوفاق مع الوجود الآخر، ويعزّز الصورة الطيّبة عن الذات والعلاقات واللقاءات. إنه «العيش» الذي تفرّ منه الذات المطعونة في كرامتها وكبريائها، لـ«تحيا» تدفّقَ العاطفة، واندمال الجرح الغائر.

تفرقة ثالثة بين التعبيرَين نفسهما، تطفو عند النظر إليهما باعتبارهما قوّتَين متنافرتين متخارجتين، تضاهيان قوتين فيزيائيتين: فـ«استمرار الحرب» المضمَّن في التعبير الأوّل، هوفي الآن عينه «انفصال» تام

مترافق مع لامبالاة تامة بين الذات والموضوع - الآخر. الانفصال هنا، يستتبع عزلة (لا وحدة) الذات وتقوقعها. في هذه العزلة، تنعدم كل شفقة حيال الموضوع - الآخر. وعليه، يصبح قتل طفل أو امرأة وتهديم بيت وتشريد عائلة، في سبيل «دفعِ إيجار بيت مُستأجَر أو مَهر عروس» مثلاً، مجرّد «موضوع» لا يستجرّ ذرْفَ دمعة واحدة حتى أو رفّة جفن واحدة، لدى الذات القاتلة المقيمة في عزلة تامة عن «موضوعها»، في حال من الانفصال التام، ولدى كل مَن يتماهى والذات هذه، يوافقها ويدعمها. لكن «انتهاء الحرب» المشرِّش في التعبير الآخر، هو «اتصال» حميم بين الذات والذات، إذ يُنظَر إلى الآخر هنا من منظور ندّيّ حرّ، فهو ذات حرّة أيضاً لا موضوع. شفافيّة الاتصال هنا المترافقة مع إحساس عالٍ ومرهف حيال المحيط والبشر، بين الذات العارفة الشغوفة الحدسية والعالم، من شأنها جعْل العلاقة بين الذات والآخر جدلية تفاعلية موسومة بذهاب وإياب موصولَين متواصلَين.

***

هناك تعبيرات أخرى كثيرة، لغوية راقية وأخلاقية في ظاهرها، مناقِضة لذلك في كواليسها وفي ما ترمي إليه: أمست هي أيضاً خارج نطاق الحاجة إليها، بعد مرور سنواتٍ سوريّة مُشلّعة، هتكَت الحجب كافة. بعض التعبيرات تلك، كان مصموداً في لوحات إعلانية

لطالما ملأت الشوارع، في البدايات، قبل أن تزول وتختفي أو يصيبها تشوّه بسبب عوامل جويّة ولم يعد مهمّاً ترميمه: «أنا مع سوريا» تقول لوحة، وقارئ حرّ أمام اللوحة يسأل في صمت: «وهل أنا لستُ مع سوريا؟!». «طائفتي سوريا»، تقول لوحة أخرى، وقارئ حرّ آخر أمام اللوحة يسأل في صمت: «وهل كنتُ طائفيّاً يوماً؟! لي أصدقاء وأخوة في الصحراء والجبل، في الغابة والساحل والسهل». «الحرية لا تبدأ بالتخريب، تبدأ بالتفاهم» تقول لوحة زرقاء ضخمة عالية إلى درجة التقزيم، وقارئ حرّ يرفع رأسه عالياً مكلِّماً زرقة السماء، فارد اليدين باسط الكفَّين مُناجياً: هاأنذا وحيد شريد وسط الخراب، لا أحمل سلاحاً، ولا حتى «أبيض». جُلّ ما أملكه، قليلاً وكثيراً من المنثور الأبيض والورق الأبيض والأفكار البيضاء والمشاعر البيضاء. أيتها الزرقة، أيتها السماء، ارفعيني إليكِ، أو بلّليني بمطركِ لعلّ الملتهب يبرد قليلاً. طوفي واجرفي الخراب كلّه. لا أحد لي غيركِ.

رابعاً: من الصعق الثاني

فراق

1

هاأنذا أفارق الوطن للمرة الأولى في حياتي. فارقتُ سوريا التي أعشقها، لأنضم بذلك إلى ملايين المفارِقين الممعنين في الأمل واليأس دفعة واحدة. أقسم أنه فراق كمثل طلوع الروح من الجسد بالفعل «أيها الصديق»، واللوم لا ينصبّ على كاهلي. وحده الوجع يعلم كم قاومتُ هذا الفراقَ، صابرةً على ما لا يُصبر عليه. قاومتُ الفراق، حتى انفجرتْ أخيراً لحظة الرحيل الممضة اليائسة الموصَدة، بعدما استُنفدت «الحلول» كافة التي من دون جدوى. ألا ما أعجب الأقدار! فهاأنا أعود إلى لبنان. البلد الذي وُلدتُ فيه وعشتُ أربع سنوات قبل أن يحملاني والديّ ويرحلا بي إلى سوريا. سوريا أمّنا ونحن الذين بلا حُضن وسط المهبّ المَهيب الرهيب هذا. كنتُ وعدتُني أن أتماسك خارج الوطن، وأن أحتفظ بطابعٍ من القوة، وأتّسم بسِمة من الجَلَد

على مدافعة النوائب، لكنّي على الرغم منّي أذرف الدمعَ مدراراً، كلّما آويتُ، مصغيةً إلى أصوات المشاعر المختلطة تتزاحم هناك في الأعماق.

***

... حسناً. إنه لَخير ربما إنْ كففنا عن تقليب الأحزان والمواجع، لكي نتمكّن من رؤية الدنيا الواسعة. إن لبنان الطبيعة، جدير بالرؤية والرؤيا، خصوصاً حين تنوء نفس الهارب تحت خفّة جمالها ورشاقتها. اخضرارُ لبنان، طبيعتُه التي تمارس نفسها بدأب وخفاء، تلتفّ، تتلوّى، تعلو تهبط، قد يكون مما اعتاده بعض اللبنانيين، لكنه بالنسبة إلى هاربة مثلي، قد يكون محض دهشة وذهول، استيلاء على النفس، على الروح. فهناك في أعلى الجبل، يشعر الهارب الحقيقيّ إلى لبنان، الناظر إلى الوديان، كأنه في حضرة الماهية الروحية الكلية، والحب الكونيّ الذي يمدّ بالقدرة على الحياة التي هي استمرار. يستغرق روحه جمال هذه البقعة من العالم، ويُستغرق هو في سحر المكان الساكن الضاجّ. يقرّر فجأة طيّ صفحة الماضي والاستمتاع العاشق بالحاضر. تروح العينان تغازلان المناظر بنظراتٍ تبثّ الشغف والشبق في الروح والوجدان، فيتّسع مداها. يصير المكان المهروب إليه، وطناً أيضاً. تعطيه من روحكَ، بينما تحاول اكتشاف روحه، قهوته (خلاصته)، مصغياً لنبضه، همسه، حفيفه، وهاده

ووديانه وجباله، من دون إسقاطات مجحفة في حق خصوصيته، لأمكنة أخرى غالية مهروب منها. وإذ تتناغم الروح والروح، يسيلُ الإنصات، يتكلم كلٌّ من الهارب والمهروب إليه بلغته الخاصة، وتصبح الذات عينها كآخَر.

2

فارقتُ سوريا مُكرهة، في أيار 2015. أسباب الخروج كانت كثيرة، منها قسوة ما طالني من تعنيف نفسيّ مريب وغريب، مدروس وممنهج. لكن في الإمكان القول بشكل عام، إن ثمة انتهاكاً صارخاً طال خصوصيتي وحياتي الشخصية، كان على ما يبدو يُشتغَل عليه بمكر وخبث مخابراتيّ ولا يزال الاشتغال ممنهجاً، هنا في لبنان أيضاً كما كان في سوريا. كما في الإمكان القول، إن المشي في الطريق بكرامة بات شبه مستحيل في شوارع محافظة السويداء التي خرجتُ منها مباشرة إلى لبنان، فقد كان ثمة تجييش حقيقي ضدي، يُعمَل على بثه في كل مكان، عبر«وسطاء وعملاء» للنظام.

على سيرة انتهاك الحياة الشخصية:

حيواتنا الشخصية، تبقى مُلكنا وحدنا، ووحدنا نعرف أسرارها الفذة، في دياجير وحدتنا وأصقاعها، حتى لو صارت نوراً مجلجلاً في السماوات، وناراً تحرق الأخضر واليابس في الأرض. حيواتنا الشخصية، جيناتنا، مساماتنا، خلايانا، دهاليزنا، إمكاناتنا ومستحيلاتنا، فرادتنا الفريدة والمتفردة، هي حيواتنا الشخصية، حتى لو قررت البشرية جمعاء المشاركة في ولائمها، والاشتراك في سحرها وشعوذاتها المريبة! كلٌّ سيدّعي المعرفة. كلٌ سيقول ها قد شاركت وأكلت والتهمت وشربت، ومن آل البيت صرت، لكن هيهات! الكل إذاك سيكون واهماً من طراز سخيف. طراز يصلح لمعرفة أي شيء وكل شيء، في ما عدا حيواتنا الشخصية وذواتنا العميقة، وشعورنا الذي لا يمكن أن يصير ما صَدَقاً. كل شيء يسهل أمام عصيان حيواتنا الشخصية، ومعرفتها العصيّة وانكشافها. كلّ انكشاف لحيواتنا الشخصية، سيكون وهماً مضافاً مضاعَفاً إلى ركام أوهام يلعقها واهمون.

نحن ماضون، ولكم أن تظلوا لاحقين تابعين ومتابعين. نرمي لكم عظام ما أكلناه من لحم المعرفة الحقيقية الحية، أولاً بأول، فاتبعونا ولا تتوقفوا، لأننا سنظل نرمي لكم العظام، وستظلون واهمين أنها المعرفة، بينما هي عظام فحسب. عظام تظنونها عظيمة على هيئتكم التي تتوهمون عظمتها أيضاً، بينما هي محض عظام حتى الكلاب تنأى

عنها (مع الاحترام للكلاب!).

***

وصلتُ إلى لبنان، وفي حوزتي مبلغ متواضع، جمّعته من مستحقات مقالاتي التي نشرتها في الصحف خلال أعوام. لم يكن لدي أي مصدر عيش آخر، سوى الكتابة. إقامتي في لبنان كانت نظامية، كون أمي لبنانية. عشتُ في غرفة متواضعة في بلدة برّ الياس. في الغرفة كان هناك أساسيات العيش فقط، جلبتُها معي من سوريا. لم أطلب من أحد كأس ماء حتى. كانت تمرّ أحياناً أربعة أيام، لا أرى خلالها الشمس، مثلما كنتُ في بيتي في صلخد بجنوب سوريا، مع فارق ليس ببسيط، هو أنه في صلخد كنتُ أمكث في عزلة مرعبة مختارة في ظاهرها، مفروضة في باطنها، وكانت تطول أحياناً إلى مدة ثلاثة أشهر لا أخرج خلالها من البيت، يتناتشني الخوف والقلق والذعر. كثير من الملابس التي جلبتها معي من سوريا، ظلت مطوية في الحقيبة، لم تُلمس مذ وضعتُها آخر مرة حين كنتُ في سوريا قبل أن أسافر، كَون الحياة في بلدة بر الياس، كانت غاية في الكآبة والشظف ولم يكن هناك مجال لأي شيء قد يسمح بـ«الترف» و«العيش» الحقيقي و«الفرح». في تلك البلدة أيضاً كانت هناك مضايقات مدروسة. إذ

في لبنان أيضاً ثمة امتداد لـ«التشبيح» السوري الذي طالما قاسيته معنوياً.

3

عملاً بنصيحة مقرَّبين حدّثوني عما يتعرّض إليه الكتّاب والصحافيون، من مضايقات؛ ذهبتُ إلى مركز «مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين»، في مدينة زحلة. بعدما أجريتُ اتصالاً هاتفياً سجَّلتُ خلاله في «المفوضية» نفسها، الاسم الثلاثي وتفاصيل أخرى شخصية سألتْني عنها الموظفة التي ردتَّ على الاتصال وحدَّدت لي موعد المقابلة.

هناك، تقدَّمتُ بطلب «حماية»، بعدما شرحتُ – بالتفصيل- للموظفة التي أجرتْ معي مقابلة دامت حوالي ساعة في غرفة المكتب رقم (27)، وقبلئذ كانت هناك إجراءات دامت حوالي 4ساعات، شرحتُ أسبابَ مجيئي إلى لبنان، وقدّمتُ كل الوثائق والأوراق الثبوتية. كان أول سؤال توجّهه إليّ الموظفة هناك: «إنتي» سنّية؟. قلتُ بحماسة: بل سوريّة. قالت:» لا أكلمكِ في الطائفية. هذا مجرّد سؤال لكي نعرف عنكِ تفاصيل نرجع إليها وتهمنا كمعلومات. قلت: حسناً أنا من السويداء. قالت: وين بتوقع «هاي» السويدا؟ بعدين إي قليلي «إنتي» شو؟ أجبتها أخيراً إجابة لستُ مقتنعة بها، فقط

للتخلّص من إلحاح السؤال المزعج، ولأنه لا مجال لنقاش «ثقافي» في مكان «أممي» للغاية، على غرار هذه «الأمة» الخالدة، وتلك التي خير ما أخرجَ للناس .للأسف الشديد، هذا العالم «الحر»، مصرّ على ألا يتعاطى معنا كشعب، بل كطوائف وملل وقبائل ومذاهب وشيع وإثنيات وديانات.

طلبتْ الموظفة أن أوقّع على (ورقتين) تفيدان بأن المعلومات التي أعطيتُها لها صحيحة. الورقتان – حسبما قالت الموظفة- كانتا بمثابة موافقة منّي من أجل مشاركة معلوماتي الخاصة والشخصية مع وزير الشؤون الاجتماعية في لبنان (قالتْ لي الموظفة: مشاركة اسمكِ يعني. وعمركِ وهكذا). بعد تردّد، وقَّعتُ على الورقتين اللتين تفيدان الموافقة على مشاركة المعلومات الشخصية التي قدَّمتها لـ«مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين»، مع وزير الشؤون الاجتماعية.

قالت لي الموظفة: إن الدولة اللبنانية لم تعد تستقبل طلبات حماية أو لجوء، لكن «استثنائياً» أخذت منّي معلوماتي الشخصية وأرسلتْها إلى وزير الشؤون الاجتماعية في لبنان. كان ذلك في 23 حزيران 2015.

عند المدخل الرئيسيّ للمفوضيّة نفسها، سألني أحد الحشريين من الحرّاس: «عمبتقولي إنك مع الثورة السورية. طيّب الثائر كيف بيترك بلدو وبسافر؟». قلتُ للحشريّ إياه آنذاك بشكل سريع: إني أكتب.

فقال: «آه. إذا هيك معك حق. الكلمة قاتلة وأخطر من السلاح». ما لم أقله للحشريّ نفسه: إني خرجتُ من سوريا في 12أيار2015، أي بعد مرور سنوات طويلة على اندلاع الثورة السورية. ثورة الحرية والكرامة عام 2011. وإني قلتُ كلمة واضحة، حرة جليّة لا لبس فيها ولا التباس من داخل سوريا. قلتها كتابةً، وقلتها تظاهراً واعتصاماً سلميَّين. من قلب الشارع السوري خرجتُ مع غيري وهتفتُ لإسقاط نظام الأسد، وقلتُ مع غيري:»سوريا لينا وما هي لبيت الأسد/عاشت سوريا ويسقط بشار الأسد». وما لم أقله للحشريّ أيضاً، إني صبرتُ صبر أيوب على الاعتداءات النفسية لشبيحة السويداء ومن خلفهم المخابرات، الذين طالما كانوا يطاردونني من مكان إلى مكان، ومن دكان إلى دكان، حتى صار المشي في الشارع شبه مستحيل. ما لم أقله للحشريّ أيضاً إني من منطقة فيها ثوّار لكن لا ثورة فيها، في معنى، أني لم أترك ورائي ثورة مشتعلة وأدير ظهري لها وأتخلى عن مسؤولياتي في خضمّها، بل كان وجودي في السويداء كمثل غيري من المعارضين والثائرين المدنيين السلميين الذين ما عاد لهم حيّز مكاني وغير مكاني ربما، خصوصاً بعدما انكفأت سلمية الثورة بفعل البطش الذي قوبلت به ورودها وأغصان زيتونها وشموعها.

لقد جرت مساومتي يوم استُدعيتُ إلى فرع «الأمن العسكري» بتاريخ1نيسان2014، من أجل منعي من مواصلة الكتابة للثورة

وعنها. كان في الإمكان أن أكتب مثلاً عن «إيجابيات» النظام كما طُلِبَ منّي في ذاك الفرع. كان في الإمكان أيضاً أن أقبل بوظيفة حكومية عُرضت عليَّ، وأن أبقى في بلدي مرتاحة مادياً، لكني كنت بذلك سأخسر نفسي. ما الذي ينفع الإنسان إذا ربح العالم كلّه وخسر نفسه؟!(صرماية كل طفل سوري عندي وضحكتو بتسوى كنوز الأرض).

***

أنا الشجرة اليتيمة التي خذلها الجميع وتخلّى عنها الجميع، والجميع لم يعر أدنى اهتمام لأنين أو نزف أو صراخ موجوع (الجميع لم يصدّق!).

إذا ما متُّ؛ فالجميع مسؤول عن موتي. لكني لن أموت، بل ستموتون بلعنتي القاتلة. ستقتلكم لعنتي في حياتي وموتي.

هوذا العنق ممدود، فأمعنوا ذبحاً، تكفيني راحة ضميري بأني لم أوذ أحداً، ولن. لم أغدر بأحد، ولن. يكفيني فخراً بأني قلتُ لا للاستبداد ولا للاستعباد والفساد والإجرام، بل نعم للحرية إلى أبد الآبدين، أقولها بمساماتي وخلاياي، بكياني كلّه وكينونتي كلّها. أعلم كم هو غالٍ ثمن «مواقف» كهذه، وكم هي غالية الضريبة! ولست بنادمة، ولن. أنا على هذه الدرب سائرة. وحدي كنت. دائماً. وحدي سأظل.

الجديلة

حين مررنا بصبيّ سوريّ لاجئ، تعرفه تلك المرأة السورية اللاجئة أيضاً، التي جمعتني بها معرفة موضوعية عاجلة وسريعة؛ في إحدى الحارات في بلدة برّ الياس في البقاع في لبنان؛ ندهتْ عليه وسألته سؤالاً، وما أن استدارَ الطفل مغادِراً، حتى انتبهتُ إلى جديلة شعره الطويلة. ساقَني الفضول إلى الاستفسار عن سبب إطالة شَعر الصبي، فقيل إنه «نِذْرْ»، وإن أهل الصبيّ يحلفون بألا يقصّوا شعر ولدهم إلا بعدما يرجعون إلى بلدهم. ثم استطردت المرأة: «يمكن يصير طول هالجديلة من هون لآخر هالطريق الطويل هاد، وما يرجعو. وما نرجع». قبل ذلك بلحظات كانت تقول «يا درعا شو كان بدنا بهالصرعة». يبدو أن الخيبة هنا تولّد معرفة قيمية أخرى، وتدفع إلى استعمال التعبيرات اللغوية الثائرة الأصلية في المجالات البعيدة عن أصلها الروحي، ويكون ذلك في الغالب، عملية مخيّبة للآمال، فالتعبيرات المرحّلة على هذا النحو تغدو عقيمة أو خادعة، لكونها تفقد فعالية تماسكها الروحي. لكن يبقى صحيحاً أن ما من قيمة جديدة متولدة، ستأتي لتتوهج في الموقد القديم. فالمعرفة تخرج من الجهالة، لكي يخرج النور من الظلمة.

مرشّم

في يوم 19 تموز 2015، كنتُ قد زرتُ عائلة أصلها من مدينة القصير بريف حمص، تسكن في مخيّم في البقاع بلبنان. ربة الأسرة كانت امرأة لطيفة وعاملتني بتهذيب ولم تقصّر في الإجابة بكرم عن كل ما استفسرتُ عنه منها. أما غايتي من زيارة تلك العائلة، فقد كانت معايدتهم أولاً (مع أني لستُ في وارد العيد)، والاطلاع على أحوالهم وأحوال جيرانهم من سكان المخيّم في العيد. طبعاً، لم أرَ أي مظهر من مظاهر العيد، لا مراجيح هناك، لا ألعاب، لا أسواق، لا حلويات، ولا الأولاد يلبسون لباساً جديداً وجيداً، ومثلي لم تتبرّج النساء ولم تلبس الحُلى (لكن جمالهن، كما بدا لي، كان في غنى عن كل لباس جميل وتبرّج). على الرغم من كل شيء، استقبلتني العائلة بحفاوة، وقدّموا لي بسخاء العصير والشاي والموالح و«المرشّم» الذي صنعته ربة العائلة بنفسها من أجل العيد كما قالوا لي. لم آكل شيئاً مما قُدِّم، كنتُ مثلهم أشعر بالحزن وباللا عيد واللا وطن. سألتهم عما إذا كانت ثمة منظمات دولية أو ما شابه قد زارتهم، فقالوا إنه لم يزرهم أحد. في خيمة أخرى، قالت امرأة في معرض الإجابة عن الاستفسار نفسه، إن ثمة أشخاصاً جاؤوا ليصوّروا، فطردوهم، واتفقنا جميعنا على أن الطرد كان الإجابة المناسبة في ما يخصّ التعاطي مع اللاجئين السوريين ومأساتهم المرعبة كـ«مادة» إعلامية لا أكثر!

في أثناء الجلسة التي دامت نحو نصف ساعة، دارت أحاديث مهمة بيني وبين تلك العائلة، منها أننا شعب واحد، ولا فرق بين درزي وعلوي وسني وكردي واسماعيلي ومسيحي...، نحن سوريون أولاً، وسنعود إلى الوطن كسوريين فحسب، وقد كان يمهر الحديث كله الشوق إلى سوريا، والشعور بالقهر الحقيقي حيال احتلال مجرمين من مثل «حزب الله» وإيران، وغيرهم من المجرمين الآخرين المنخرطين في الضفة الأخرى التي تقاتل النظام. قالت المرأة ربة الأسرة في صيغة سؤال: هل من العدل أن نخرج نحن من بلدنا ونكون هنا في لبنان، ويدخل المجرمون ليحتلوا مكاننا الطبيعي، بلدنا؟!. سألتُهم إن كانوا قد حاولوا العودة إلى مدينتهم القصير، فقالوا:»لا»، «إن القصير صارت محتلة من «حزب الله»، وهم لم يحاولوا العودة لأنهم يخافون القتل».

كرافانات..كرافانات

زرتُ مخيَّماً آخر للاجئين السوريين في أقاصي هذه «البقعة» من لبنان.

هذه المرة، لم يكن المخيَّم صغيراً كالذي زرتُه أكثر من مرّة سابقاً. لم يكن كذلك، قريباً إلى المكان الذي أسكن فيه. كان بعيداً جداً. ولم تكن خيامه خياماً، بل «كرفانات».

ذهبتُ إلى المخيم مشياً. استغرقَ المشي ذهاباً وإياباً نحو ثلاث ساعات من الوقت. لم يكن الطريق مملاً على أي حال، حتى إنه يمكنني الجزم بأني لو كنت ذاهبة بسيارة، لأوقفتُها في منتصف الطريق، وأكملتُ السيرَ مشياً، من شدّة ما كان الطريق جميلاً، حنوناً، شاعريّاً مرصوفاً بأشجار الصنوبر والصفصاف على الضفتَين، ناهيك بخلوّه من كل ازدحام وركام. طوال الطريق كانت تشدّني من قلبي أوراقُ شجرٍ خضراء، تدير وجهها برفق؛ فتصير فضّية برّاقة، تلصف وتلمع وتبرق، وتبرق معها عيناي.

كنت أعلم، أن الذهاب إلى هناك، سيكون له عواقب، وهو مجرد «مغامرة» محفوفة بالمخاطر، ليس أقلّها «التصوير»(طبعاً لا أقصد التصوير من قِبَلي، فأنا لم أذهب من أجل التصوير على الإطلاق. أعتبر ذلك تعدّياً على خصوصية الآخر وكرامته، وحياته

وحريّته الشخصية. ثم إني لست ممتهنة توثيق. التصوير من دون علم المصوَّر(لا أقصد توثيق الجرائم مثلاً)، يوازي فعل الاغتصاب في لا أخلاقيّته، وعدوانيته الغرائزية الدنيا المطلقة)، وعلميَ المسبق - من خلال تجربة سنوات- بأن ثمة «عملاء ومرتزقة» سيكونون قد سبقوني إلى هناك، «بالسيارات والموتسيكلات طبعاً وليس مشياً على أقدام الشِعر»،(قلتُها من قبلُ، إن ثمة في لبنان، امتداداً لـ«التشبيح» السوري، ليس من شأنه ترك معارض نقيّ أو ثائر سلمي، أو ربما أي شخص بالمطلق آتٍ من سوريا، في حاله.

على رغم علمي بأن ثمة مَن يكون قد سبقني إلى هناك، لكي يعلّم البعض هناك، ما الذي ينبغي قوله حينما أصل؛ تابعتُ المشي «الشاعريّ»، وأصررتُ على الوصول إلى ذاك الهدف في نهاية الطريق، إلى ذاك المخيَّم الذي قيل لي إن أغلب قاطنيه هم من «الأرامل». من بعيد، حين اقتربتُ من الوصول إلى المخيَّم، هالني مشهد سورٌ إسمنتي طويل. انقبض قلبي. على الرغم منّي سقطت قطرات دمعٍ على خديّ. فكّرتُ في كم هي كبيرة مأساتنا كسوريين. رحتُ أرسم في ذهني صوراً لقصص وحكايات خلف ذاك السور «المهيب».

ولأني، أعلم، أن ثمة مَن يكون قد سبقني؛ لم يُثِر استغرابي أن تكون في استقبالي امرأة تسألني: «جاي لحالك؟! جاي مشي؟! ليش ما طلعتي بشي سيارة؟! ليش ما أشّرتي لحدا يطالعك ويوصلك لهون؟!».

أجبتها: «ما بحب إكسر نفسي لحدا». أما في ما يخصّ متعة المشي على الأقدام، والتنفّس العميق على طريق شاعريّ، فلم أجد مبرراً للكلام عنه.

تابعت المرأة الكلام، وتابعتُ «الحدسَ» بأن ما أسمعه ليس «كلامها». لكني تابعت أيضاً المشي مع المرأة إلى أن دخلنا المخيَّم من بوابة ضخمة(أنا ممن يخشون الضخامة، خصوصاً حين تستحيل «رسمية»). هالني، بعد اجتياز البوابة، ما رأيتُه من صفوفٍ هائلة مسبقة الصنع من «الكرافانات». صفوف في إمكانها أن تفعل كل شيء، ما عدا الإبقاء على البشر كذوات، ككائنات(أو محيطات) فريدة ومتفردة، مميَّزة ومتمايِزة.

لا أجد مبرِّراً للاسترسال في تفاصيل كلام. فقط حين أكون أمام لجّة «غير مسبقة الصنع»، أجدُني منسابة بعفوية، وفي حلٍّ من الفيض. لكن في الإمكان هنا، الحديث بثقة الحدس، عن امرأة، تعيل أسرتَها بمفردها، من خلال عملها في زراعة البطاطا، كون زوجها رجلاً متقدّماً جداً في السن ولا يستطيع العمل. عن طفلة محروقة، تعرَّضت لنيران غاز أهوج، نالت من وجهها الجميل، ويديها الصغيرتين، وقدميها المنطلقتَين إلى مجهول. كلّنا سائرون إلى هذا المجهول. عجباً نسير إلى ما لا نعرف.

النبض الخالد

لم أنم في تلك الليلة. ليلة الثاني من أيلول2015. كانت أصوات الرصاص في «شتورة» بلبنان، مرعبة، يتخللها صوت ذكوري كان يعلن عن وصول قتيل جديد لـ«حزب الله» قادم من بلدي سوريا.

صباحاً، فتّحت عينيّ على خبر أكثر رعباً، فذهبت مسرعةً عند حوالي الساعة العاشرة، إلى حيث المكان الحقيقي للخبر المرعب، لكي أكون إلى جانب الطفل السوري(محمد أحمد البقاعي) في مستشفى «البقاع» في تعلبايا. كان المستشفى قريباً من «مكاني»، حيث نُقِل إليه الطفل في 1أيلول 2015، عند حوالي الساعة الخامسة مساءً، مضرَّجاً بدمائه، جرّاء رصاصة «طائشة»، اخترقت رأسه، في أثناء هستيريا الرصاص يحتفي بالموت القاتل والقتيل.

قال لي الطبيب المشرف على حالة محمد: إنه «ميت دماغياً، وإن قلبه لا يزال ينبض، وإنه لا أمل في أن يعود إلى الحياة».

الطفل الذي كان مسجّى على ذاك السرير في «العناية الفائقة»، كان عمره ست سنوات. عيناه لوزيتان مغمضتان نصف إغماض، ثابتتان، حوصرَ رأسه بشاش ومكان الرصاصة ثمة بقعة مستديرة من الدماء «حمّرت» بياض الشاش. في يده اليمنى غُرست إبرة من شأنها إدخال الماء والملح إلى جسمه من كيس سيروم معلق كمثل

حياة مشنوقة، وكان هناك جهازان يعمل أحدهما على دفع الطفل إلى التنفّس، ما جعله يتحرّك، فيظن الناظر أن الحركة هي حركة الطفل، أما الجهاز الآخر فكان يشير إلى نبض قلب الطفل. سألتُ ممرِّضاً هناك عن نبض القلب الذي صار قلبي، فقال إن «النبض سريع قليلاً».

سألت عن والد الطفل، فقيل لي لقد كان للتو هنا، لكني لم أره، بحثتُ عنه مراراً ولم أتمكن من الالتقاء به في المستشفى. بعدما انتهى الوقت المسموح به لزيارةٍ مزّقت قلبي، قررتُ أن أغادر المستشفى إلى حيث كان يقطن الطفل، إلى مخيم «الرحمن الإغاثي» أو «مخيم السندباد» في تعلبايا/ البقاع. هناك، دخلتُ خيمة الطفل، وجلست بالقرب من أمه مع نسوة كثيرات. كانت الأم صامتة في أغلب الوقت، تبكي في هدوء مرير. رأيت الفراش الذي طالما كان الطفل نائماً عليه حين باغتت رصاصة «طائشة» صدغه الأيمن. اخترقت الرصاصة قماش الخيمة، قبل أن تخترق رأس الطفل. دلّتني الأم على الثقب الصغير، في قماش الخيمة في الأعلى، الذي خلّفته الرصاصة بعدما اخترقت رأس ابنها الذي كان ينتظرها كما قالت، ريثما تعدّ له الطعام، وكان يشاهد مع أشقائه التلفاز، وكان الأب عائداً للتو من عمله، ويغتسل في المطبخ. كانت العائلة هذه، نازحة إلى لبنان من محافظة درعا بجنوب سوريا، تحديداً من بلدة عقربا.

كانت النسوة المجتمِعات في الخيمة آنئذ عند أم الطفل محمد، يتكلمن عن تلك الواقعة بوصفها الأولى من نوعها تحدث في المخيم، قبل أن تستطرد أمّ الطفل مجدداً شارحة، كيف ظنّت في البداية أن ثمة انفجاراً قد وقع في الخيمة، ثم رأت الدماء تسيل بغزارة من رأس ابنها. حملته وراحت تدور به في أرجاء الخيمة، دارت في لحظة دورة أرض حول نفسها. دارت وصرخت منادية على والده «تعال شوف. شو بدي ساوي. شو بدي أعمل». ***

كان قلب الصغير لا يزال ينبض على رغم أنف الدماغ الميت، وعلى رغم أنف محيط متوحش. كان يقاوم متمسكاً بالحياة ضد الموت. كان يأمل أن يعود إلى الخيمة لكي يأكل من طعام كانت تعدّه أمه له.

***

عدتُ في اليوم التالي، إلى مستشفى «البقاع»، وفي أعماقي تموج رغبة عارمة في أن يكون نبض القلب قد شقّ طريقه إلى الدماغ الميت وأعطاه جرعة حياة جديدة. غير أني، عند الباب الرئيسي للمستشفى، تعثّرتُ بشيخ قال لي إنه المسؤول عن مخيم «الرحمن» الإغاثي أو مخيم «السندباد»، وهو المخيم نفسه الذي كان الطفل محمد أحمد البقاعي يقطنه وأسرته، ثم استطرد الشيخ: «لقد توفي». كانت جثة الطفل ملفوفة بكفن أبيض ولم أرها، يحملها أحدهم بين

يديه وهو جالس في سيارة برفقة والد الطفل الذي طالما بحثت عنه ولم أره في اليوم السابق، وكان هناك رجل آخر قال لي إنه ابن عم الطفل. ذهبت معهم جميعاً إلى المخيم، وهناك كنتُ حاضرة على ما قاله الشيخ المسؤول عن المخيم لأم الطفل. كان كلامه كله دينياً بحتاً، دعا خلاله الأم إلى الصبر والتقبّل والتحمّل والتسامح والرضا والتسليم بقضاء الله وحكمه. لم يقترب من أي شيء قانوني أو جنائي أو قضائي أو سياسي. لم يخص في الظروف التي أفضت إلى وفاة الطفل محمد أحمد البقاعي. أما والد الطفل فقد قال لي «إن الأمر اعتُبِر عند «الدرك» قضاء وقدراً وقُيِّد ضد مجهول». ثم دخلتُ مع الجميع، إلى خيمة أو «غرفة» خُصِّصَت لغسل جثة الطفل، قبل نقلها إلى الجامع لكي يُصلّى عليها، قبل دفنها في مقبرة. أما أنا، فقد حشرت نبض قلب الطفل في حنايا قلبي، رافضة الانصياع إلى موته. رافقتُ أمه والنسوة إلى خيمة، ليست الخيمة نفسها التي دخلتُها في اليوم السابق. وعدتُ الأم الباكية الموجوعة بتخليد نبض قلب ابنها(هل هذا ما أفعله الآن؟).

إدارة انفعال

في صيف 2015، وكان قد مضى حوالي أربعة أشهر على فراقي لسوريا بتاريخ 12 أيار 2015؛ بينما كنتُ في مركزٍ اسمه «النساء الآن» في بلدة شتورة بلبنان، أقدّم طلباً لغرضِ تدريس الأطفال السوريين في مخيمات اللجوء في البقاع؛ جاء إلى المركز وفدٌ نسائيّ يرافقه صحافيون وإعلاميون أجانب. كان من بين أعضاء الوفد نساء من «هيئة التنسيق» التي تلقّب نفسها عادة ب»الوطنية». قام الوفد بجمع نساء سوريات نازحات من مدينة داريا في الغوطة الغربية، كنّ يومئذ في المركز يقمن بأنشطة من قبيل التطريز وغير ذلك من الأشغال اليدوية. جلست نساء داريا إلى جانب بعضهن البعض على كراسٍ في جهة، وجلست نساء الوفد على كراسٍ في جهة مقابلة لهنّ. نادتني إحدى العضوات في «هيئة التنسيق» لكي أجلس إلى جانبها، أي في الجهة التي يجلس فيها الوفد. لم تمر ثوانٍ حتى استشعرتُ الخطر، وشعرتُ بضرورة أن أكون في الجهة التي تجلس فيها نساء داريا البسيطات. وهكذا، راحت عضوات الوفد يلقين بفحوى «رسالتهن» التي كنَّ يحملنها آنئذ، على نساء داريا. كانت الرسالة خطابية ومتعالية، توجّهت إلى مخاطبة نساء داريا بوصفهنّ قاصرات ينبغي تعليمهنّ قيم السلام، وبوصف رجالهن الثوار أسّ المشكلة في الصراع السوري، وبالتالي يجب على نسوة داريا أن يمارسن الضغط

على رجالهن في داريا من أجل إعلان السلام، ووقف القتال.

كان واضحاً بالنسبة إليّ أن نساء الوفد كنّ يحملن رسالة سلام إنسانية وحيادية في العلن، إلا أنها رسالة سياسية وغير محايدة على الإطلاق في الباطن، فيها انحياز مبطَّن للقاتل الأكبر، وإلقاء للّوم على الضحايا في الصراع السوري، وتحميلهم مسؤولية الخراب والدمار الذي لحق بالبلاد. حين جاء دوري في الكلام، قلتُ رأيي صراحة على جري العادة، سائلة نساء الوفد: «لماذا لا تذهبن إلى زوجة بشار الأسد وتنقلن لها رسالة سلامكم هذه، وتوصينها بأن تمارس الضغط على زوجها لكي يكف عن قتل الشعب السوري، وعن قصف المدن والبلدات السورية بالبراميل المتفجرة وبالسلاح الكيميائي..و..و، بدلاً من أن تلقين برسالتكن هذه على نساء هن ضحايا ونازحات هنا. ما أن سمعت نساء داريا كلامي، وكن في غمرة الاستكانة قبل قليل، والإنصات المسكين لنساء الوفد، حتى بدأت أصواتهن تعلو، وبعضهن أيّدن كلامي، ثم انفجر ما كنَّ يكتمْنَه في صدورهنّ، وصارت الجلسة السياسية «القوّادة» الهادئة قبل قليل، المراوِغة والمخادِعة والمنافِقة، صارت حقيقية وصادقة وعفوية وإنسانية، يعتورها الغضب الإنساني الطبيعي حيال صراع مأسوي.

حينئذ، انتقلت إحدى نساء الوفد إلى جهتي وجهة نساء داريا، وجلست على الكرسي بجانبي. كانت عضوة في «هيئة التنسيق»،

راحت تدعوني إلى الهدوء، ملقيةً عليّ دروساً قالت لي إنها تعلّمتها في أميريكا حين أجرت هناك وهي وزملاء لها في «الهيئة» دورة في الدبلوماسية، قالت لي إنهم علّموها هناك «إدارة الانفعال»، وذلك رداً على ما رأته فيّ من انفعال وغضب حيال تحميل الضحية مسؤولية ما يجري، وإبعاد القاتل الحقيقي والمجرم الأكبر وهو المسؤول الحقيقي عن خراب البلد ودماره، عن ساحة المسؤولية، تحت ذريعة «الدبلوماسية» و»الهدوء» و»الحكنة السياسية» و «رسالة السلام» و»إدارة الانفعال». ما أخافَها تحديداً وقتئذ هو أن رأيي قد نبّه نساءً كنّ ساكتات منصتات للتو، لا حول لهنّ ولا قوة حيال خُبث ما يجري. «فوَّعتهنْ» قالت لي، ما استلزم بعدئذ موعظة «إدارة الانفعال»، ثم استطردَتْ:»معك حق. بشار هوي قاتل ومسؤول عن الخراب. بس ما فينا نحكي هيك وبشكل مباشر بالإعلام».(هاي هيي إدارة الانفعال). بعد ذلك، جاءت إليّ سيدة أخرى من سيدات الوفد، طارحةً عليّ السؤال الآتي:» «أتختارين الحياة؟ أتختارين السلام؟». قلتُ والسخط يملأني، ومن دون «إدارة انفعال»: «أنا على هذه الحال أصلاً وجذراً، فلماذا أختار؟».

***

اليوم، كنتُ أقرأ مقالاً في إحدى الصحف، مرّ أمام ناظريّ الاسم الذي ألقى عليّ موعظة «إدارة الانفعال» في الوفد المذكور أعلاه، هو

اليوم على «منصّة القاهرة» ربما يدير انفعالاً آخراً. ضحكتُ ضحكة ساخرة ومريرة دفعة واحدة، ثم أغلقتُ صفحة المقال.

ومضتان عشبيّتان

الومضة: حياة متكثفة. كونٌ كثيف. صعقة مشرقِطة قُبيل العَود إلى العادي. تفجير قنبلة روحيّة قبل رحيل دائب. العشبيّة: حياة متدفقة مشلَّعة مشلّعة بلا هوادة. درسٌ في الأخلاق. رعشة روحية عقلية، في حلّ من الغيبوبة واللايقين حيال ما قد يولد جرّاءها. وُلدَ. أو لم يولَد ولن.

الومضة الأولى: من 18 إلى 21 أيار أيام لا تُنسى

بعد أيام قليلة من مجيئي إلى لبنان، شاء لحياتي في طابعها «العشبيّ»، أن تأخذني في رحلةٍ ليست في الحقيقة سوى «ومضة»، لأيام قليلة، إلى إحدى المدارس(من 18 إلى 21 أيار 2015). خلال الأيام الومضة هذه، علّمتُ ربما وتعلّمت بكل تأكيد من أطفال سوريين لاجئين إلى لبنان، تتفاوت أعمارهم بين الثامنة والعاشرة. كانت تجربة «التدريس» تلك، بالنسبة إليّ، بمثابة تنفيذ جزئيّ، مقموع أيضاً وأيضاً، لِما أفكّر فيه وأحلم. كانت محاولة أخرى مقموعة أيضاً وأيضاً، للربط بين القول والفعل. بين الفكر والعمل. بين الكتابة والعيش. بين النص المحنَّط والحياة النابضة. نغَم ولقمان وابرهيم وبراءة ومحمد ومحمود وفاطمة وماهر... هؤلاء كانوا تلاميذي لأيام، أولادي وكَوني في العقل والقلب. حاولنا معاً على مرّ أيام، التفكير في تخطّي صعوبات

ومآسٍ ومحَن من خلال اقتراحات وحلول قدّموها هم أنفسهم حين طلبتُ إليهم ذلك. بعضهم اقترح التخطّي عبر اللعب، بعضهم اقترح الدراسة، بعضهم اقترح الشغل، وبعضهم اقترح الفرح. هؤلاء الذين يحبّون البط والكرز والرياضيات واللغتين الإنكليزية والعربية، وغير ذلك مما عبّروا عنه كتابياً؛ وينبغي العلم هنا أن بعضهم لم يستطع التعبير من طريق الكتابة كونه لا يفقه الأحرف من أساسها، وإن استطاع كتابتها منفصلة، فإنه لا يستطيع توصيلها وإنتاج كلمة واحدة فقط منها(هذه كارثة إنسانية بلا أدنى شك)، هؤلاء غالباً ما يجد المرءُ نفسَه في حضرتهم أكثر مما هو عليه في الحقيقة.

في داخل الصفّ أو القاعة، كانت ثمة أكُفّ مفرودة كثيرة ملصقة بعضها إلى جانب بعض، على الحائط، حيث رسمَ كلٌّ من هؤلاء التلاميذ يده، استجابةً لطلبي، على ورقة بيضاء ولوّنها باللون الذي يحب، ثم أشهَرَ «لاءه» في أعلاها ضد ما يكره في الواقع ويمقت. أحدهم رفع كفّه المفرودة الأصابع في وجه الحرب، كاتباً «لا للحرب»، وآخر كتبَ «لا للفساد»، وآخر كتب «لا للغش». «لا للأذى». «لا للضغط». «لا لمخالفة قانون السير». «لا للضرب»... أحدهم اضطرّ إلى رسم كفَّين. أما سبب ذلك فكان الآتي: رسمَ في البداية كفّه المفرودة في وجه التخريب، «لا للتخريب». وحين كنّا نحمل شمساً كبيرة مصنوعة لغرض تزيين القاعة بها، قال لزميله الذي عبّر عن

وقوع الشمس من أيدينا بينما كنا نحاول تعليقها على الحائط: «ماتت الشمس». قال له: «لا تكفر». فقلتُ: «لم يكفر زميلكَ وصديقكَ. هو فقط اختار التعبير بطريقة شاعرية عن سقوط الشمس(أو غروبها مثلاً) بأنها ماتت». حسناً، ارسم كفّكَ ثانيةً في وجه التكفير هذه المرّة؛ ففعلَ ثم كتبَ في أعلى كفّه المرسومة «لا للتكفير».

راقَ لإحدى التلميذات مرّةً، أن ترسم علَم سوريا، فرسمت علم الدولة التقليديّ ذا الخط الأحمر والنجمتين(هذا الذي بات علم النظام في قبالة علم الثورة ذي الخط الأخضر والنجمات الثلاث). لم يُثِر الأمر لديّ أدنى اعتراض، انطلاقاً من كون مشكلتنا في الأساس ليست مع علم الدولة هذا، بل مع نظام عسكري مخابراتي مستبد وطائفيّ، ثم إن من واجب الثورة أن تحتضن وأن تقدّم بديلاً أخلاقياً ممّا اندلعت ضدّه أصلاً. فيما رسم تلميذٌ آخر علم الثورة الموصوف. كان في القاعة جوّ من احتضان العلمَين، لكننا لم نعلّق أيّاً منهما على الحائط أسوة بالرسومات الأخرى كالبيت والشجرة وغيرهما، حرصاً منّا آنئذ، على فصل العملية التعليمية والتربوية عن السياسة، على الرغم من صعوبة فصلهما نظرياً وعملياً(في إمكاننا ربما أن نهزم دوماً، عبْر إنشاء عالم. عوالم).

حين انقطع التيار الكهربائي مرّة، بينما كنّا في القاعة نناقش قصةً قرأناها للتو، انتهزت إحدى التلميذات الفرصة لتعبّر عن رغبتها في أن

يبقى الضوء مطفَأ دائماً، وحين عاد الضوء بعد لحظات، اقترحت التلميذة نفسها، إطفاءَ الضوء، ما أثار اعتراض آخرين من زملائها وزميلاتها. فاقترحتُ بدوري إجراء انتخابات ديموقراطية، حرة، نزيهة وشفافة، في شأن الموضوع مثار السجال هذا. رفع يدَه كلُّ مَن يريد الضوء، وكلُّ مَن لا يريده أيضاً، فكانت النتيجة لصالح مَن يريدونه. لكن التلميذة ذاتها واصلت اعتراضها على النتيجة، فدعوتُها إلى أن تتقبَّل «خسارتها» وتهنّئ زملاءها بالفوز، ففعلت ذلك بمحبة ورقّة. التلميذة هذه، ذات السنين التسع، يجلس – بطلب منّي- إلى جانبها في المقعد زميلُها الذي طالما قال إن «الصبيّ أفضل من البنت»، غير أنه جلس بعدئذ، إلى جانبها، كلّمها وكلّمته ببراءة وبندّية راقية، دونما أدنى اعتبار لترّهات من هذا القبيل أو ذاك.

ذات مرّة، طلبتُ إليهم أن يكونوا هادئين في أثناء غيابي عن القاعة لحظات؛ فهبّ أحدهم سائلاً: «مِس بكتبلك أسماء اللّي بيحكو بغيابك؟»، فاعترضتُ على أيّ نوع من أنواع الوشاية. قلتُ لهم: «أحِبّوا بعضكم بعضاً. فلتسقط المخابرات. فلتسقط التقارير».

في الحديقة القريبة من المدرسة، أحببنا مرّةً أن نقرأ قصة، فكنّا بذلك «حدائقيّين» «أبيقوريين» مستمتعين بـ«لذّة» معرفية ممزوجة بنسماتِ حرية تلفح عقولنا في الهواء الطلق. كنا «مشّائين» أرسطيين أيضاً، إذ راح كلٌّ منّا يقرأ القصة ونحن «نمشي» جيئةً وذهاباً. من

شدّة ما كانت «حديقتنا» جذّابة؛ انجذب الأطفال الذي كانوا مارّين بمحض المصادفة من أمام سور الحديقة، وانضمّوا إلينا، فاستقبلناهم بمحبة. راقَ لسيدة مسنّة أن تنضمّ أيضاً، فانضمّت ورحّبنا. في «حديقتنا الأبيقورية»، غنّينا وصفّقنا، وتأمّلنا، ولعبنا، قبل أن نعود أدراجنا إلى المدرسة، رائقين «متلذّذين» بيوم رائق.

سلامي إليكم يا أحبائي الصغار الكبار. من صميم الفؤاد أتمنى لكم النجاح الحقيقيّ في حياتكم. وأن تبقوا حالمين توّاقين.

الومضة الثانية: بالضوء سكبتُ الوضوء

يوم أمس، لجأتُ إلى فيء شجرة في حديقة عامة، صارت خاصة بعد حفيف الروح. الحديقة قريبة من البحر ومن إحدى ساحات بيروت الشهيرة. كان لا يزال هناك وقت لـ«أضيّعه» قبل أن يئنْ أوان موعدٍ في مكان «قريب جداً». تحت الشجرة الوارفة، كان هناك شاب في العشرينات يعمل كحارس أمنيّ للمنطقة. أعطاني مكانه بمحبة حين استأذنتُه الجلوسَ بقربه على مقعد إسمنتيّ. قال لي اجلسي مكاني أفضل، وحين تردَّدتُ خجِلةً من أخذ مكانه، أكّد أنه في الأصل لا يحقّ له الجلوس. طبيعة عمله لا تسمح بذلك. شكرتُه وجلستُ. ولمّا مللتُ الانتظار؛ رحتُ أقرأ في جريدة بحوزتي. قرأتُ ثلاث مقالات عن بلدي

سوريا، وحين همّت عيناي تغرورقان جرّاء ما أضافه على القراءة شوقي إلى أهلي وبيتي في سوريا؛ لففتُ الجريدة كسندويش، ورفعتُ ناظريَّ في اتجاه خيوط شمس متسللة من بين أغصان الشجرة، بينما كنتُ أهدِّئني بمونولوغ: «يجب ألا ينفرط عقد تماسككِ على قارعة الطريق في هذه المدينة الغريبة الموحشة». كان الشاب لطيفاً إلى درجة أنه كلّمني بشكل طبيعي، دونما اكتراث بكوني صبيّة وحدها وغير ذلك مما هو سائد في مجتمعاتنا حين رؤية صبية وحدها(وهل من الضروري كلّما اجتمع رجل وامرأة، من طريق مصادفة أو تخطيط، أن يكون هناك اعتبار لغير كون هذين الكائنَين إنسانَين فحسب، وما من داعٍ، على جناح السرعة، إلى تعميق أي شيء بينهما؟!). في قبالة الحديقة ارتفعت أمامنا بنايةٌ ضخمة، ككل البنايات البيروتية التي لم ترُقْ لي. فعلى النقيض من تلك الجبال التي شعرتُ أمامها كأني في حضرة الماهية الروحية الكلّيّة، شعرتُ بنفسي أمام بنايات بيروت، وقد استحالت إسمنتاً، ربما لأن الظروف لم تُتِح لي رؤية تفاصيل أخرى، غير بنايات إسمنتية ضخمة خانقة مقزِّمة حاصرة وحاسرة. المهم، كانت البناية تلك، مائلة إلى زرقة كئيبة متّشحة بالسواد، أما السواد البائن من الداخل، أعني من خلال هياكل النوافذ الكثيرة المرصوفة طولاً وعرضاً بدقة هندسية صارمة، ذوات الزجاج المهرور من درفاتها المخلّعة المتهاوية كلّها، فقد كان السواد ذاك، يتكلّم عن محض موت وبشاعة وكره وحقد وبغض لطالما استفحل هنا في هذا

المكان يوماً. قال حارس المكان الأمنيّ الشاب، بعدما أوضح أنه «مش مع حدا. مع رغيف الخبز لولادو ولعيلتو وبس»: إن خراب البناية هذه وغيره، هو من بقايا الحرب الأهلية، واقتتال الأحزاب، حين شكّلت كل مجموعة من الناس حزباً وراحوا يقتتلون.

مرّت قرابة ساعة، قبل أن يحضر رجلٌ تشي هيئته بأنه في الخمسينات من العمر. بدا المكان، كريماً مناسباً لحَضن الصلاة أيضاً، فضلاً عن حَضنه المنتظرين، والهاربين من شمس حارقة. رفع الرجل أكمامه لعند الكوعَين، ثم راح ينقّل قنينة ماء بين يديه، مرّة يمسكها باليسرى لغرض سكب الماء في اليمنى، ومرة يمسكها باليمنى لغرض سكب الماء في اليسرى. لمّا رأيته متلبّكاً، وقفتُ بالقرب منه، حملتُ عنه قنينة الماء، وفي نيّتي مساعدته في الوضوء. مساعدته فحسب. بلطفٍ رفض الرجل «تعذيبي»(لا تعزبي حالك عمّو يسلمو)، فأصررت، وسكبتُ الماء في الراحتَين اللتين أخذتا شكل دعاء يدويّ مرفوع إلى السماء، لحظة تجوّفتا بالأصابع العشر بتقنيّة تحضن الماء وتمنعه من التسلّل خارجهما. شكرني الرجل بُعيد الانتهاء من سكب الماء، وقال بما يفيد بأني الآن قد «كسبتُ أجراً». قرأتُ ذلك أيضاً في نبرة صوته وفي ملامحه التي ظنّت بأني فعلتُ ما فعلتُ لـ«أكسب». لـ«أربح». لـ«أفوز». أزعجني هذا. صمتُّ ولم أعرف كيف أشرح له أني لم أستغلّ تلبّكه في سكب الماء من أجل أي طراز من طُرَز «الأجور

والأثمان»، ولم يكن في نيّتي غير المساهمة في بث ضوء روح إنسانية خالصة في المحيط. لم أعرف كيف أشرح ذلك كلّه، فقد كان الرجل منشغلاً منصرفاً بكليّته مريداً الصلاة وغير مهيَّأ للإنصات. لم أنظر إليه على الإطلاق، حين كان يصلّي، لأني لم أشأ أن يشعر بأنه مراقَب في صلاته، وكنت حريصة على ألاّ يصدر عن الجريدة التي قرأتُ فيها للتو مقالات كادت تودي بقلبي، أيُّ صوت قد يخدش انغماس روحٍ في صلاتها. حين انتهى الرجل؛ ودّعني بأدب، وبوجه حريص على عدم النظر في وجهي، وذهب. قال الحارس الأمنيّ الشاب، بتقزّزٍ طفق على وجهه على حين غرة كما بدا لي، بعد لحظات من ذهاب المصلّي، وبعد لحظات أيضاً من تأكيده لـ«حياده» حيال الناس أجمعين: إنه من «حزب الله». قلتُ: وكيف عرفتَ؟ قال: من صلاته. ألم ترَي كيف صلّى؟ الحقيقة أني لم أنتبه كيف صلّى الرجل الذي لم أنظر إليه وهو يصلّي. لم تُثِر فيّ انزعاجاً، «معرفتي» الجديدة بأن مَن كان يصلّي للتو هنا هو من «حزب الله»، ولم يُشعرني ذلك بالندم حيال سكبِ ماء الوضوء في راحتَيه. هذا على الصعيد الإنساني المحض. أما على صُعد أخرى سياسية وعسكرية وقانونيّة، فالحزب المذكور، هو حتماً عدوّ الشعب السوري. عدوّ بلدي سوريا. لا ضوءَ ها هنا حيال الحزب الطائفيّ المجرم هذا، بل محض مواقف شجاعة ونضال حقيقيّ يجب أن يستمرّ في سبيل الحرية. في سبيل طردِ كلّ مجرم دخل بلدنا الغالي في غير وجه حق، وأخرجَنا منه بكل معنى خسيس من معاني الإخراج.

رسائل منّي إليّ

الغرفة

مذ ولجتُ وحدتَها، عانقتُها. خيِّل إليّ أني قتلتُ بالجمال قبحاً مزمناً لطالما سكنها، حين رتبتُها ثم رشقتُ حيطانها باللوحات، إذ وحده جمال الروح يحرّرنا من قبضة القبح. لكن، وقبل وداعها، كان لا بد من تجريدها من كل ما أحب وما لا أحب. كثيرٌ هو الماء الذي أهرقتُه لكي أضمن انجرافَ أدق تفاصيل أنفاسي وهواجسي وأحلامي ورؤاي. لم أشأ أن أترك أثراً منّي ورائي، قد يتناتشه من بَعدي القحط المتشقّق من فرط الإفلاس، ولا حتى القصاصات والقناني البلاستيكية «التافهة»!.

روحي العازفة عن التعاطي الانتهازي مع الأمكنة والأشياء، مثلما هي الحال مع الناس كل الناس، كانت خلال شهور تعيش لحظات الغرفة كأنها المصير السرمديّ. كالعادة، لم يرق لها أن يشعر المكان في حضورها بأنه مؤقت، أو بأنه مجرد جسر للعبور إلى مكان آخر، فللأمكنة أرواح لا بدّ من أن تحبّنا، إذا ما صادقتها أرواحُنا بصدق وعمق. حاولتُ ألا تكون الغرفة البقاعية التي سكنتها نحو ثلاثة شهور، مذ غادرتُ سوريا مُكرَهة إلى لبنان في 12أيار الماضي، جحيماً آخر، وأنياباً أخرى، وحصاراً آخر يمعن في نهش روح امرأة وغرفة

تتقاسمان الوحدة، مثلما تتقاسمان أكواناً غير مرئية صادقة، تنظر عميقاً من شبّاك الروح والحدس إلى ركام الكذب في الخارج، كل الخارج. ليس عندي يقين في شأن نجاح محاولتي عينها، لكني متيقّنة من أنه غالباً ما كانت الغرفة موصَدة خشية تسلُّل الكذب. وإنه لَفرق مذهل بين ألا يتركك الآخرون وحيداً حبّاً، وبين ألا يتركوك وحيداً وفي حالك، تسلّطاً ورغبة جارفة في قنص حريتك في أن تبقى وحيداً فريداً متفرداً، وخارجاً عن قطيع ترّهاتهم وقوادتهم وأمراضهم وتشوّهاتهم وانتهازيّاتهم.

نزلتُ من على سلّم ضيّق لغرفة كأنها فائقة للتو من حُلم، وغادرتُ تاركةً شبّاكها الوحيد وبابها الأكثر وحدة، مفتوحَين على مصاريع النَفَس والنفْس. ناجيتُ أنايَ. ناجيتُ الريحَ في سرّي أن «زَوبعي في الغرفة الفارغة من بَعدي حتى طيران آخر نَفَس»، فكل غريب ألجُه يستحقّ روحي والأنفاس، بينما لا تستهويني فكرة بقاء أنفاسي في غريبٍ أغادره، أنا التي أمسيتُ فاقدة الثقة بكل خارج.

الرسالة والهدف

بنبرة واثقة، قالت المرأة معدِّلةً «اعوجاجَ» كلامي، حين كنتُ أكلّمُني عن امتلاكي «رسالة» خاصة في الحياة، فظنّت أنّي أكلّمها:«قصدك عندك «هدف» في الحياة». قلتُ غير مبالية بالشروح: «نعم»، بينما سرحتُ في أعماقي في الحقول الواسعة للرسالة، بعدما كاد يخنقني ضيق الهدف وجشعه. فكّرتُ في أنّي أكره أولئك «الهدّافين» الذين يمقتون الرسالة، ويسخّفونها كلّما أحسّوا بالروح المشغولة إلى آخر مداها، وبعظَمة كونها المفتوح على المعنى إلى أقصاه، إذا كان يصحُّ أصلاً الحديثُ ها هنا عن أقصى. تُرى هل فكّر أولئك، وهم يمقتون ويسخّفون، في عظَمة الرسالة في كونها لا تريد شيئاً، مع أنها تريد كلَّ شيء؟! يحتقر «الهدّافون» الذين هم أصلاً موضع احتقار- مَن لا يعرفون من أي تؤكل الكتف، بل ربما يعرفون لكنهم يرفضون، مفضِّلين حمْلَ رسالةٍ على الأكتاف بدلاً من أكلِ هذه الأخيرة، و«الفجعنة».

الشاويش

هكذا يسمّونه أهل ذاك المخيّم السوري النائي في بقاعٍ لبنانيّ. يشيع الشاويش هذا، جوّاً من الرهبة في أرجاء المخيم. الجميع يأتمرون بأمره ويحسبون ألف حساب وحساب لغضبه. كيف لا يفعلون، وهو كما يقولون، مالك الأرض، وباني الخيام، وفاتح الدكّان؟! بيدَ أن الشاويش المتجهّم المتناغم والسواد في الثياب والملامح، هو في الآن عينه، مستثمِر القوة العضلية لسكان المخيم، قوة النساء والأطفال خصوصاً. هؤلاء يذهبون في الصباح الباكر، إلى حيث يزرعون البطاطا والخس وأنواعاً أخرى من الخضر، إلى حيث يعملون تحت سياط الجوع واليأس والعوز، قبل أن يعودوا إلى خيامهم مساء منهكين من فرط التعب والإجهاد. هو، أعني الشاويش، موصِد المدرسة التي في المخيَّم أيضاً. هاكم القصة باختصار:

المدرسة الموصَدة والقلب المفتوح

ذات سيرٍ طويل على الأقدام، مررتُ من جانب مخيم، فتوقفتُ عنده وسلّمتُ على نساء وأطفال كانوا يعبّئون الماء في قنانٍ من خزّان حديد يشرب منه سكان المخيم جميعهم. في سياق الحديث، قالوا إن في المخيم مدرسة مقفلة، تعلّم فيها أطفال المخيّم لبعض الوقت ثم أغلقتها المنظمة التي كانت قد فتحتها، ولم يسمّوا شيئاً؛ فانفجرت في بالي فكرةٌ (مجنونة): «شو رأيكن نفتحها من جديد أنا وإنتو؟ مستعدّة للتطوع ومن بكرا منبلّش». راقت الفكرة للأطفال وتحمّسوا لها، في حين رأى الكبار أن من الواجب انتظار الشاويش ريثما يأتي مساءً، إذ هو مَن يجب أن يدلي بدلوه في هذا الخصوص. انتظرتُ نحو أربع ساعات، إلى أن جاء الشاويش أخيراً. قدّمتُ إليه اقتراحيَ، فوافق، ثم أعطاني موعداً في اليوم التالي، بعدما وعدَني بأن يساعدني في تنظيف المدرسة وترتيبها(المدرسة عبارة عن خيمة أو «برّاكيّة» بلغة أهل المخيَّمات، مستطيلة الشكل، منقوش عليها رسومات ومنمنمات من الخارج، أما من الداخل فلم أرَها)، وبأن يجلب لوحاً وأقلاماً ودفاتر للأولاد. عدتُ إلى المخيَّم في اليوم التالي، حاملةً معي كتاباً لتعليم أحرف اللغة العربية. وصلتُ في الموعد المحدَّد لكن الشاويش لم يكن موجوداً، انتظرتُه ولم يأتِ. خلال فترة انتظارٍ دامت حوالي ساعة، كانت غالبية أطفال المخيم قد التفوا حولي. تبادلنا أطراف

الحديث، ومرحنا، وكانوا سعداء جداً لمجرد أننا سنكون معاً أنا وهم في المدرسة وسوف يتعلّمون، هم الذين، في معظمهم، لا يعرفون حتى الآن أحرف لغتهم الأم!(وحدها «الرسالة» تعلم حجم الألم الذي نزّ منّ قلبي المفتوح الباكي، جرّاء وجودي أمام أطفال في عمر التاسعة والعاشرة، بل أكثر أيضاً، لا يعرفون القراءة ولا الكتابة).

تأمّلت في عبارة مكتوبة على قماش إحدى الخيام من الخارج: «ونحن نحبّ الحياة إذا ما استطعنا إليها سبيلا»، شعرتُ بالغثيان والدوار. قلتُ بغضب للبعض من أهالي الأطفال:»كل العالم عبيتآمر عالشعب السوري. ما بدّن ولادنا يتعلّمو. بدّن يانا نضل جاهلين وأميين!». بعد هزِّ الرؤوس موافقةً، غادرتُ المخيَّم. سرتُ وحدي في طريق طويل خالٍ، تحاذيه أرضٌ نصفها محروق ونصفها أخضر، قاصدةً «الغرفة» البعيدة جداً عن المخيم، تلك التي كنتُ لا أخرج منها إلا عندما أفيض بما يتوق إلى التجلّي كزهرةٍ تخلع أوراقها البهيّة، كأفكارٍ تجاهد للتعرّف إلى ذاتها عبر مغادرة عتمتها. تأملتُني في نصفَي الأرض. سألتُني بصمت: أمقدَّر ومكتوب «في التقارير» أن أبقى في معمعة النفي والمنفى هذين؟! أريد فقط أن أكون موجودة في هذا العالم. أن أمنح حبّاً عظيماً كهذا! ترى لو كنتُ آتية برفقة كاميرات واستعراضات وسيارات، هل كانت المعاملة ستختلف؟ قطعَت المونولوغ، أصواتٌ علت ورائي فجأة. أصواتٌ كانت تصيح من بعيد:»آنسة. آنسة»،

التفتُّ، فرأيتُ نحو عشرةٍ من الأطفال المصابيح الذين غادرتُهم للتو، يلوحون من بعيد كموسيقى، راكضين طالبين منّي التوقف، توقفتُ وقد ذكّرني المشهد بمشهد آخر مشابه في سوريا، يوم احتجَّ طلابي مراراً لدى إدارة المدرسة، مريدين عودتي إليهم بعدما «قُطِعَت» عنوةً صلةُ التدريس الأصيلة بيني وبينهم. قال الأطفال المصابيح:»ارجعي لعنّا. بدنا تعلمينا». لم أتمالك نفسي، فسقطت دمعة على خدّي، بكت على إثرها إحدى الطفلات. أمعنتُ في نظرات الاحترام والمحبة المشعّة من عيونهم حيالي(غالباً ما يميّز الأطفال، جيداً بين كبيرٍ محترم وكبير رديء ساقط). أخرجتُ من حقيبتي قلمَ رصاص وسجّلتُ على ورقة صغيرة رقم هاتفي، كمَن يكتب قصيدةَ حياة، وطلبتُ إليهم أن يعطوه للشاويش، وقلتُ لهم إذا ما وافق؛ سآتي إليكم غداً صباحاً. تركتُ قلمي الرصاصي مع طفلة طلبت الاحتفاظ به ووعدَت بالمحافظة عليه، وغادرتُ المصابيح. بعد ساعات، اتّصل الشاويش، لا لكي يعتذر عن عدم إيفائه بوعدٍ قطعَه، ولا لكي يقول تعالي غداً لنفتحَ المدرسة، بل لكي يسأل: «مين دافشِك عليي؟»!

أخذٌ وعطاء

ثلاثة أشهر مرّت في بلدة «برالياس» بالبقاع اللبناني، أمضيتُ القسمَ الأعظم منها، في قراءة الكتب، وفي الكتابة، وزيارة المخيَّمات، وشراء الخضر والفاكهة من البسطات. خلافاً لكثيرين، كان ذاك البائع بالذات لطيفاً يتعاطى كما بدا لي، مع الخضر والفاكهة تعاطياً روحياً إلى جانب التعاطي التجاري التقليديّ المعروف. ذات شراء، حاورَني على طريقته في إتقان ثقافة الخضر والفاكهة، ومن خلال روحٍ متناغمة وأخضر النعناع وأحمر البندورة وأورانج الجزر وتماوجات الدرّاق؛ فزادَ مجّاناً على ما اشتريتُه. يحدث ألا تترك فينا العطاءات «الضخمة» أثراً يُذكر، ويحدث أيضاً أن تحفر الطفرات الصغيرة العفوية الصادقة عميقاً في الوجدان. الطفرات لا تتكرر، فكل تكرار اجترار، وكل اجترار خواء.

ذات شراءٍ آخر، قررتُ أن أحاورَ بائع البسطة نفسه على طريقتي هذه المرة. أهديتُه كتاباً تحت عنوان «نساء تحت النار»، فكان ذلك محض حوار رفيع بين ثقافتين. الأولى، ثقافة الحياة ملوَّنة بالخضر والفاكهة. والأخرى، ثقافة الكتب. أوليست هذه هي الحياة بوصفها أخذاً وعطاء؟

الوردة

لا يهمّني أيهما تكون أم الطفلة الوردة الحقيقية، من بين امرأتين قالت إحداهما في الزيارة الأولى للمخيم إنها أمها، ثم قالت امرأة أخرى حين عدتُ ثانية إلى المخيم نفسه إنها أمها. يهمّني أني، على رغم الظرف القاسي، وفيتُ بوعدٍ قطعتُه في زيارة أولى وقعَت بمحض الصدفة، لطفلة شدّني ذكاء عينيها ونظرتهما الثاقبة المندهشة، ونباهة عقلها وشغفه في المعرفة، وإنصاتها الممعن. عشتُ، بعد ذلك، قلقاً خاصاً على مرّ أيام، إذ راعني عدم الوفاء بوعدِ زيارةٍ ثانية مع هدية متواضعة القيمة المادية، للوردة التي في سنتها السابعة. طاردتني عيناها الذكيتان. أرعبتني فكرة أن أساهم في اللوثة. أن أشارك في دفعِ طفلةٍ إلى فقد الثقة في المحيط والعالم، جرّاء إنسانة التقتها يوماً، وعدَتها بأن تعود، ولم تعُد! حذارِ من خذلان الأطفال، فهم لا ينسون.

بائع العنب

توقّفتُ لأشتري عنباً من على عربةٍ يسوسها طفل لا يزيد عمره على العاشرة، كما تشي هيئته. من أيّ محافظة سوريّة أنت؟ سألتُه. نظرَ إليّ براحة وقال: من إدلب. سألتُه ثانية: عمتتعلّم؟ عمبتروح عالمدرسة؟ أجاب: «كنت روح بس بعدين سكّروها». كنّا نتجاذب أطراف الحديث هذا، بينما يزنُ لي الكمَّ الذي طلبتُه من العنب. إنْ هي سوى لحظات، حتى توقفت عند العربة في الجهة المقابلة لجهتي، سيارة فارهة، فيها سيدتان، ندهت إحداهما على الطفل من الشبّاك، وكان لم ينتهِ بعدُ من تلبية طلبي، فصار الطفل ينتقل بين جهتين، يروح إلى هناك، إلى حيث العالم الصلف المشلول القدمين، فيصير الطفل الرقيق رقيقاً من طرازٍ آخر، «يرقُّ» كثيراً هناك، قبل أن يخلع عباءة الغموض، ويعود إلى الحياة متفتِّحاً مجدَّداً، إلى جهتي، إلى حيث عالم يمشي على قدمين، فيعود كما كان، منطلقاً، مرحاً مرتاحاً، شاعراً بنفسه كشخص حر، يتكلّم بندّية مع شخص طبيعي، مثله يحسّ الحياة بالأصابع ويلمس الأرض بالقدمين. صدقُ الأطفال لا ريب فيه، وكل شيء يمكن أن يعبر إلى النسيان إلا تلك الروح العذبة في انجذابها إلى الروح. هكذا تجلّت الحرية والعبودية في ذاك المساء، في جهتين فصلت بينهما محض عربة عنب!

بائع المناديل

على قارعة الطريق في «براليـاس»، كان جالسـاً وإلى جانبـه ارتمى بنزق كيـسٌ يحـوي علبَ مناديل للبيـع. سـألتُ الجالـسَ اليافـع عـن مدينتـه، فقال إنه من حيّ الخالدية بحمص. سألته أيضاً: «بتعـرف تقـرأ وتكتـب؟». قـال:»إي بعرف أكتـب إسـمي، خالـد، تعلّمتـو منيـح وبعـرف إكتب إسم أبوي كمان». لستُ أدري كيف كان سيكون شعور غيري لـو أنـه كلّـم الطفـل نفسـه، وأمعـن في صوتـه الحزيـن وضعـف نبرتـه وكآبة هيئته، والهمّ الموجع الذي طالما اعتور «المشهد» في كليّته. لكني تمنّيت في تلك اللحظة أن تنزل الصواعق على كل مَن رآني يوماً أو سيراني ربما أبتسمُ في(صورة) ويظنّها سعادة. فالقطران، الوجع، النزف على هيئة ابتسام ليس بسعادة. (الصورة) ليست نحن. كل ما يُحنَّط، كل ما يؤبَّد، ويثبَّت، هو شلو، وخلو. هو محض كذب في كذب، وموت في موت. تمنّيتُ أيضاً أن تحلّ اللعنة القاتلة على كل مَن رآني يوماً أو سيراني ربما مع أحد، ويصدّق أنَّ لي أحداً! أنا التي أشاطر بائع المناديل «المتروك» هذا، تركَه. أنا التي لا أحد لي. لا شيء. (الصورة) ليست حقيقة. ليست الذات، كل ما تفعله هو أنها تثبّتكَ من الخارج في لحظة ما؛ فتحدِّدُكَ بحقارة إلى الأبد. تقول لك:»هذا هو أنت إلى الأبد». ثمة ما يثوي في الأعماق ولا تستطيع أن تتحاشاه. لا يمكن لقلبٍ وعقلٍ نقيَّين، تحاشيَ كارثة عدم تعلّم أطفال سوريا. إن المسألة هنا، كمَن يقابل الأبدية في كل لحظة.

انطلقي!

عند المدخل الرئيسي لذاك المخيّم، تطالعكِ لافتة، تدعوكِ الجمعيةُ المطلّة منها:»انطلقي». توقِد روحكِ الحماسة؛ فتدخلين، ثم فجأة ترين نفسكِ تجالسين نساءً مغبرّات بقساوة، لوحت شمسٌ لئيمة وجوههنّ، والأصابع شقَّقها التعب، مثلما منعَت أسنانٌ كثيرة يعوزها التصليح، وما من تصليحٍ ولا إصلاح، أيَّ انطلاقةٍ في الضحك الجميل والقهقهة، أو الابتسام الخفيف حتى! نساء متآكلات همّاً وشقاءً، وتعباً وعتباً. يشعرن بكل شيء عدا الأنوثة الحقة. يسهبن بمرارة في الحديث عن رجالهن الذين يرسلونهن على رغم أنوفهن، إلى ذاك الشغل المرهِق في الزراعة، ليبقوا هم جالسين في الخيام. أووف ليت دعايات الحداثة الكذّابة تكفّ عن نفسها قليلاً.

لماذا الرسائل منّي إليّ؟

لأن هذا العالم أصمّ. قلبه مطفأ. عيناه مقفلتان بالشمع الأحمر حتى إشعار آخر. عقله منظَّم ذكورياً ليحمي ذوي النفوذ وكبار القتلة من حوله.

هكذا صرتُ سائحة حقاً!

1

مذ صُلبَت كتاباتي الثائرة في أحد الفروع «الأَمنيّة العسكرية» في محافظة السويداء جنوب سوريا، في الأول من نيسان 2014، بدأ مسلسل اضطهادٍ معنويّ مدروس يطالني، وتهشيل من طرازٍ غرائبيّ عجائبيّ، فيه تعدٍّ «غامض» على حياتي الخاصة، ومطاردة حثيثة لي من مكان إلى مكان من مرتزقة ومجنَّدين لأذيّتي نفسيّاً ومحاولة تحطيم حياتي، معاقبةً لي على ما كتبتُه خلال سنواتٍ طوال من عمر الثورة السورية. ثمة امرأة حذّرتنا مرّة من أجهزة تنصّت قد تُوضَع في بيوت المعارضين للنظام عبر ضيوفٍ عملاء. ترى هل من سببٍ وجيه يجعل من كلام تلك المرأة غير وارد؟. أياً يكن، فمعاناتي هي جزء من مأساة شعب أراد الحرية، فاستُبيح.

قبل الاضطهاد المذكور كان ثمة اضطهاد من طراز خاص أيضاً، لحراكنا الثوري المدني السلمي في المحافظة نفسها. قبل هذا وذاك، ثمة ثلاث وثلاثون سنة من اضطهاد الأسَر والمجتمعات والمستأسدين، أي مذ جئتُ إلى سوريا مع أهلي وكنتُ في الرابعة، إلى أن استخرجتُ جواز سفرٍ للمرة الأولى في 2014.

تفاقمت مأساة «التهشيل» الممنهج إلى درجة كان يمضي شهران

متواصلان أحياناً لا أخرج خلالهما من البيت كأنّي في معتقَلٍ حقيقيّ، ناهيك بتوقّف حياتي الشخصية بالكامل، خلال سنوات طوال منذ اندلاع الثورة، على الأصعدة كافة، وخصوصاً الدراسة في الماجستير. وهكذا إلى أن وجدتُني أقول لشقيقي أيمن الذي أحترمه وأقدِّره عالياً، قبل أيام من مغادرتي سوريا في 12 أيار 2015: «يا جنون. يا انتحار. يا سفر». «اختيرَ» الأخير طبعاً، وغادرتُ هاربةً في المقام الأول، من تاريخٍ حافلٍ بالاضطهاد إلى لبنان حيث ولدتُ. هشلتُ، حتى أني لم أفطن إلى لبنانيّةِ أمي، كنتُ فقط مريدةً الخلاص، فدخلتُ لبنان من طريق حجزٍ فندقي(بعد إجراءات اتخذتْها الحكومة اللبنانية في ما يخصّ السوريين منذ مطلع 2015، وهي معلومة حسبما أظن). دخلتُ حاملةً جواز سفر مختوماً للمرة الأولى في حياتي بتأشيرة أولى، كُتب إلى جانب الختم: «ستة أيام»، وهي المدة التي من المفترض أن أقضيها في «الفندق» (أوَلستُ سائحة!).

بعد حصولي على إقامة نظامية على سبيل «المجامَلة»، كون لا يحقّ للمرأة التي هي أمي أن تمنحني جنسيتها، رحتُ أبحث عن «فندقي» المزعوم، ووجدتُه أخيراً. كان عبارة عن غرفة متواضعة في «برّ الياس» بالبقاع اللبناني، وبدلاً من ستة أيام، سكنتُه ثلاثة أشهر، تجرَّعت خلالها المرارة «السياحية» ومرارة استمرار «التهشيل» نفسه الذي طالما هشّلني من قبلُ من سوريا، إذ في لبنان، كما هو معلوم، ثمة

لـدى النظـام السـوري امتـدادات وتنسـيقات أيضـاً.

***

جئتُ إلى هذه البلاد هاربةً وعاشقة. قُتلت العاشقة فور وصولها من كل حدب وصوب، وظلّت الهاربة تهرب من كل شيء. غير أن العاشقة التي كلّما ظنّ الفريسيّون موتَها أو تيقّنوا، تتركهم يمعنون في الظنّ واليقين، ثم بغتة تقوم رافضة الموت. حقاً تقوم.

***

بعد مرور أكثر من أربعة أشهرٍ، كنتُ قد صرتُ خلالها في منطقةٍ اسمها «جلالا» في شتورة بلبنان، كدتُ أغرق في القهر جرّاء متابعتي «التشبيحية» من مكان إلى مكان، ومن كل الحوادث «المفتعَلة» المرافقة لها على سبيل الابتزاز الرخيص والاستفزاز اللاأخلاقي، والإذلال غير العارض. كدتُ أغرق في اليأس من كل شيء تقريباً، وخصوصاً من مسألة تقديم شيء مفيد عمليّاً وعلميّاً لأطفال سوريا اللاجئين في لبنان، ومن مسألة مواصلة دراستي الجامعية في الماجستير المكلفة ماليّاً حدّ العجز. كانت فكرة «السياحة» إياها، لا تزال تمخر عباب وجداني، فقلتُ حسناً، فلأمعن إذاً في الكذب اللئيم هذا، ولأبدأ باضطهاده، ولأكن «سائحة» فعلاً. ثم صرتُ سائحة حقاً، على «طريقتي»، وبصحبة أكواني الوحيدة. خبّأت العالم في جيبي،

وفصفصته متسلّية، وأنا سائرة كسحابةٍ من حلم، مدندنةً كلمات سيّد حجاب، التي غنّاها محمد منير، صديقي ورفيق دربي منذ الأيام الجامعية الأولى، بل قبل ذلك: «إيه يا بلاد يا غريبة عدوة ولا حبيبة/ في الليل تصحى عيونك ونجومك مش قريبة/ بلاد معرفش ناسها ولا عرفاني بيبانها/ وماليش شبر في أساسها ولا طوبة في حيطانها/ وخطاويّا غريبة/ عالم رايحة وجايّة وأنا مين وفين مكاني/ وإيه آخر الحكاية وإيه اللي رماني/ يا خطاويّا الغريبة».

***

ووجدتُني في غنى عن انتماءٍ قسريّ إلى «بعيدين» يسكنون الجبال ولا تسكنهم. لِمَ علينا أن ننتمي دوماً ولا يُنتمَى إلينا؟ وهل لأمثالي أصلاً، الانتماء! خصوصاً إلى أمٍّ تفاخر بابنٍ يتولّى منصباً ديبلوماسياً لدى إحدى الدول، كونه اتصل بعائلته لكي يطمئنّ بأن لا زبالة أمام بيته، عازماً على إرسال «بعثة» من عنده لكي تزيل الزبالة من أمام بيته فقط، ولتطمر الزبالة ما بقي من البلد «مثل رِجْلِه»!

لكن حين زرتُ القرية التي عشتُ فيها سني طفولتي الأولى، قبل أن أغادرها مع أهلي إلى سوريا، هالني حجم خداع الصور، فالصورة المحفورة في ذهني لدرج البيت الذي كنّا نسكنه يوم كنتُ في الثالثة، أي صورته كدرج طويل ومستقيم مخيف سقطتُ عنه مرّة وأصيب

جبيني، بدَّدتْها نهائياً صورةٌ أخرى للدرج نفسه، حين رأيتُه وأنا في السابعة والثلاثين من عمري، إذ بدا «الآن» متوسط الطول، وما من استقامة ولا خوف مرافق لها. كذا بالنسبة إلى المسافة بين البيت نفسه الذي كنا نسكنه، وبيت أولاد الجيران الذين كنا نذهب للعب عندهم، فقد ارتسمت في ذهني صورة للمسافة تلك، تجعلها طويلة جداً وشاقة ربما، لكني فوجئتُ حين زرتُ بيت الجيران أنفسهم «الآن»، بقصر المسافة، وبقرب بيت الجيران إياهم من البيت الذي كنا نسكنه. ترى أيٌّ من الصورتَين هي الحقيقة؟ صورة الصغيرة في تصوّرها العالم في أحجام ومسافات كبيرة وطويلة، أم صورة الكبيرة في تصوّرها العالم في أحجام ومسافات أصغر وأقصر؟ أعتقد أن كلتا الصورتين محقة من الموقع المشكَّلة فيه، وتنطوي على بعضٍ من «الحقيقة». أياً يكن، فإن «العودة» هنا، بعد مرور عقود طوال، هي عودة من شأنها ربما تبديد بعض من الأوهام، وقراءة الحياة وتفاصيلها مجدداً من منظور مختلف، كأن تاريخاً يُقرَأ من جديد. إلى بيت الجيران إياه، ذهبتُ ذات مرة لألعب عندهم كالعادة. لكن ما لم يكن «كالعادة»، هو قيام ابن الجيران ذي السبعة عشرة عاماً تقريباً آنذاك، بشدّي من يدي الطرية الصغيرة متحرّشاً. كنتُ آنئذ لا أتجاوز الثالثة، وحتى اللحظة لا أنسى منظر أصابعي المنقبضة بشدة، وهي تقاوم رافضةً لمسَ ما يُراد لمسه، شادّة نفسها إلى الخلف، بعيداً مما يرعبها ويثير تقززها وهولها. وإلى بيت الجيران نفسه، شاءت الأقدار

أن أعـود بعـد أربعـة وثلاثين عامـاً. كان الشـخص نفسـه في اسـتقبالي وبعـض مـن أفـراد عائلتـه، وكان شـعره قـد ابيـضّ والتجاعيـد شـقَّتْ طريقهـا في أنحـاء وجهـه كافـة. سـألتُه بنبرةٍ تتقصّـد اسـتفزاز ذاكرتـه، وبقصـد الفضـول المعـرفيّ حـول مـا إذا كان يتذكّـر أصـلاً: «إنـتْ فـلان؟ شـو متغيّر!». فلمعـت العينـان واهتزّ البؤبـؤ فيهمـا، ولاحـت على الـوجـه بأكملـه كلُّ أمـارات الاسـتذكار. إن هـي سـوى لحظـات، حتـى اختفـى الرجـل مـن الجلسـة ولـم يعـد.(قلـتُ سـابقاً على سـبيل التحذيـر، إن الأطفـال لا ينسـون، وثمـة مصلحـة في العـودة إلى دروب الحيـاة المألوفـة الأكثر قِدَماً، واستكشـافها دومـاً في دهاليـز الـرأس الأشـدّ عتمـة).

***

خـلال خمسـة أشـهر أمضيتُهـا في لبنـان، رحـتُ إلى «مفوضيـة الأمـم المتحـدة لشـؤون اللاجئـين، في زحلـة / البقـاع» مرّتـين. طلبـتُ خلالهـما «الحمايـة»، شـارحةً أسـباب «تهشـيلي» مـن سـوريا بوصفـي أولاً كاتبـة معارضـة للنظـام. الحـق أقـول إننـي كنـت مخطئـة في شـأن ذهابـي إلى مَـن لا يجيـد الاسـتماع ولا يهتـم بـل يهـزأ ويسـخر. قيـل لي إن الحكومـة اللبنانيـة لـم تعـد تمنـح لجـوءاً إلى أيّ سـوريّ. لكـن قبـل يومـين فقـط مـن حلـول موعـد سـفري إلى خـارج لبنـان، جـاءني اتصـال هاتفـي مـن

الجهة المذكورة، وقيل لي ما يفيد إن «الحكومة اللبنانية صارت تقبل لاجئين»!. لم يفاجئني الاتصال كثيراً، فأنا أعرف أني متابَعة، وأن الاتصال برمّته يمكن إدراجه ضمن اللعبة السياسية المخابراتية نفسها. إذ الموظفون في الجهة المذكورة نفسها يقولون إنهم يعملون وفق إملاءات حكومة يشتغلون على «أرضها».

لم أطرق باباً من أبواب «المسؤولين»، وكذا، لم أرَ ما يشدّ ويجذب في ندوات المتثاقفين، ومؤتمراتهم، وتوقيعاتهم المشفِقة وتوقّعاتهم الهستيرية. ورميتُ ألف سهمٍ وسهم في اتجاه ذاك «السلام» المشبوه، الأعرج، يوم سقط عليّ بغتة في أحد مراكز ركوب الثورة «الآن» في شتورة، وما أكثرها! سُئلتُ: «أتختارين الحياة؟ أتختارين السلام؟». قلتُ والسخط يملأني: «أنا على هذه الحال أصلاً وجذراً».

«مالي ومال» قوادة السياسة وقوّاديها! «مالي ومال» حملات «سلام» قوّادة تذهب إلى الضحية لتعطيه ورقة مسمّاة زوراً وبهتاناً «رسالة» تدعوها فيها إلى أن تقول: «أختارُ الحياة.أختارُ السلام»، ولا تذهب لتعطيها إلى القاتل الأكبر!. «مالي ومال» خمسينيّة منحازة على رغم «علمانيتها» الظاهريّة، إلى طائفتها الدينية في المعنى السياسويّ النفعيّ، لا إلى سوريا. متنقِّلة بنذالة بين معارضة وموالاة. ناشطة في مجال حقوق المرأة، لكنها لا تتورّع عن المشاركة(مع المشاركين في الجريمة النكراء) في ممارسة أبشع أشكال العنف النفسي حيال امرأة حرة،

ثم تذهب مصدّقةً نفسها إلى أنشطتها «النسويّة»، وإلى حيث تناقش العنف ضد النساء! «مالي ومال» كلّ التهويمات المتهافتة؟! يدعونني للانضمام. للانخراط. للانتماء. للتدجين للأدلجة للتسييس للتكتّل للتأطير للطوأفة السياسوية النفعية، وأراني عند كل دعوة أقول في سرّي: «مالي ومال» مشاريعكم الفذة!. قد يقع مثلي حين يكون حالة سمكة مثلاً، مستكينة للجة الماء وفلسفته، و«تفتقر» إلى «الشكّ الأمنيّ»، في فخّ تافه هنا أو في مصيدة تافهة هناك، لكن السمكة التي ماتت في غير الماء، لا تنفكّ تعود إليه لتحيا مجدداً. اجتمِعوا، ائتمِروا، ووقّعوا ما شئتم. ما شأني؟! كنتُ فقط أريد أن أساهم في تعليم الأطفال السوريين في المخيَّمات، فسُحِق هذا الهاجس سحقاً من أفرادٍ وجهات على السواء. ما كنتُ أعلم أن وظيفة هنا حتى لو كانت محض تطوّع، هي مثل ما يحدث في سوريا، تحتاج إلى هوْلٍ من المخالب والأنياب والكذب والتدليس والنهش والدسائس!

(سوءُ الفهم قدَر أمثالي، وهذا ليس مدعاة للأسف. يعنيني مَن يرون في قلوبهم لا في عيونهم. ويهمّني جداً مَن لم ينوجدوا بعدُ. وإنها لَشجاعة أن تأخذ موقفاً حيال ما لا يناسب ما تؤمن به وتحلم، حتى وأنت في أضعف حالاتك وأشدّها هشاشة. بالموقف، ربما يعرف الآخرون قيمة حضورك وأهميّته ولو بعد حين).

***

تبّاً لقَفرٍ لا يسألكَ الناس فيه إذا ما كنت محتاجاً إلى شيء، إلا أنهم يحرصون على سؤالك عن طائفتك. تباً لقفرٍ لا ينتبه الناس فيه إلى أي شيء فيك سوى إلى ترّهاتٍ من قبيل، دين وطائفة وزواج وما شابه ذلك من ضيق. تبّاً لقفرٍ حتى إلقاء تحية «صباح الخير» فيه يجب أن يخضع للغربلة والتصفية، وما من شيء يؤخذ فيه على محمل النيّة الحسنة.

أحكامٌ وتصوّرات كثيرة مسبقة حيال لبنان تحتاج إلى مراجعة نقدية منها: التبّولة. اعتناء كل اللبنانيات بالمظهر والموضة وعمليات التجميل وما شابه اعتناء دائماً وعاماً. معرفة كل اللبنانيين باللغات الأجنبية، بل «ضلوعهم» فيها. حبّهم المبالَغ فيه للحياة، وتجاوزهم الحرب الأهلية الطويلة التي طالما عانوا ويلاتها طوال خمسة عشر عاماً.

2

ظلّت فكرة «السياحة» إياها، تمخر عباب وجداني، فقلتُ حسناً، فلأمعن إذاً في الكذب اللئيم هذا، ولأبدأ باضطهاده، ولأكن «سائحة» فعلاً. فصرتُها حقاً. على «طريقتي» صرتُها، وحال «طريقتي» تكاد تكون الآتي: «متيقّناً متصبّراً متشمّراً... مستمطراً مستقصداً سيّاح/ متعزّزاً متحرّزاً متواضعاً... متبدّل الأشباح والأرواح». تلك أبياتٌ أحببتُ

قطفَها من قصيدة لأبي نصر السرّاج، في الجزء الثاني من ديوان الحلاّج، ونشر عبَقها في سطور حياتي وبينها.

«قرَّرتُ» أن أحوّل السياحة الكاذبة إلى حقيقة أرضيّة، لكن شِعرية. فصرتُ سائحة حقاً، وبدأتُ «رحلة القصيدة». صرتُ أقتطع من مصروف الطعام والشراب، المقتطَع أصلاً، لكي أؤمِّن أجرة المواصلات(المواصلات بلبنان بتهدّ الحيل، متل كل شي)، وبروحٍ شِعرية خالصة، أروح أجوبُ البلاد الصغيرة، ملتقطة صوراً تستحق أن تُصنَّف عالمياً كنوزاً نادرة قد ترفع لبنان من بلد المفارقات القبيحة إلى بلد المفارقات الجميلة. قلتُ بيني وبيني: «من واجبنا إنقاذ ما استطعنا من قلوبنا وأرواحنا الإنسانية، جرّاء جرائم يومية وقبح لا يكلّ من نفسه ولا يملّ. فلنأخذ هذه القلوب والأرواح في «رحلة» نكون فيها أشمون مثلاً، إله الشفاء عند الفينيقيين الذي طالما اشتُهر بشفاء الأطفال، فقد نشفي خلالها بعضاً من جروح طفولاتنا الغائرة، وننعش من جديد الجمال والحلم المسلوبَين، أو نصون ما بقي منهما على الأقل».

في سبيل ذلك، سلكتُ الدروب، وصعدتُ الجبال، وضربت الكؤوس في المعابد وطرقتُ بوّابات الأساطير، وتسكعتُ في الساحات الشهيرة (تحسّرت مرّة في «ساحة الشهداء» وسط بيروت. كانت الحسرة على وجه التحديد داخل ذاك المسجد العملاق الوثير «الحريري»، حين

نظرتُ في ثُرَيّا ضخمة معلقة في سقفٍ بالغ التعقيد في الزركشة. ثُريّا يكاد حجمها يبلغ حجم غرفة صغيرة. وقفتُ آنئذ أمام فخامتها، وفكرتُ في أن ما أُنفِقَ في سبيل ثُرَيّا «معلّقة» كهذه، كان من الممكن أن يؤمّن نحو ألف فرصة عمل أو أكثر لشبابٍ كثر تائقين للعمل. لكن يبدو أن حياتنا في هذه المجتمعات المنخورة، يجب أن تبقى «معلَّقة»).

على درب الأدب

مشيتُ، قاطعةً الجبال، سالكةً الدروب الترابية المنزلقة بصمت بين أشجار البلوط والصنوبر، مُريدةً «الوصول» إلى روح شعلةٍ أدبية عند تلك النقطة. وقد كانت واحدة من أرواحٍ شِعرية رؤيوية متأمِّلة هائمة على الدروب، منها «درب بسكنتا الأدبي». إنها روح الشاعر عبد الله غانم (1959-1895). من دون أدنى تخطيط مسبق، وجدتُني في ضيافة هذا الشاعر الشخصية. استقبلَني و«عندليبه» مرحِّباً، ثم شدَّني خلفه من يدي، وأدخلني إلى غرفة مكتبه، وراح يعرّفني إلى أغراضه الحميمة: قنديل. محبرة. طاولة نرد. قلم. سبحة. لعبة أصولها هندية. كرسي وطاولة خشبيان. بُزُق مصنوع من كُتبه مُهدى إلى روحه من الفنان ناصر مخول والتجمع الوطني للثقافة والبيئة والتراث. كم كان فرحاناً بهديّة تجلِّل مؤلفاته بالموسيقى العذبة، لَكأنّ الكلمات تتصيّر موسيقى على مهل، والموسيقى كلمات على أقلّ من مهل! ضممتُ ضيافته، كما لم تضم امرأة من قبلُ. مررتُ بأصابعي على أشيائه فاستحالت هواءً. ولمّا استحالت هواء، أخرجَني إلى فناء «داره» (مركزه الثقافي في بسكنتا)، وكصبيّ شقيّ تعمشقَ على صخرةٍ قال لي إنها مقعده الذي يحب الجلوس عليه أمام هيبة الجبال المشوقة النازلة استدارةً وحَضناً كقدَرٍ أخضر زيتيّ، حيث الإلهام والحرية والثمالة شِعراً. جلس واضعاً رِجلاً فوق رِجل، ممسكاً بخفة

عصاً رشيقة وملقياً إلى جانبه كُتيِّبَين، وراح، بعدما أشاح وجهه قليلاً صوب شجرة تين قريبة، يقول لي: «جئتُ هذا الوجود فرداً/ ولمَّا سرتُ عنه/ أمسيتُ كلَّ الوجودِ». ثم قال لي: «وتخبَّأتُ بالحياةِ من الموتِ/ فألفَيْتُها تهيئ نعشي/ وسواء عند الحياة/ مسيري ووقوفي/ فإنها بيَ تمشي.../ لم أكن ملجأً لنفسيَ من نفسي/ ففجري مطيّةٌ/ لغروبي./ أنا أَهوى الخلودَ/ لكنني أحفر قبري».

غادرتُ، وقد كنت لا أريد في ضيافة شاعرٍ سوى أن «أختبئ بالحياة من الموت». عانقَني بروحه، حمَّلني ما لم يكتب من قصائد وما لن يعرفه أحدٌ سواي راجياً من إله الحب الكوني مرافقتي وحمايتي. أكلتُ ثلاثة أكوازٍ من شجرة التين المهمَلة، لكن مشبعة بنظرات الشاعر، على رغم أنف تلك اللوحة «الوعظيّة»، وهي ترشق «السالكين» على «درب بسكنتا الأدبي» بالوصايا. منها: «عدم قطف الفاكهة دون إذن»!

شعرتُ بسعادةٍ لا توصَف حين مررتُ بعينيَّ وبكاميرا موبايلي المشترَى حديثاً، على صور أدباء رفيعين في ساحة قرية بسكنتا، شاعرةً بغبطة حيال رؤية الناس لشخصٍ يهتمّ بالأدباء لا الزعماء. «يسقط حكم الزعماء»، تلكم عبارةٌ قرأتُها مراراً على حائطِ أحد الأبنية في بيروت. أشدُّ على يد مَن كتبَها، وليسقط حُكم الزعماء فعلاً.

***

واصلتُ المسير على «درب بسكنتا الأدبي». غيرَ أنّي، وفي منتصف الطريق، تعثَّرت بما لا يمتّ إلى الأدب بصلة. أرعبَني عمق الفجوة واتساعها بين الأدب وقلة الأدب أو انعدامه! إذ جاءني أحدُهم وقد اتخذ هيئة «شبّيحٍ مُرسَل»، تدلّى من عنقه زائدٌ «عملاق» يشبه أي شيء عدا نبل المسيح ومحبته وتواضعه. سألني، فلم أشأ الإجابة عن أسئلة اعتبرتُها غشيمة. فثارت ثائرته، وصرخ: «إنتو شعب نجس»، رافعاً في وجهي سبابته، ولمّا نصحتُه بعدم التشبّه بأحد الزعماء، قال: «مش عاجبِك حسن نصر الله؟!». خطفَ موبايلي من يدي، وخريطة «درب بسكنتا الأدبي». أعاد إليّ الموبايل بعد برهةٍ من شعاعِ تهديدٍ انطلق كالسهم من عينيّ. أما الخريطة الكرتونية فرماها بعيداً بعدما جعلكَها. لوهلةٍ، توقفتُ وقد شعرت بالندم حيال مجيئي إلى هذه القرية. كلّمتُني مستهجنة: «يا لِعقد النقصِ لدى الذكوريين إذ ترفضهم امرأة! أكان يستحقّ رفضي التعرّف إليه كل هذا الهيجان؟!». ثم رأيتُني أستعيد الخريطة نافضةً عنها التراب، وأكملُ المسير دونما اكتراث. لطالما ألهمَني شاعرٌ قبل قليل أن الحياة هكذا: «مشيٌ في مسيرنا ووقوفنا. في هوى الخلود وحفر القبور».

وصلتُ إلى نقطة أخرى من نقاط «درب بسكنتا الأدبي». مررتُ بسورٍ خشبيّ يطوّق خصر بيتٍ ريفيّ. إنه بيت ميخائيل نعيمة. طرقتُ الباب، فأطلّت فتاة سمراء جميلة، تعمل لدى العائلة في البيت. قالت لي إن

«السيدة» نائمة، وإني لن أستطيع الدخول. كانت شمس الظهيرة على أشدّها وكنتُ أتصبّبُ عرَقاً، فرقّ قلب الفتاة لحالي، وطلبت منّي الانتظار لغرض معاودة الكَرَّة، لعلّ وعسى تسمح «السيدة» بأن أدخل غرفة مكتب الأديب العالمي الذي ليس مُلكاً لأحد. بيدَ أن الفتاة، تلك السيدة اللطيفة، خرجت ثانية وقد ازداد في عينيها بريق تعاطفٍ خجِل حيالي، لتقول لي إن «السيدة» لم تسمح بالدخول. ربّتُّ كتفها بما يفيد «لا عليكِ»، وقد كان الكلام قليلاً بيننا، بينما المعاني تكاد تحضر كلّها دفعة واحدة. صافحتُها باحترام. أسعدتْني سعادتها بهذا الاحترام، وقد كنتُ شبه متيقّنة من أنها تلك كانت المرة الأولى ربما في هذه البلاد، تكون فيها أمام أحد «ينحني» لها احتراماً وتنحني هي له «احتراماً» لا خوفاً، حتى لكأنّي نسيتُ أمر أديبنا العالمي وبيته ومكتبه وما عاد الموضوع برمّته يعنيني في شيء، لصالح نبضٍ إنسانيّ حيّ معيش ومشرق، لا ينفصل على الإطلاق عن دربٍ أدبيّ أسلكُه.

***

في موازاة «درب بسكنتا الأدبي»، كان في ودّي لو أني اهتديتُ إلى مغارة أدبيّة قريبة من بيروت، لطالما شغفتُ بلحظات عشقٍ من طراز رفيع نبضَتْ فيها. المغارة هي ذاك المعبد الصغير المحفور في قلب صخرة بيضاء يتقلّب «بين عشتروت والمسيح»، الذي طالما كان جبران خليل جبران يلتقي فيه محبوبته حسبما يروي في «الأجنحة المتكسرة».

يقول: «ومع أن هذا المعبد لا يبعد أكثر من نصف ميل عن طريق المركبات، فقد قلَّ من عرفه من محبّي الآثار والخرائب القديمة، فهو مثل أشياء كثيرة خطيرة في سوريا مختبئ وراء ستائر الإهمال، فكأن الإهمال قد أبقاه محجوباً عن عيون الأثريين ليجعله خلوة لنفوس المتعبين ومزاراً للمحبين المستوحشين». لَكم تشبه مغارة جبران مغارتي! ثمة رابطة وثيقة تجمع بين الحب والمغارة. كلاهما رحمٌ. عمق ورطوبة. صدى وأعجوبة. كنتُ في العشرين من عمري، حين كنتُ أهيم بلحظات مفعمة في مغارةٍ ربما لم يكتشف وجودها أحدٌ سوايَ وسواه، على الرغم من قربها من بيتٍ يُحكى أنه لرائد المسرح الغنائي العربي أبو خليل القبّاني(1903-1833)، في المزة بوسط دمشق. بيت عتيق مهجور تصفر فيه الريح. كان كلٌّ من نهر بردى وسكة القطار العتيقة يتنافسان في شأن المرور من أمام «مغارتنا» الصغيرة المائلة إلى الصفرة، وجمالها النادر المعزول. كنا نشعل الشموع هناك، وكانَ يحتفي على طريقته بسكربينتي ذات الكعب العالي المصنوعة من قش. كنتُ أحب انتعالها كثيراً وأستمتع بجمال قدمَيّ فيها. في المغارة، كنّا نهيم في فلسفتنا الوجودية الشعرية الجارفة.

وعلى درب المعابد وأساطير الأحلام

مشيتُ....

إلى هياكل بعلبك مضيتُ..

اشتريتُ لنفسي قبل أن أدخلها، علبةً صغيرة مشغولة باليد، لونها فيروزيّ ومزدانة بقطعِ مرايا صغيرة من شأنها عكس الروح كما خُيِّل إليَّ. أودعتُها خاتمي الذي أحب، وبرمشة حلم مضيتُ يملأني الشغف، إلى هياكل ألجها بخطوات فينوسيّة، يطوّق عنقي عقدٌ فيروزيّ تتخلله خيوط ذهبية. صعدتُ درَجاً رومانياً عريضاً عظيماً، وفي داخلي غصّة حيال تدمر، وأسئلة قلقة عن حال أنوثتها المهيبة الآن وهي بين أيدي أوباش ذكوريين تكفيريين ظلاميين.

على الفور، أهديتُ الأيام الستة التي دخلتُ لبنان على أساسها «سائحة»، إلى أعمدةٍ ستة، هي كل ما بقي من معبد جوبيتر على منصّته العملاقة العائدة إلى الفترة الهلنستية، الذي بُني على مراحل بدأت في عهد الأمبراطور أغسطس في مطلع القرن الميلادي الأول. وبين مخالب النسر رمز جوبتير و»الكدوسيوس» أو الصولجان رمز الإله عطارد(مركور المجنَّح)، المقبوض عليه بها، طيَّرتُ ألف فراشة ملوَّنة وفراشة. وضربتُ كؤوس الزمان مع باخوس في معبده الذي لا يزال ينبض خمراً منذ القرن الثاني الميلادي. حدّثني عن فسيفساء تجمعه وصديقه ساطير إله الغابة في جبيل في القرن الثاني – الثالث الميلادي. ثم ابتعدتُ عنه قليلاً، في اتجاه «معبدي» الفينوسيّ الدائري الأنثوي المحب المتعاون المرن المتّسع منذ القرن الثالث الميلادي.

ودّعتُ مدينة الشمس هيليوبولس، وقد استوطنتْ في منتصف

وجداني ملهِمة الفلسفة كاليوب بعينيها الذاهلتَين، يحيط بها سبعة حكماء، سقراط أحدهم، وتمارس هي «دائريّتها» بأصنص الحكمة. تلك فسيفساء لطالما زيّنت غرفة الطعام في ذاك الصرح الروماني الضخم، حيث احتُفِيَ بغذاء العقل والجسم في آنٍ واحد، بوصفهما ثنائية حاضرة في كلٍّ إنسانيّ موحَّد.

أما في معبد نيحا

فقد صعدتُ إلى أعلى البرج. دُرتُ مع الأدراج الضيقة صعوداً كما يدور الدرويش الراقص. كما يطوف الحجاج حول الكعبة في مشهد رمزيّ مذهل لالتفاف البشر جميعاً حول ذات واحدة إنسانية كونيّة تجمعهم. وكما يدوّر صانعُ أوانٍ فخّاريّة ماهر صلصالَه الطينيّ. أطللتُ من أعلى البرج على ساحة معبد هائل لون حجارته تعطي انطباعاً بأنه محروق، لكن حرقاً فنّياً يشبه تظليلَ رسمٍ على ورق بقلم رصاص، يوشِّح المعبد جمالاً وجلالاً. يُصعَد إلى منصة في أعلاه عبر درجات كثيرة متراصفة رفيعة ممتدة عرضانيّاً ومحاطة بأعمدة كأنها شموع.

خُيِّل إليّ أنّي أمدّ جديلة من أعلى البرج فتتسلّقها نقاشات لطالما دارت هنا في القرن الثاني الميلادي بين وجهاء المعبد وكهنته من جهة، وبين مهندسه من جهة أخرى. نقاشات أُدخِلَت على أساسها تعديلات على مشروع بناء المعبد. نزلتُ من «برجي» بعدئذ، ودخلتُ غرفة في إحدى زوايا المعبد، بجانب الدرج المفضي إلى منصة في الأعلى. دخلتُ الغرفة المظلمة بينما روحي وعينايَ تضيئان المسالك العتيقة، ثم خرجتُ وألقيتُ تحية الوداع على كاهن المعبد الواقف في الخارج، الصامت صمت زمنٍ سرمديّ في حجَر، وغادرتُ يعتورني خشوعٌ وهيبة أمام الزمان. وما أدرانا ما الزمان! خصوصاً حين يتسكّع في بطء بين السهَر والحلم. يتردد إذاك الصدى في الحلم، فيتعمّق الزمان.

وحلمتُني في قريةٍ ولا في الأحلام

منذ نحو سبعة آلاف سنة، أنشأت جماعات من الصيادين مستقراً لها على شاطئ المتوسط، فكان هذا المستقر بمثابة قرية بدائية متمثِّلة في أكواخٍ، يُحكى أن الكثير من الأدوات والأواني وتماثيل القرابين وُجدَت فيها. يُحكى أيضاً أن جبيل عُرفت في العصور القديمة باسم جُبلا أو جُبَل، وكان يطلق على المنطقة الساحلية التي تقوم فيها اسم كنعان، غير أن الإغريق في الألف الأول قبل الميلاد ومن بعدهم الرومان، أطلقوا على الساحل اسم فينيقيا، كما أطلقوا على المدينة اسم بيبلوس. ثمة تحليلات تقول إنهم اشتقوا التسمية الأخيرة هذه، من الكلمة التي كانت تعني في لغتهم نبتة «البردي» نظراً لارتباط جبيل بتجارة البردي المستورَد من مصر.

أهوى القلوب الثريّة، لذا أشحتُ عن مدينة جبيل الحديثة، تشدّني غريزة الحلم، لكي أكون في سويداء قلبها القديم، أي في تلك القرية الأثرية التي ولا في الأحلام. كقصيدة نثرٍ تناثرت حجارة القرية الأثرية الدائرية التي يغلب على جزء كبير منها طابع أنثويّ السحر والجمال والهدوء والأناقة والعمق والعبق. القرية الواقعة على مرتفَع، ارتفعت معها أحلامي. كل ما كان يعتور النفس والروح والعقل والوجدان من قهرٍ في منفايَ، تبدَّد في لحظاتٍ من ريش، جرّاء إثارة خارقة تلقّاها خيالي.

نبتَ لروحي جناحان، حين رأيتُ من بعيد بيتاً ولا في الأحلام، نائياً ووحيداً، يصلح لعاشقَين مغمورَين بشدّة وموغلَين في الرومنطيقية. يطلّ البيت على البحر، تجاوره نخلة وحيدة مثله، ومثله تطلّ على البحر، فتشفّ من خلال الثلاثة، البيت والنخلة والبحر، شاعرية المكان. سقف البيت «جَمَلون» قرميديّ، لون جدرانه هو لون سنابل القمح، وشبابيكه وأبوابه كلّها خشبية طولانية تحتاج فقط إلى نقرٍ خفيف بأصابع عاشقة حتى تستعيد روحها.

ودّعتُ الإله باخوس، وتركتُه يسرح في فسيفسائه ويمرح على مسرحٍ رومانيّ لم يبقَ منه سوى الثلث، يعود إلى سنة 218 للميلاد، ويقوم في الأساس بين بوابة المدينة و«المعبد الكبير» و«معبد الأنصاب»، ومشيتُ في هدوء والعصرات اللذيذة تعمر قلبي مع كل خطوة أمشيها في رواق رومانيّ يفضي إلى البيت إياه. تذكرتُ وأنا أمشي في الرواق صديقيَ الفيلسوف زينون، ثم، وبأقدام مسحورة صعدتُ درج البيت، وكنتُ أتقلّب بين الانسجام الهادئ والاندفاع الذي يبعث الحرارة في نفسي، وكلّما صعدتُ درجة أكون على مقربة أكثر من ولادة النور، وهكذا حتى وجدتُني أحيط طرفَي عينيَّ بيديَّ، وأنظر إلى داخل البيت من الخارج من أحد شبابيكه. إن هي سوى لحظات، حتى تفجّرت من البيت ينابيع ضوء. أرواح مشعّة مشرقة، راحت ترحّب بي كعاشقة حالمة وشغوفة. قالت لي: أهلاً وسهلاً بكِ في بيتكِ ومطرحكِ. أهلاً بكِ

في معبد «بعلة جُبَل» الذي استمرّت طقوس العبادة فيه منذ نحو 2700 ق.م. وها هو حضورك يحيي المعبد من جديد معيداً تكريم ربّة جبيل. وأنت ربّته الآن يا سيدة هذا البحر. وأنا كمثلِ جدولٍ رقراق كنتُ أصغي، وفرشتُ لاوعيي الذي هو بيتي الذي أحلم فيه، في أجمل زاويةٍ من زوايا المعبد تهتزّ فوقه بخفة ظلالٌ متسللة من شبّاك مطلّ على البحر، وراح المعبد يرتفع حول ينابيعي التي تصبّ أخيراً في «بحيرة مقدسة»، وانحشر العالم في كوخي الصغير، كأنّي أعيش في ماضي بحيرة العالم الأولى المقدسة ونبعه. وفاحت رائحة طحالب عالقة على المَراسي المنذورة، تلك التي أُودِعت المعابد لتأمين حماية إلهية للملاحة.

***

على النقيض من تفجّر ينابيع الضوء، في الجزء الأنثويّ من القرية؛ بُنيت تلك القلعة الصليبية عبر «الانتزاع»، حين سقطت جبيل بيد الصليبيين، حيث «انتزع» هؤلاء من أبنية العصور السابقة ما يساهم في بناء القلعة. وعلى النقيض من سعة الحلم ورحابته ولا محدوديته، و«استسلامه» الجسور للحياة وللطبيعة والبشر، والحب والكون؛ كان الجزء الذي يطبع القرية بصفاتٍ عسكرية، ربما يشي بالخوف المسكون في صميم القوة الظاهرية العنيفة للعسكر، يحصّن القلعة الصليبية بجدرانٍ سميكة، ويسوّرها بسور منيع،

تدعمه أبراج زاوية، وبرج في وسط الجدار الشمالي زيادة في تحصين المدخل، والأبراج المسنَّنة المجهَّزة بمرامٍ للسهام. أما بوابة القلعة فمحميّة بباب خشبيّ متحرّك أفقياً، وبمقاذف(شرفة فوق الجدران أو البوابات لرمي الحجارة أو صبّ السوائل الحارقة على المهاجمين). يسود هذا أيضاً على بناء يعود إلى الفترة الفارسية (330-550 ق.م)، حين وقعت جبيل تحت النفوذ الفارسي، وقد أطلق على البناء اسم القلعة بسبب ضخامة جدرانه ومتانة بنيانه وبسبب الحصانة التي يتمتع بها وهي كلّها عناصر تدل على الصفة العسكرية(في حضرة القلاع، وعندما تكون الخواطر في عنفوان جيشانها؛ غالباً ما يسود إحساسٌ بأننا نحن أنفسنا أدواتٌ للدمار أيضاً).

أنظرْ مثلاً إلى نص مكتوب على ناووس أحيرام الذي عُثر عليه في «المدافن الملكية»، نُحِتَ عليه عرش الملك أحيرام يحيط به تمثالان لأبي الهول مجنَّحان وأمامه موكب يقوده أحد الأعيان يتقدّمون نحوه حاملين إليه القرابين. وتبدو على جانبيه نساء يلطمن رؤوسهن ويمزقن ثيابهن حزناً على الملك الفقيد. النص حسبما يُروى، يمثّل أحد أطول النصوص المكتوبة بالأبجدية الفينيقية وأقدمها، يعود ربما إلى القرن العاشر قبل الميلاد. جاء فيه: «صنع هذا الناووس أتوبعل بن أحيرام ملك جبيل لأبيه أحيرام عندما وضع الأبجدية. وإذا صعد ملك من بين الملوك أو حاكم من بين الحكام أو قائد جيش

إلى جبيل وفتح هذا الناووس فليذبل صولجان ملكه وليقلب عرشه الملكي وليهرب السلام من جبيل. أما هو فلتمح كتابته «في وجه جبيل».

إلى جانب كون النص المذكور، جزءاً مهماً مما يمكن وصفه بثورة في مجال التدوين بالأبجدية الفينيقية لا سيما بعدما أخذها عنهم الإغريق ومن بعدهم الرومان. إذ كان كتَبَة جبيل قد توصلوا إلى اختراع نمط جديد من الكتابة من خلال اعتماد رمزٍ لكل صوت من الأصوات مستبعدين الأسلوب المقطعي والرموز المسمارية أو الهيروغليفية التقليدية. إلى جانب ذلك كلّه، فإن لغة الحرب واضحة في النص المذكور. كذا النزوع الذكوريّ الغريزيّ فيه، إلى السلطة والجاه والمُلك والغلبة، حتى أنّ لا ضير في أن «يهرب السلام» من البلاد إذا ما حاول أحدهم مسّ السلطة المحتكَرة أو مسّ شخوص ملوكيّة! وإذا ما نظرنا عميقاً في ما تفعله الآن الجيوش النظامية والرؤساء والملوك والحكّام والزعماء في بلادنا خراباً وتدميراً، لَربما اكتشفنا كم أن الزمان غير قادر على تعليم هؤلاء أي شيء! يبدو أن «طبيعة» الذكوريين السلطويين هي «هكذا» منذ غابر الأزمان(يعذّب قلبي التفكير في القوة المدمِّرة في كل جزء من بلادي).

***

بعد طقسٍ ولا أجمل عشتُه في ذاك البيت الذي ولا في الأحلام،

وقبل أن أزور القلاع المذكورة وما شابهها من آثار تغلب عليها الصفة العسكرية، كنتُ قد جلستُ تحت شجرة وارفة في أعلى تلة صغيرة. جلستُ بلا وزرٍ معرفيّ، وبالقرب منّي انتصبت أربعة أعمدة بقُبُلاتٍ تاجيّة. أخرجتُ مرآة روحي من حقيبة كوني، وتأملتُ الملَكات الهاجعة في أعماقي. استغرقتْني النشوة، فأودعتُ في غابات الحلم، سكةَ القطار، والبئر، وبقايا البيوت والقصور، والمشكاوات والتماثيل ونوافير الماء. ابتسمتُ لتماثيل أشخاص هزليين، في محاولتها إثارة الضحك لغرض إبعاد الأرواح الشريرة المسبِّبة للعقم. كنتُ أحلمُني في القرية الأثريّة كلّها في شخصية ذاكرة قديمة جداً. كنتُ في وحدتي العميقة، «أناضل» من خلال الحلم هذا للحفاظ على وجودي.

في متحف بيروت

تماثيل ومنحوتات ومجسَّمات ونواويس كثيرة، كنتُ قد رأيتُ مواقعَها الأصلية من قبلُ في بعلبك ونيحا وجبيل وغيرها، والحق أقول إن المتعة الحقيقية هي هناك، حيث تكون الروح متاخمة للروح في مكمنها.

كأرضٍ هيلينيّة تدور حول نفسها؛ درتُ وكاميرتي حول أسطورة أخيل المحفورة على ناووس من القرن الثاني الميلادي: أخيل يظهر وهو يلبس درعه بعدما سمع طبول الحرب تُقرع، يحيط به كلٌّ من فينيكس وأوليس وأغاممنون. درتُ: بريام راكعٌ أمام أخيل يقبّل يده بعدما دفع فدية استرجاع جثة ابنه هكتور. درتُ: أخيل يصغي إلى طبول الحرب. درتُ: أخيل يفكّ جثة هكتور عن العربة. درتُ أيضاً وأيضاً: الملك بريام راكعٌ أمام أخيل متوسِّلاً إياه تسليم جثة ابنه هكتور الذي تجرّه عربة. ثم، أسدان متقابلان على جهتَي كانتاروس. ثم، أخيل حزيناً أمام سرير صاحبه باتروكل. ثم إعدام سجين من طروادة أمام أخيل. في حميمية شديدة، استرجعتُ ليالٍ ثلجية عاصفة، في الشتاء الماضي وكنتُ لا أزال في سوريا. في تلك الليالي، قرأتُ «الإلياذة» أمام مدفأة الحطب في بيتي الريفيّ النائي.

في المتحف، مررتُ بين تماثيل أجسادٍ ممشوقة لنساءٍ جميلات بأثواب

رائعة منسابة برشاقة نحتيّة؛ قبل أن أدور ثانية حول ناووس الآلهة السكارى(صور، القرن الثاني الميلادي)، حيث آثرت امرأة التمدد أمام رجل تمدَّدَ خلفها في التيه، وأطفال من حولهما يلعبون ويعزفون ويمرحون ويلهون ويرقصون ويغنّون. طلبتُ من إله الحب ومن إله الروح(جبيل، القرن الثالث الميلادي) في فسيفساء قريبة من ناووس الآلهة السكارى، أن يحميا هؤلاء من الحسّاد، مستلهمةً في سبيل ذلك فسيفساء عائدة إلى العصر البيزنطي في الجناح المقابل، تقول: «الحسد شر كبير إنما حسنته/ أنه يضني أعين الحساد وقلوبهم».

درتُ أيضاً مقدِّسةً إلهة الصحة هايجيا التي من جبيل في القرن الثاني الميلادي، كأنّ التقديس لا يكون في غير الدوران أولاً، والصعود تالياً. أمعنتُ طويلاً في جرنٍ كبير أمامها، ففاض ماءً.

تذكرتُ الفراشات التي طالما طيّرتُها في معبد جوبيتر في بعلبك؛ حين نظرتُ في عينَي تمثال الإله مركور المتألمَتين المتأمّلتين المتطلّعتين إلى الأعلى بشوقِ الخلاص من قبضة مخالب النسر رمز جوبيتر.

ونظرتُ طويلاً في عيون باخوس وديونيسيوس، قبل أن أُصعقَ بوجوهنا الآن، مصمودة أمامي على رفوف في المتحف. وجوه مندهشة. مفجوعة. غاضبة. ساخطة، وعيون غائرة. محملقة. متوعِّدة. مؤنِّبة. قلقة. ملامح مكشِّرة وأخرى نائمة. صحْتُ بيني وبيني: إنها وجوهنا. إنها سوريا. حياتنا ومصائرنا!.

قلعة البحر

قلّما ركبتُ في حافلة لم تكن الأرزة في ثوبٍ أميركيّ متدلّية أسفل المرآة أمام السائق. ضقتُ ذرعاً، بأرزةٍ تجري إهانتها على نحو صفيق. اختنقتُ لاختناقها أخيراً، حين كنتُ ذاهبة إلى قلعة البحر في صيدا في الجنوب اللبناني، المدينة الساحلية التي يكتنف تاريخها القديم بعضٌ من غموضٍ غامض. كان سائق الحافلة، على جري العادة، يعلّق على المرآة أمامه الأرزة اللبنانية في ثوب أميركيّ. فقلتُ لأنبّه «المقاومين» على الطريق، إلى أنه لا يجوز لنجومٍ و«خطوطٍ حمراء» أن تحتلّ أخضر «أرزتنا». أزالها السائق فوراً، ما إن فتحتُ السيرة؛ فأعربتُ أن ما أطرحه على هيئة اعتراض هو مجرّد رأي شخصيّ لا مصادرة «حرّيات». كانت المسألة بالنسبة إليّ، على المستوى الداخلي العميق، رغبة في أن أعيش «رحلة القصيدة» من خلال إناطتها بكلّ راهنيّتها.

***

كنتُ كلّما سألتُ أحدهم عن معبدٍ، يجيبُ في هيئة استنكار، «قصدِك القلعة!». يبدو أنّ للقلعة في مجتمعاتنا المطبوعة ذكورياً مكانة خاصة، كونها ترتبط في الأذهان بالفحولة ربما أو بالقوة العسكرية النافذة. أياً يكن، لم يعنني في قلعة البحر في صيدا، كون

الصليبيين مثلاً هم الذين بنوها على إحدى الجُزر الصغيرة المواجهة للمرفأ الشمالي، أو كون بنائها يعود إلى القرن الثالث عشر الميلادي، أو غير ذلك من تفصيلات تاريخية. كنتُ فقط شغوفة في المشي الهادئ على جسرٍ حجريّ يصل القلعة بالشاطئ، أترنّم كأنّي حورية البحر على منصة عرضٍ تحيط بها من اليمين ومن الشمال عوالم فائقة الزرقة والتماوج، مسكونة بالأرجوان وبأنواع كثيرة من المحار منها «المُرّيق» بوصف هذه كلّها جوهر هذه المدينة.

غريبٌ أمر قلعة البحر هذه، كيف تنسيك الحرب، على الرغم من كونها قلعة! ألأنها في عرض البحر؟ ألأنّ الأضواء فيها، إذ تدخلها متجوّلاً متقافزاً، طالعاً نازلاً، جالساً واقفاً، متأمِّلاً حالماً ناسياً ومنتبهاً فائقاً، تحثك في حالاتها المتنوعة الخصبة على أخذ عوالمها على محمل الجد والدأب والخفاء، بوصفها فنّاً ضوئياً طبيعيّاً، قد يفضي إلى فلسفةِ ضوءٍ، شِعرية من طراز خاص؟

مع الضوء المتسلل، صارت أبراج القلعة قناديل. إن اصطدامك فجأة بشعاع ساطع مبهر متفجّر في نافذة تعلو درجاً هنا، أو في كوة في أعلى قنطرة هناك، من شأنه ربما أن يُدخل الضوء الرجراج هذا إلى الزوايا الغامضة فيك، وإن القلب المرهف ها هنا لا بد أن يتآلف وبصيص النور الذي يصارع الدياجير، فيتجلى المعنى الحقيقي لـ«الواضح الغامض». شبابيك ضوء تخاطب العين والروح دفعة واحدة في

وضوح وغموض منسكبَيْن من نافذة إلى عمقٍ مظلم، لا يُغامَر فيه بكل الضوء تارة. طوراً يُستنفَد فيه الضوء كلّه.

إن النظر عميقاً في البحر من خلف قضبان شباك في تلك القلعة الصغيرة الهائمة في عرضه، وتلك البوارق الغامضة، وكل هذا المشهد المتحيّر الجليّ في آنٍ واحد؛ يوقظ في النفس جلّ معاني الحرية النابعة من داخل الفرد الإنسانيّ الذي يمكنه أن يبقى حراً روحاً وعقلاً ووجداناً وتصوّراً، حتى لو كان جسداً خلف القضبان. أما مهارة اكتشاف الذات أمام البحر، فهذا مما يمكن اعتباره بمثابة «المشاهدة» لدى المتصوفة، إذ تضيق العبارة هنا حد الصمت.

صباح الفاكهة في حمّانا

كم فرحتْ شجرة التوت المتروكة حين التهمتُ من حبّاتها الحلوة. ما ألذّها! كل الأشجار المتروكة حكتْ لي في ذاك الصباح سرّاً، حين رحتُ آكل بنهم من ثمارها المهمَلة التي طالما ترفّع ناسها وأهلها عن قطفها. قالت: لا شيء يُفرِح الشجرَ أكثر من أن تثمر ويؤكل من ثمارها، والعكس يحزنها ويجعلها كئيبة، بل مفجوعة لا تدري ماذا تفعل وهي ترى بأمّ الأغصان والظلال كيف تذوي ثمارها وما من شفاه ولا لسان ولا أيادٍ. لستُ أدري إذا ما كانت الأشجار نفسها قد حكت يوماً للشاعر لامارتين السرّ نفسه حين زارها، حسبما روتْ، في ضيعتها حمّانا، لكن كل الأشجار قالت لي أنا السرّ نفسه: الكرز، التوت، الجوز. وكم استحقّ الكرز بالذات مداعبةَ أصابع الحشائش خصلات الشعر الكيرلي العالقة بها، وتقبيل الشوك للقدمين، فضلاً عن مغازلة العينين البرّاقتَين للحشائش والشوك. مع كل حبة كانت تطعمني إياها الأشجار في حب شديد، كانت تقول لي: إياكِ أن تشبعي. كُلي. كُلي بنهم. بنهم أكثر. أعرف أنك لن تستطيعي شراء ثماري حين تكون في السوق. هناك لا أعود أشعر بالفرح نفسه، وبالنشوة نفسها، حين يأكل البشر من ثماري. اسرحي وامرحي في البرية الجبلية هذه. تلذّذي وحدك مع هذه الجبال الصديقة الوحيدة مثلكِ. وأنا، أمام الليلكيّ والأصفر، ثم الأبيض والأخضر، في أعلى قمة من الغبطة،

من النشوة الروحية، لم يكن لي سوى الانحناء لكحليّ البحر البعيد القصيّ، وهو يشرقني شرقاً. إن أجمل الجمال، هو ذاك الذي يقطر من المُرّ والمرارة حقاً.

غادرتُ لبنان، بعدما أهديتُ مرآتي للطبيعة. لم أشأ تركها وحيدة هناك، ينظر فيها ذوو الأرواح الخشنة.

خامساً: من الصعق الثالث

هذه أنا، وكما أنا، من دون صياغة صناعية. أنا ابنة الغابة، والغابة أمي. أنا شجرة من أشجارها، وروحي مضمَّخة بالبنيّ والأخضر والأصفر والبنفسجيّ...وبالعطر الفوّاح. أنا شجرة من أشجار الغابة، ولي طبيعة التراب والأوراق المتساقطة تارة، الخضراء اليانعة على الأغصان طوراً. أنا وحدة المقعد الخالي. أنا ابنة الغابة، وعمري عمقها وصرختها الصامتة المدوية. هذه أنا، وكنت قد نحلتُ وشحبتُ قليلاً قبل أن يقذفني شبَقُ البحر صدَفةً حائرة هاشلة، على إحدى الجُزُر في أرض الفلاسفة، في بلاد اليونان «هيلاس». إذ في الواحد والعشرين من تشرين الأول 2015، وعند حوالي الساعة الخامسة مساء، كنتُ في عرض بحر إيجة، وكانت أمواج «بوزيدن» هادئة ساكنة. كنت مع زهاء سبعة وخمسين شخصاً، وكلنا أرواح يلفّها مصيرٌ بشريّ واحد متجسِّد في «بَلَم» منفوخ للتو بأنفاس لاهثة، لاجئة، هاربة، و(لست أدري ماذا أيضاً). نحو خمسين دقيقة توحّدتُ خلال بعضها مع سبعة وخمسين شخصاً، وتوحّدتُ أكثر خلال بعضها الآخر معي ومع القمر من فوقي، والبحر من تحتي، وكنتُ مذهولة مشدوهة مغمورة(ولست

أدري ماذا أيضاً)، ثمة ما تعجز لغتي عن التعبير عنه، أو ثمة ربما ما هو من طبيعة لا تسمح بالكلام، إنما فقط بالتأمّل وبالذهول. إنه الصمت المهيب الجلل في حضرة بحر هادىء هدوء محيّر ومريب وقتذاك وكاتم للأسرار اللامتناهية، وقمر مضيء ضاحك وراقص وفائض بالأسرار. إنها المغامرة الفذة، ولست أدري كيف! لم أكن خائفة. لم أكن أحداً. لم أكن شيئاً وقتذاك! كنت في حضرة لحظة مصيرية أبدية، صامتة، مثيرة، وخارقة.

مَن كانوا في التيه قالوا يوماً إن الأقدار من الممكن تحدّيها، لكن ليس من الممكن تغييرها، ويبدو أن ما كنتُ أحلم فيه وأفكر، كان بمثابة قدَر ليس من شأنه أن يتغيّر (ترى هل ما نفكر فيه تفكيراً مركزاً هادئاً ومتبصراً، يتحقق بالفعل، انبثاقاً، وعلى حين غرة، ولو بعد حين؟).

في سبيل زعزعة «كل شيء يسير على ما يرام»

على شاطئ بحر إيجة، في مدينة أزمير التركيّة، رميتُ حقيبة. كان يوتّرني صوت أحدهم، وهو يتقافز كالسَّعادين مكرِّراً: «كبّو الشّناتي». في الحقيقة، تسرّعتُ في رميها على الشاطئ، وأنا نادمة على ذلك، إذ كان ينبغي أن أودعها أعماق البحر لكي أضمن اختباءها كسرٍّ آخر موجِع بين أسراره الهائلة، لكن الندم لم يكن يوماً لينفع. كنتُ أتأمّلُ في الهجرة «غير الشرعية» تلك، في ذاك العالم الغريب الذي لا أفقهُه، وأسألني: ما الشرعيّ؟ أن يُدمَّر بلد، ويُستباح أهلوه، ويهجَّرون، من أجل أن يبقى رئيس «غير شرعي» على الكرسيّ؟ (هه). أن أبقى أموت في بطء، في تلك العزلة المتوحّشة، حين كنتُ أسمع أصوات القصف من محافظتي على محافظة درعا الحبيبة؟ كانت أصوات تهزّ من شدتها نافذتَي غرفتي، فأظلّ طوال الليل مذعورة باكية، إلى أن يهدّني التعب فأنام وأستيقظ متورِّمة العينين، أو أن أظلَّ أُقتَل يومياً بذاك القتل الرهيب في محيطٍ محافظ، وغِد، عنصريّ ولئيم، يمقت الحرية بالمطلق، ويكره المرأة الحرة الثائرة خصوصاً، ويفضّل الركون إلى «كل شيء يسير على ما يُرام»؟!.

في تلك المخاطَرة، بدا الموت والحياة سيّان بالنسبة إليّ، بعد «انقضاء» كل تلك السنوات من العنف والاضطهاد والقهر. سنوات هُجِّرتُ خلالها وهَجَرتُ كلَّ ما يمتُّ إلى الحياة الطبيعية بصلة. سيّان عندي،

وقتذاك، إنْ نجوتُ أو غرقتُ! بيدَ أني، ما كنتُ لأفعلَها، وأغامر بهذه الطريقة لو كان معي طفل مثلاً، هكذا أعتقد، فأنا لا أجازف في غير ما يخصّني، ولستُ حرة في ما يخصّ الأرواح الأخرى. أن أهرب، أنا الهاربة أصلاً والمدفوعة إلى الهرب دوماً، شيء، وأن أكون مهرِّبة شيء آخر. أن تكون مثقفاً «هارباً»، ولا أعني ها هنا، الهروب من المسؤولية الأخلاقية للمثقف مثلاً، يختلف عن أن تكون مثقفاً سمساراً ومهرِّباً. كنتُ الهاربة، و«كان» المثقف السمسار، ترى هل يستوي الهاربون والمهرِّبون؟ «أُجْلِستُ» بقسوة على حافة «البلم»، فجلستُ بهدوء الاضطرار الراضخ اليائس المتشلِّق المتشلِّع، لكن ما أعرفه فيّ جيداً عن هذا الهدوء الذي يكتم المرارة، هو أنه ما يلبث أن يعود وينفجر على هذه الهيئة أو تلك، ولو بعد حين. عندما رميتُ الحقيبة، كنتُ حريصة على الاحتفاظ بـ«اللاب توب». قصّته قصة هذا اللاب توب! ذي «الكيبورد» المعطَّلة و«الكيبورد» الخارجية التي تزيد على ثقله ثقلاً، الذي طالما حملتُه معي من سوريا إلى لبنان في يوم 12 أيار/مايو 2015، ثم إلى اسطنبول يوم 12 تشرين الأول/أكتوبر 2015، ثم إلى ستة بلاد قبل وصولي إلى ألمانيا، وهو برفقتي أنقّله كطفل، وينهكني ثقله. فقدتُه مرّة في مخيمٍ في صربيا، ورحتُ أصرخ: «أين البوليس، أريد كمبيوتري، فيه ما أحبّ وأهوى، فيه جزء مهم من ذاكرتي، من روحي». بعد جولة بحثٍ سريعة برفقة أحدهم، وُجدَ اللاب توب موضوعاً في حاوية. هذا اللاب توب، جلبه لي في الأصل، شقيقي الغالي

أيمن. بوهج القلب جلبَه ودمع «العين المغدورة». شُلَّت يد الغادر يا شقيقي. حملتُ معي اللاب توب، على رغم الإلحاح «المريب» للمثقف السمسار، في أن أتركه عنده مؤقتاً، ثم يرسله إليّ في ما بعدُ إلى البلد الذي سأصلُ إليه. وفي ما بعدُ، كان هذا اللاب توب، بمثابة الإنقاذ الوحيد لي وسط استنزافٍ مشترَك للذات والخصوصية اسمه «Camp»، حيث كنتُ أهرب، بين الفينة والأخرى، إلى ما فيه من كتبٍ إلكترونية، وأقرأ. قرأتُ جزءاً من كتاب «الحيوان» للجاحظ. قرأتُ رواية «برهان العسل» لسلوى النعيمي. قرأتُ رواية «الأخوة كارامازوف» لدستويفسكي، قرأتُ وقرأتُ.

اللاب توب» كان أيضاً صديقاً حميماً للأطفال

في أحد «الكامبات» في مدينة ديسبورغ في غرب ألمانيا، في شهر تشرين الثاني من العام الماضي، ولمّا رأيتُ أن هناك وقتاً يُهدر من دون فائدة بالنسبة إلى أطفال «الكامب»، رغبتُ في التطوّع بشيء قد يفيدهم، فبادرتُ إلى استئذان إدارة «الكامب» في شأن فتح غرفة تكون بمثابة قاعة أعلّمُ فيها الأطفال الأحرف الأبجدية باللغتين العربية والإنكليزية. وافقت الإدارة، وسمحت لي باستعمال إحدى غرف «الكامب» واستقبال الأطفال فيها. حدَّدتُ للأطفال ساعتين يومياً، من الساعة الحادية عشرة صباحاً وحتى الواحدة ظهراً، فاستشاطوا فرحاً وحماسة، وراحوا يلحّون على أهاليهم بالاستعجال مثلاً في إنهاء الفطور من أجل تحضير أنفسهم لـ«المدرسة»، كوني أوصيتهم بأن لا يأتوا إلى الصف/القاعة إلا بعدما يفطرون ويغتسلون ويغسلون أسنانهم، وألا يأتوا بلباس النوم، وألا ينتعلوا «الشحاطات». أدخلتُ إلى القاعة سبورة كبيرة كانت مهمَلة في الخارج، ورتَّبتُ طاولاتٍ مستطيلة الشكل على هيئة صندوق مفتوح ووضعتُ خلفها المقاعد، وبدأنا بالفعل. كان الأطفال عرباً وأكراداً وأفغاناً، علَّمتهم كلمتَي: «لا للاستبداد» و«لا للعنف» بلغات أربع، هي العربية والكردية والإنكليزية والألمانية. وراحوا يصرعون «الكامب» بفرح طفوليّ بهاتين الكلمتين، ويحدثون أهاليهم عن استمتاعهم بالدرس. وكنتُ أعمدُ إلى جعل

الأطفال الأكراد الذين يقدرون على التكلّم باللغة العربية، يترجمون ما أقوله في الصف/القاعة إلى زملائهم من الأكراد الذين لا يعرفون اللغة العربية، ما جعلَ أجواء التعاون تتعمّق، ويتعمّق كذلك شعور الثقة بين أطفالٍ يترجمون بمحبة لأطفال ينصتون ويصغون بمحبة. إضافة إلى ذلك، كانوا في القاعة، يرسمون ويلوّنون بما وزّعتُه عليهم من أوراق وأقلام تلوين، قدَّمها لي أحد موظفي الأمن الألمان في «الكامب».(أوجّه إليه هنا مع أثير هذه السطور جزيلَ الشكر. هذا الشخص يكاد يكون الوحيد الذي اهتم بمبادرتي، وليس لي أن أنساه بوصفه شخصاً نبيلاً قدّر مبادرتي على الرغم من ضآلتها).

***

بعد ثلاثة أيام، من افتتاح الصف/القاعة، وبعد أن كنت قد بدأت بتعليم الأطفال الأحرف الأبجدية باللغتين العربية والإنكليزية، جاء قرار فرز معظم الأطفال وذويهم إلى مكان آخر، ما أدّى إلى انتهاء مبادرتي إياها، فحزنتُ لذلك، وحزن الأطفال.(ربما كانت هناك أسباب أخرى لإنهاء المبادرة، لا أفقهها بدقة(؟).

***

لماذا كان اللاب توب بمثابة صديق حميم للأطفال؟ لأني كنتُ أحضره معي إلى الصف/القاعة، وأمنح الأطفال فرصة الاستمتاع بما انوجد

فيه، لحسن الحظ، من أغانٍ قد تناسبهم، إذ لم يكن يوجد إنترنت في «الكامب». أغانٍ من قبيل «طيري طيري يا عصفورة»، و«بنتي عندا لعبة / حلوي متل اللعبة» لماجدة الرومي، أو«طَلّو طَلّو الصيادي» لنصري شمس الدين. كنّا نستمع معاً إلى هذه الأغنيات ومعاً نصفّق ونردّد كلماتها بشغف واستمتاع ما بعده استمتاع. وكنت قد علّمتهم أيضاً إحدى الأغنيات التي أهديتُها في أحد نصوصي إلى أطفال درعا الذين كانوا بمثابة شرارة الثورة السورية: «يلا نعمّر يا أصحابي.. بيوت صغيري بوطنّا/ وبكرا منكبر يا أصحابي.. وكل الدنيا بتكبر معنا...إلخ»

***

كان الشيء الوحيد الجميل في معمعة الأسى والأسف وقتما كنتُ جالسة في عرض البحر على حافة «بلم» مع زهاء سبعة وخمسين شخصاً، حاضِنةً اللاب توب، وألبوم صور لأهلي وبيتي، وجملة وثائق، هو بحر إيجة في هدوئه الجلل آنئذ، المسكوب في رماديّ محيِّر، والقمر المضيء في خفّةٍ مستديرة. القمر الذي كنتُ أنظر إليه مليّاً، ويخطر لي: إذا ما انقلبَ هذا «الشيء المطاطي» الذي يسمّونه «بلم»، ومتُّ غرقاً، ثمة شخص واحد ربما، حول هذا العالم، سوف يبكيني ويتألم. كانت تمزّقني فكرة أن أصيبه بألم من هذا الطراز، فأعمدُ إلى نسفِ الخواطر كلّها من بالي، وأفكر في أنني «يجب» أن أعيش. أريد

أن أعيش. أريد أن أراني بعينيّ، لأني ما عدتُ أطيق عيون الآخرين. أريد أن أحيا معنايَ، لأني سئمتُ معاني الآخرين.

2

قبل تلك المغامرة التي ما كانت سوى محض مباغَتة لم يُحسب لها حساب، أمضيتُ في اسطنبول، نحو عشرة أيام. جئتُ إلى هذه المدينة الجميلة الضاجة بالحيوية، بطائرة وفي حوزتي قليل من مالٍ متحصّل لقاء مقالاتٍ نشرتُها في منابر ثقافية معروفة. كانت المرة الأولى في حياتي التي أركب فيها طائرة. مثلما كانت المرة الأولى في حياتي التي أفارق فيها سوريا يوم 12 أيار 2015، اليوم الذي سيبدأ معه مشوار «المرة الأولى» من كل شيء تقريباً. صار كل شيء بالنسبة إليّ هو «المرة الأولى» في ما عدا النزيف.

خلال الأيام التي أمضيتُها في اسطنبول، حضرتُ محاضرة تحت عنوان: «سوريا، حقوق الإنسان والحدود الراهنة لعالميتها»، للباحثة الأمريكية كيلي غروتكة، المختصة في التاريخ الثقافي الأوروبي، وهي أيضاً أستاذة في جامعة كورنل في نيويورك. تعمل كيلي حالياً على مسودة تتناول تدهور نظريات الحق الطبيعي وصعود المنطق في القرن التاسع عشر في كتاب: «الدستورانية، الشرعية والسلطة: خبرات القرن التاسع عشر (أكسفورد 2014)». كيلي منضمَّة أيضاً

إلى المعهد الدولي للقانون وحقوق الإنسان في جامعة هلنسكي في فنلندا وإلى أكاديمية هايدلبرغ للعلوم. المحاضَرة المذكورة، كان مركز «هامش» هو الذي نظّمها، وكان ياسين الحاج صالح، حاضراً حضوراً مشرقاً، متّقد الفكر والثقافة في جوٍّ لا تثقل عليه نزعاتٌ سياسية كيدية أو أيديولوجيّة أو دينية، فتتوافر للنظر العلمي والتفكير النقدي والفلسفي فرصة أكبر. كانت «المرة الأولى» التي ألتقي فيها هذا المفكر، بعدما التقيتُه مراراً من قبلُ في نتاجاته الفكرية والثقافية والمعرفية. رأيتُه مثالاً للمفكر الذي يصلُ برشاقة النظرَ بالعمل، والعمل بالنظر، كون الاهتداء إلى ماهيّة الثقافة لا يكون إلا بمباشرة فعل الثقافة، والفعل الفلسفيّ بوصفه تجربة حياة. ياسين الحاج صالح هو أيضاً بالنسبة إليّ قدوة في وصل الحرية بالأخلاق، والأخلاق بالحرية. عند المدخل الرئيسيّ للمكتبة التي نُظِّمت فيها المحاضرة المذكورة، ذكَّرني الأستاذ ياسين بمقال قديم لي، كان قد أيَّد في تعليق جميل عليه، فكرة ربطي للحرية بالأخلاق.

كانت تلك المحاضرة بالنسبة إليّ، بمثابة تجربة فكرية شيّقة، تحتشد باللّمحات الذكية والملاحظات المتعمِّقة. حين انتهت الباحثة غروتكة من قراءة المحاضرة، فُسِح المجال لكي تتدفّق الأسئلة. فرفعتُ يدي في خجلٍ وارتباك، مُريدةً المشاركة عبْر طرح سؤال، مؤمنةً في أنّ بالأسئلة نتعلّم بالفعل تلمَذة لا نهائية. كانت «المرة الأولى» في حياتي

التي أتكلّم فيها من خلال مايكروفون، وأجري مداخلة في محاضَرة، وكان الأستاذ ياسين، هو مَن تولّى مهمّة تنقيل المايكروفون بين السائلين من الحاضرين. ما أن أعطاني المايكروفون باهتمام لائق بالمفكرين والفلاسفة، حتى بدأ خجلي يتلاشى، وما أن بدأتُ بطرح سؤالي، وسمعتُ من الخلف «نحنحة» كانت تشي بالنسبة إليّ، بالاهتمام بالسؤال والتفاعل معه من قبل الأستاذ ياسين، حتى زال خجلي. هكذا هم أصحاب العقول المستقلة الحقيقيون، يتسامون في ربوع التفكير، ويتصدّون من حيث يدرون أو لا يدرون، لمصادر الإسفاف، وكل ما يمكن أن يهوي بقيمة الإنسان، فيشعر الناس في حضورهم بأنه مهما تعاظمت خسّة العالم ودناءته، وتعاظم مع الخسة والدناءة شعورٌ عميق بالعدم، تبقى هناك أفكار ومشاعر متلألئة وضمائر مضيئة، وقلوب ناصعة تنحت في صخر هذا العدم، فاتحةً كوّة للهواء والضوء رغم أنفه.

3

بدأتُ مداخلتي، بإعلاني عن رغبة، في ربط نقاشٍ ثقافي بواقعٍ سياسي مباشر، تحديداً بالمأساة السورية المستمرّة منذ أعوام، وكانت الباحثة غروتكة نفسها قد تطرّقت في سياق محاضرتها إلى الفيلسوف الألماني

ماكس فيبر، فرأيتُ أنَّ من المهم مثلاً، قراءة مفهوم «الكاريزما» عند هذا الفيلسوف الذي كان أول مَن أعطى هذا المصطلح، صبغة سياسية، عندما استخدمَه للإشارة إلى القدرة التي يتمتع بها شخص معيّن للتأثير في الآخرين إلى الحد الذي يجعله في مركز قوة بالنسبة إليهم، بحيث يمنحه الواقعون تحت تأثيره حقوقاً تسلّطية عليهم كنتيجة لقدرته التأثيرية. رأيتُ أن من المهم قراءة مفهوم «الكاريزما» هذا، في «ضوء» الواقع السوري، الذي بات، في معنى ما، واقعاً عالمياً، لأن المفاهيم في ذاتها لا تكفي، ولا بدّ من استخدامها في تفسير مشكلات ملموسة، فيتساوق النظر العقليّ بالنظر العينيّ، عبْر أدواتٍ معرفية ومنهجية قريبة من حرارة الحياة الواقعية للسوريات والسوريين. سألتُ الباحثة وقد أبدتْ إعجاباً بالسؤال وناقشته سلباً وإيجاباً: إلى أي مدى يمكن اعتبار أن السياسة العالمية حيال سوريا هي بمثابة تنافس ذكوري «كاريزماتي»؟ مثلاً: الأسد- البغدادي- الجولاني، أوباما، بوتين، خامنئي، نتنياهو، نصرالله، سليماني... والقائمة تطول، حتى أن بعض قادة الفصائل المحسوبة على الثورة، وبعض القادة في الأجسام السياسية السورية المعارضة، هم أيضاً ليسوا خارج هذا الصراع الذكوري «الكاريزماتيّ» وإن كان الصراع هنا أقل قسوة وخطورة ربما. ينبغي العلم هنا أيضاً، أن الروح الثورية تختلف عن التوق إلى الجديد ومن ثم المحافظة على هذا الجديد، كما أن التحرّر يختلف عن الحرية. إن الأسماء الآنف ذكرها وغيرها،

هي أسماء لشخوصٍ تتصارع ذكورياً، وكل شخصية تحاول إثبات نفسها بوصفها «كاريزما» لها جاذبية مقنعة أو سحر يُلهم التفاني في المتلقين، ثم تتواطأ في ما بينها حين تتلاقى المصالح، فهُم أصلاً قادة تقودهم المصلحة، من دون أن يتمكن أيٌّ منهم من السيطرة على مجرى الأحداث. هؤلاء الزعماء يفضّلون أن يظهروا في مظهر مهذَّب، فيسرفون في الحديث عن السلام، عن القانون، عن حقوق الإنسان، عن الديمقراطية، عن حق الشعوب في تقرير مصائرها، عن المقاومة، عن الدين والإيمان الحقيقييْن، عن محاربة الإرهاب، ويبدون في كل مرّة كأنهم يطوّرون أسلوباً «كاريزماتياً»، ثم يمعنون في سياسة الاستقواء، واستعراض القوة والطاقة التدميريّة، وعلى مَن؟ على شعب أعزل، جلّ ما أراده هو الحرية والانعتاق. يمعنون في حروب تدور رحاها على المنابر الإعلامية، وتُترجَم على الأرض السورية حروباً ساخنة طاحنة ضد الشعب السوري وضد الثورة السورية بوصفها ثورة حرية وأفق. هؤلاء لا يَبدون أنهم يدافعون عن قضايا، بقدر ما يستشرسون في الدفاع عن «كاريزما» شخصية، ورغبة في الهيبة. هم عبيد لهذه «الكاريزما» التي باتت كأنها سياسة عالمية! وكم يثير حفيظتي شخصيّاً اصطلاحُ «تجفيف منابع الإرهاب»، إذ من شأن الشِّعر مثلاً أن «ينبع» وكل جميل وخلاّق، ولا شأن للنبع، للماء، بالإرهاب، لا بل هذا الأخير يقتل الينابيع كلّها، وحين يسود خطاب «تجفيف منابع الإرهاب»، يصير كأنه «زلّة لسان» تشي

بذهنيةٍ متواطئة تريد مساندة الإرهاب في اغتيال الماء بوصفه سائلَ حياة، وقتل الينابيع، قتلاً مضاعَفاً. إنه ضعف حاسم في الداخل، يُترجم عنفاً شرساً في الخارج. مُنازَلةٌ «كاريزماتية» من شأنها شرذمة العالم وتخريبه. هكذا، يصبح ممكناً أكثر ربما تفسير ظهور مجرم حرب كمِثل بوتين، في مظهرٍ «كاريزماتي»، مشيداً بحفلٍ موسيقيّ على سبيل المثال. حفلٌ أقامته فرقة أوركسترا مسرحِ «مارينسكي» الروسية الشهيرة في مدينة تدمر، معتبراً إياه «تخليداً لجميع ضحايا الإرهاب»!(هه) أو هكذا أيضاً يصبح ممكناً ربما تفسير حرص أوباما على الظهور بوصفه صانع سلام (هه)! جاهلاً أو متجاهلاً أنَّ جلَّ مواقفه حيال سوريا تحديداً، يسجّلها «التاريخ الحر»، بوصفه رجلَ حرب بامتياز!

4

«إن التفلسف يتمثل في أن ننظر إلى الكون وكأن لا شيء فيه يسير على ما يرام» (فلاديمير يانكليفيتش).

الكون بالنسبة إلى ما يُناقَش هنا، هو «العالم» أو «الآخر». أنتجت الثورة السورية، خلال بضع سنوات، من الأحداث الجسام، ما يمكن أن تنتجه البشرية خلال عقود طويلة! ويمكن القول إنها

مرحلة من التاريخ عاد فيها إعلان حقوق الإنسان إلى الوراء. أن ننظر إلى هذا العالم «كأن لا شيء فيه يسير على ما يرام»، معناه أن ننظر إليه بوصفه مصدر عدم ثقة وقلق مبعثه انكشاف تهافت حقوق الإنسان فيه، بعد كل ما جرى ولا يزال في سوريا، من قتل ودمار ومجازر وجوع واعتقال وتشرّد، على مرأى من هذا «العالم» أو «الآخر» الذي يتكشّف لنا في تجربتنا على أنحاء شتّى، حتى أنه صار ينبغي علينا أن نتجنّب الإضفاء على ميدان «حقوق الإنسان» وقاراً لا يستحقّه، خصوصاً بعدما صار ما ينبغي ألا يكون مألوفاً في أي حال من الأحوال، مألوفاً(القتل اليومي صار مألوفاً!). إن «حقوق الإنسان» التي لم تعد مُسنَدة بالمبادئ الثابتة والآراء الرصينة، يمكن القول إنها انحلّت في ظلّ الثورة السورية، أو إنها في حال خسرانٍ متواصل.

كان «وقف الأعمال القتالية» على سبيل المثال لا الحصر، الذي بدأ بتاريخ 27شباط/فبراير الماضي، والذي جرى خرقُه مراراً وتكراراً من قبَل نظام الأسد، وعودة التظاهرات المدنية السلمية، وعودة الشعارات الوطنية الثورية نفسها، يؤكّد أن نهاية الحرب تعني الثورة مجدَّداً، مثلما كانت الثورة سابقة على الحرب. الثورة إذن من قبلُ ومن بعدُ، فهي المسار الذي «قدَره» ربما أن يظلّ يكافح من أجل تحويل المألوف والمستساغ والموافَق عليه بوصفه أمراً واقعاً، إلى

إشكالٍ مزلـزِل. مثلما الثـورة أيضـاً، تجربـة مقـدرة الإنسـان لكي يبـدأ من جديد، في شيء جديد دائماً. في ظلّ روح عالمية يتنازعها عنصران، أحدهما عقليّ منظَّم، والآخر غريـزيّ أهـوج، ينبغي للثقافـة وللتفكير النقديّ الفلسـفيّ، الانحيـاز إلى الأول دومـاً، وأن يبقيـا على علاقـة مباشـرة وفعلية بالواقـع وبالأشـياء، من أجل التقويض المستمر لما بات «مألوفـاً» و«اعتيادياً» و«مُستسـاغاً» و«موافَقـاً عليـه، كأن كل شيء يسير على ما يرام»، لغـرض تحويله أيضـاً إلى إشـكالٍ مزلـزلٍ ومزعـزعٍ.

أثينا

قالت إسبازيا يوماً: «تبرهن بلادُنا على أمومتها بأن تنتج لأبنائها القمح والشعير». أوليس في هذا القول حنكة سياسية، وحكمة في إبراز المعنى الحقيقي للسلطة؟ بلى. لقد كانت إسبازيا تلقي محاضرات يستمع إليها النساء والرجال على السواء، من بينهم زوجها بركليز رائد الديموقراطية الأثينية، وسقراط الذي كان يدهَش بفصاحتها، ويقول إنها هي التي علّمته فنّ البيان، ويعزو إليها الفضل في إنشاء «الخطاب الجنائزي»، وهو مرثية ألقاها بركليز بعد الخسائر الأولى في «حرب البلبونيز 432 ق.م»، بوصفه خطاب تأبين لشهداء سقطوا في المعركة. كان لإسبازيا باعتبارها مثقفة لامعة، ومفكرة سياسية مؤثرة في «دولة المدينة»، شأن مهم في الحياة الأثينية، وما لبثت أن أصبحت ملكة أثينا غير المتوَّجة، تأخذ عنها نساء المدينة مُثُل الحرية العقلية والأخلاقية التي يتطلّعن إليها. (يمكن التعرّف أكثر إلى فكر إسبازيا، وغيرها من النساء المتفلسفات المفكّرات، من خلال العودة إلى كتاب»نساء فلاسفة»مثلاً، لإمام عبد الفتاح إمام).

***

ساقتني "الأقدار المهيبة" إلى أرض الفلاسفة، إلى بلاد اليونان "هيلاس"، تلك التي ترفع شعار «الحرية أو الموت»، تحديداً إلى أثينا،

المدينة الجذّابة الساحرة التي لم أشأ مغادرتها قبل أن أرى بأمّ العين ما رأيته من قبلُ بأمّ القراءة الطويلة والعميقة، والعقل والحدس. رحتُ إلى وسط أثينا، وصعدتُ إلى هضبة صخرية عالية، إلى حيث يقبع معبد الأكروبوليس الذي أنشأه بركليز. هناك، تأمّلت عميقاً في جوهر هذه المدينة العالية حقاً (كلمة Acropolis، هي كلمة يونانية قديمة تعني المدينة العالية). هناك أيضاً، كانت إسبازيا حاضرة، في معنى ما، في ذهني. كنتُ أفكّر في صاحبة العقل اللمّاح تلك، المفكرة في موضوعات سياسية تهمّ الشعب، التي طالما أثّرت في الناس أيما تأثير، وقد هالني ذات قراءة: أنّه بعد مرور قرون طويلة، صدر في عام 1952م، قانون «يعطي» المرأة حق الانتخاب، وشَغْل مناصب سياسية في اليونان! أعتقد أنها مفارقة تاريخية مؤسفة.

***

وأعتقد أيضاً أنه ينبغي «تمكين» معرقِل المرأة سياسياً، أعني ذاك الذي يخشى المرأة ويعتبرها مصدر تهديد سياسي وعقلي، لا شريكاً سياسياً وعقلياً. غالباً ما تكشف «اللحظة الوعرة» مثلاً، أي تلك التي يكون الوجود الإنساني فيها مهدَّداً، الحقيقي من الزائف، المدنيّ من الوحشي، والسياسي من الحربيّ، وما بين هذه الثنائيات من ثنائيات وتفاصيل.

في العودة إلى «الأقدار المهيبة»: كنتُ قد خضتُ تجربة فذّة، خلال «مغامرة» لجوءٍ طويلة وشاقة إلى ألمانيا. ال»مغامرة» التي يسمّونها «رحلة الموت»، وأسمّيها «رحلة الكشف الصادم» في المعنيَيْن الإيجابي والسلبي للصدمة. لاحظتُ، خلال «الرحلة المغامِرة» تلك، وتحديداً في اللحظات العصيبة والمتعبة حدّ الوجع، إلى أي مدى تكون المرأة كائناً صبوراً متحمّلاً، رقيقاً، هادئاً، معطاء، حكيماً، وسياسياً مناوِراً متحايلاً على الظروف في «اللحظة الوعرة»، وكم يكون الرجال في اللحظة نفسها، في غالبيتهم، قلقين، بربريين، نافدي الصبر، أنانيين، ومفتقرين حقيقة للسياسة وللتعاطي المرن مع الواقع نفسه.

المرأة المتَّهَمة دوماً بأنها كثيرة الكلام و»الثرثرة»، وكثيرة الشكوى والتذمّر و»النقّ»: غالباً ما كانت في «رحلة اللجوء» تلك، صامتة صمتاً حكيماً متأنياً وصبوراً رحيماً، تخترع حلولاً للمشاكل المندلعة واحدة في إثر أخرى، بدلاً من الشكوى والتذمّر(لقد تعمّق في تلك الرحلة جانب مهم أعرفه فيّ منذ زمن بعيد، ألا وهو الصبر، وصبري بعيد المدى).

في عرض البحر، حين كنّا في «بَلَم»، وكانت تلفّنا جميعاً لحظات مصيريّة، كانت النساء صامتات، هادئات، متنبّهات إلى ضرورة التراحم والتقارب الودود والتآلف وحَضْن الأطفال، في تلك اللحظات. لكن على النقيض من ذلك، كانت أصوات متصارعة ذكورية تعلو في

كل آن، وكان ثمة تنافس ذكوري من طبيعة سلطويّة توجيهيّة حول كل شيء تقريباً، وكلٌّ يريد أن يقود، ويثبت أنه الأقوى والأكثر صواباً في ما يعتقد ويوجِّه. كانوا منشغلين في تنافس ذكوري، منصرفين بذلك عن لحظة وجودية مصيرية فذة، هي إما حياة وإما موت. ناهيك بانصرافهم عن جلال البحر وهيبة القمر وقتذاك. في معنى ما، ربما يشبه «البلم» هنا وما جرى في داخله، ما يجري في داخل الأجسام السياسية، خصوصاً تلك التي تشكَّلت بعد اندلاع الثورة السورية عام2011م.

قطعتُ مع «الراحلين اللاجئين» سبع بلاد، قبل أن نصل إلى ألمانيا، مشياً على الأقدام تارة، ركوباً في وسائل نقل مختلفة طوراً. ليلاً نهاراً. نمنا في العراء، وفي الخيام، وقاسينا الهلاك والبرد والجوع أحياناً، ومرارة الوقوف طويلاً والانتظار أحياناً أخرى. لم أرَ خلال "رحلة اللجوء" الشاقة والمثيرة تلك امرأتين تتقاتلان، لكنّي رأيت مشاهد عدة، تقاتلَ خلالها رجال مع بعضهم بعضاً. قد يكون مهمّاً أن أورد، على سبيل المثال، مشكلة اندلعت بين رجال، وصلت حد الضرب والتدافع، على الحدود بين سلوفينيا والنمسا، وقد كان البوليس حاضراً، وكذا مترجِم علّق على صدره بطاقة كُتبَ عليها «فارسيّ»، سمعتُه يقول للبوليس أو حرس الحدود إن مَن يتقاتلون «Syrian»، فقلتُ له، وفي داخلي يستيقظ شعورٌ مهم حول ضرورة أن يكون

المترجم أميناً: «you are a liar». لم أكن أقصد أن السوريين «ملائكة» مثلاً، إذ هم ككل الشعوب حول العالم، وإن معرفة قانون اجتماعيّ، معناه معرفته في آنٍ واحد كظاهرة اجتماعية وكجوهر، أي كشيء في ذاته؛ لكن الغالبية الساحقة آنئذ، كانت تدرك أن مَن كانوا يتقاتلون ليسوا بسوريين، بل من الأفغان. البوليس نفسه كان يدرك ذلك، حيث دعاني أحد العناصر إلى الاسترخاء«relax»، ثم قال حين كنت أؤكّد له أن القتال لا يدور بين سوريين: «I know». مَن هو إذاً الذي يحتاج إلى «تمكين سياسيّ» في معنى ما هنا، المرأة أم الرجل؟ يمكن أن يُعادَ طرح السؤال الأخير هذا، بطريقة أخرى مدعومة بواقعة على سبيل مثالٍ آخر: ترى هل مَن اغتال بِينَظِير بُوتُو (2007-1953)، المرأة المؤمنة بالديموقراطية، التي شغلت منصب رئاسة الوزراء مرّتين في باكستان، وهي أول امرأة في بلد مسلم تشغل هذا المنصب، كان سياسياً بارعاً و«متمكّناً»، أم مجرماً؟ إن العاجز عن التعاطي السياسي بوصفه مناورة، أخذاً وعطاء، مدّاً وجزْراً، مرونة، جدلاً، حجّة وبرهاناً، فناً خلاّقاً لا تكالباً على السلطة، اعترافاً بالآخر المختلف واحتراماً لوجوده المختلف ورأيه المختلف ومشروعه المختلف، يلجأ إلى إلغاء هذا الآخر وإعدامه من الوجود، وإن «العاجز» نفسه، قد يلجأ إلى أساليب منحطّة أخلاقياً، عندما يجد في المرأة تهديداً سياسياً وعقلياً، لا شريكاً، فيعمد إلى التشهير والإساءة إلى أخلاق المرأة التي تنافسه سياسياً وعقلياً، كأن يصفها بـ«العاهرة» مثلاً! إن غير المتمكِّن

سياسياً هو ذاك الذي لا يجد سبيلاً آخر إلى الحديث عن المرأة سواء كانت موالية أم معارِضة، إلا من خلال التشهير بها وبأخلاقها. وكم هو شائع هذا الطراز الدنيء من الإساءة، وفيه دلالة بالغة على العجز السياسي، وعلى الرغبة الجشعة في عرقلة المرأة سياسياً، ووصمها بكونها غير متمكِّنة سياسياً، وتحتاج إلى «تمكين».

هكذا أندمج أنا أو أحاول

بعد الانتهاء من إحدى القراءات، سرحتُ: خمسة أشهر مرّت حتى الآن، على مجيئي إلى ألمانيا. هذه التي حطَّ بي الرحال فيها أخيراً، بعدما وصلتُ إلى إحدى الجُزر اليونانية في»بلم»، وقطعتُ سبع بلاد هي أشبه ما يكون بتلك الحكاية الخيال التي طالما حكتها لي جدّتي عُشبة رحمها الله، مراراً حين كنتُ برعُماً، أعني حكاية «بلاد حينا ومينا». كنتُ وحدي في مغامرة اللجوء تلك، لا أعرف أحداً، ولا يعرفني أحد، أتنقل من جماعة إلى أخرى، كمِثل طائرٍ وحيد يلتقط الحَبَّ، وأندمج. أندمج كثيراً قبل أن أعاود «الهروب» صوب كشف آخر واندماج آخر ثم «هروب» آخر. لكي تستوعب، يجب أن تتمرّد على الجماعات كلّها، كلّما شعرتَ ببدء تغلغلها فيك وتأصّلها. عليك أن تحمي داخلك بالخروج على السرب ربما، وربما بالمحافظة على وحدتك وفرادتك.

الحطّاب

ذات زيارة صباحيّة إلى الغابة التي هي أمي؛ انقبضَ قلبي، حين رأيتُ من بعيد، إحدى شقيقاتي من الأشجار تُذبَح بصمت. هرعتُ إليها، فإذ بها ملقاة، وقد حلَّ بها اليباس، وجلُّ علامات الموت. سألتُ الحطَّاب الألمانيّ، وهو يواصل الذبح والقطع: لماذا؟!. لم يردّ عليّ بسؤال استفزازيّ من قبيل: «وما شأنكِ؟»؛ بل ابتسم لي، وراح يُحاول إفهامي أن الشجرة لم تكن حيّة حين آثر الإفادة من حطبها لغاية تدفئة أبنائه، وإنه حصل على ترخيص من البلدية يسمح له بالإفادة من حطب الأشجار الميتة اليابسة. الغابات في ألمانيا، وكل الغابات، هي أمي، لا أحتاج حيالها إلى الحصول على «إقامة»، أو «جنسية لكي أحبَّها، وأدافع عنها.

امرأة single

مسيحية من نيجيريا، حسبما تعرّف بنفسها. هاربة، إلى ألمانيا، حسبما تقول، من جماعة «بوكو حرام» التي تمارس الإرهاب باسم الدين الإسلامي، كمثل تنظيم «داعش» وغيره. كنتُ أرقبها وهي تقف مطوَّلاً، حاضنةً براحتَي كفَّيْها بطنها الكبير المستدير استدارةً من شأنها خلق كائن بشري بعد حوالي شهر. كانت تتأمّل بطنها بزهوّ. على جري عادتي، لم أشأ أن أسأل أي سؤال شخصي. بيدَ أن سؤالاً وجَّهته لي مرَّة، شجّعني على سؤالها عن زوجها، فأخبرتني بعدم وجود زوج، وبأنها حملت بالحب جنيناً، وبالحب سوف تربّيه وحدها، دونما حاجة منها إلى رجل يكابد معها هذه الرحلة الشاقة المثيرة. قالت إنها امرأة single، وبقوتها الوحيدة هذه، سوف تنجب وتربّي. كنتُ مصغية، كمثل إصغاء النسيم إلى العاصفة.

تفجيران

يقول بعضهم إن الفردية مرَض، ويعنون بذلك إنها محض أنانية ونرجسية. لكن شتّان! وقد درجت عادة العنصريين من البشر، على ألا يعيروا انتباهاً لـ«الأفراد»، وعلى أن يتحدثوا عن «الآخرين» بوصفهم جماعات مغلقة ثابتة، أو مجرّد كُتلٍ بشرية. كان هؤلاء، أعني العنصريين، في «رحلة اللجوء المغامِرة» تلك، «رحلة الكشف الصادم» في المعنييْن الإيجابي والسلبي للصدمة، كانوا يحكمون، على هذا الشعب أو ذاك، وعلى هذه الجماعة الدينية أو العرقية أو تلك، وفق أحكام مسبقة تُعلي من الـ«نحنُ» وتحطّ من الـ«هُم»، وهكذا أيضاً، اتفق هؤلاء، على أن «الأفغانيين»، كلّهم، ومن دون استثناء، «هُم» شعب همجيّ، لا يعرف للحضارة طريقاً. غير أن ذاك الشاب الأفغاني المتنوِّر، فجَّر، بالنسبة إليّ، جلّ ما سمعتُه «من قبلُ»، ونسفَه، حين استلّنا نقاش إنسانيّ رفيع المستوى، حدّثني في سياقه، عن تفجير حركة «طالبان» بيته في أفغانستان، وعن رغبته في مواصلة دراسته الجامعية في مجال الاقتصاد، مجاله الذي طالما توقف عن متابعته، بعدما أغلق الظلاميّون أولئك، النوافذ في بلده، وأطفأوا الأنوار وصفعوا الشموع.

Fate

ولكي أكتفي شرَّ الوقوع في فخّ كلاميّ خاص بعنصريين من طرازٍ «تشبيحيّ» هذه المرّة، أولئك الذين لم يكفّوا عن الحديث عن تلك المرأة إلا بوصفها سوداء: «قالت السوداء. فعلت السوداء. جاءت السوداء. راحت السوداء»؛ سألتُها عن اسمها بلطف، وباللّطف نفسه ردَّتْ: اسمي Fate . معنى هذا الاسم في اللغة العربية، هو القدَر، وأنا قدَري، أن أظلَّ أعاندُ الفخاخ، وأرسم بالضوء أجنحة، مثلما هو قدَري أيضاً، أن أظلَّ أقارع بالشك الفلسفيّ، ما خسرتُه جرّاء ضآلة الشك الأمنيّ لديّ، واستغلال «الشبيحة» والموالين لنظام الأسد أو المتواطئين معهم، أو المستفيدين منهم، لهذه الضآلة، بل متابعتي بشكل مدروس وممنهج وحثيث، والإساءة إليّ في كل مكان، حتى هنا في ألمانيا. ليس عندي أدنى «شك» في أن الجهة التي تتابعني، هي نفسها الجهة « العسكرية الأمنيّة» التي طالما أوقفتني عن الكتابة للثورة وعنها، في السويداء جنوب سوريا، في الأول من نيسان عام2014، هي نفسها الجهة التي تقف وراء الإساءة الممنهجة، المدروسة والحثيثة. مَن يفتقرون إلى الحسّ النقدي يصدّقون كل ما يرون ويسمعون، ولا يفكرون، لا يحللون، لا يفسّرون، لا يتأملون. أما الجدارة، فتلك التي تكمن في ذاك الحس النقديّ، أو التفكير النقديّ الذي لا تشوبه شائبة أو تشويش مخابراتيّ.

رايا

قالت أمُّها حين سألتُها عن معنى اسم ابنتها: رايا يعني الله في اللغة الفارسية. عُمر رايا حوالي تسع سنوات. شعرها أسود حالك وطويل. عيناها سوداوان واسعتان جميلتان. قادمة وأمها من إيران، تحديداً من شيراز. لم أشعر حيالهما بضغينة كون سلطة بلدهما تحتلّ بلدي سوريا، بل لعبتُ مع رايا، وأخذتُها إلى السوق واشتريتُ لها الشيبس والبسكويت، وشاركتُها بما تحب وتهوى، حيث رسمنا معاً أجمل اللوحات، ومعاً صنعنا من قشور «الفستق الحلبي» الذي طالما جلبته أمها معها من شيراز، قلباً ووردة وكتبنا اسمَينا. لكن حين رسمتْ رايا، العَلَم الإيراني إلى جانب اسمَينا، استأذنتُها في شأن إزالته عبر القصّ، وحين رسمتْ مرّة أخرى، العَلم الروسي، وآثرتْ تعليقه، مزّقتُه ورميتُه في سلّة المهملات، لاعنةً كلَّ سياسة حقيرة تحاول إفساد هذه الطفلة. كانت رايا نائمة، عندما رحلتُ. ودَّعتُ لوحاتنا المعلَّقة هنا وهناك، ومررتُ بأصابعي على ورقة خضراء جميلة قطفتُها لها من شجرة، ذات مشاكَسة طُرُقيّة، قبل أن نصنع منها لوحة جميلة في ما بعدُ. رحلتُ متمنِّية لطفلة قالت لأمها:»علا صديقتي اللطيفة«، الغرقَ أكثر في الفنِّ والجمال فقط. بالمناسبة، «شوشانِك» أيضاً لم أشعر حيالها بضغينة، كونها من روسيا، البلد الذي ترتكب سلطتُه المجازر في حقّ بلدي سوريا وأهله، لا بل حين مرضت تلك المرأة، زرتُها في المستشفى

وصديقتها، وأعطيتها مبلغاً اقتطعتُه من مصروفي الشخصيّ، حين علمتُ أن المال الذي في حوزتها قد نفد.

المعتِّم

كان يعتِّم وكنتُ أصغي. كان كلّما حاول ذاك اللاجىء السوري القادم من مدينة حلب، أن يكلّمه عن «البراميل الأسدية»؛ يعمد إلى حرف الحديث عن مساره، وتوجيهه صوب «سيوف داعش». قال «المعتِّم» المقيم في ألمانيا منذ نحو ثمانية وثلاثين عاماً كما يقول، حين وصل إلى نقطة حرجة، ما عاد في إمكانه معها التعتيم والتجاهل، إنه حين كان في الجيش الألمانيّ، تعلّمَ من هذا الجيش أن «الحرب هكذا، وعليك ألا تنظر وراءك»، محاولاً من خلال العودة إلى «ذاكرته» تلك، تبرير قتل أطفال ومدنيين في أي حرب، كون «الحرب هكذا»، وتجاهل، أو التقليل من شأن كلام اللاجىء السوري حول مقتل أطفال ومدنيين ب»براميل أسدية». بالمناسبة، اللاجىء السوري إياه، هو ضد «داعش» أيضاً.

لحم الخنزير والذبح «الحلال»

آكلو اللحوم أولئك، يشمئزّون من أكل لحم الخنزير خصوصاً. يعتبرون ذلك من المحرَّمات، وينعتون آكلي لحم هذا الحيوان بـ«الكفّار». أمّا أنا الميّالة إلى الخُضر والفاكهة، ولا أشتري اللحم عادةً، لكني آكله إذا ما توافر على سبيل المصادفة البحتة، دونما أي نقاش من شأنه الاعتداء على ثقافة «الآخر» في المأكل والمشرب أو أي شيء آخر؛ أقول: إن أكلَ خنزيرٍ لا يختلف عن أكل دجاجة أو خروف أو بقرة، وهذه كلّها حيوانات. لو كان لي أن أختار لنفسي وجوداً، لاخترتُ كائناً لا يأكل ولا يشرب، وبذا لا يكون في حاجة إلى قتل أي كائن حي في الطبيعة. لكننا مجرد كائنات، نصفها «طبيعي»، ينبغي لها أن تأكل وتشرب، وتتغذّى على كائنات حيّة أخرى، وتلك هي «الحقيقية الطبيعية» المرّة. مَن يعادون في معنى ما، روحياً وعقائدياً وثقافياً وأيديولوجيّاً، مَن يأكلون لحم الخنزير، أيضاً لا يأكلون لحوم حيوانات مطبوخة، ميتة من طريق الصعق بالكهرباء، ويشترطون في هذه البلاد أن تكون اللحوم ذبحاً «حلالاً». لي رأي في هذا الموضوع لا أُخفيه: إنْ كان لا بد لنا من قتل حيوان من أجل التغذّي من لحمه، فلنكن قتلة «لطيفين» إذاً، وليكن الموت «رحيماً». إنَّ جزّ عنق دجاجة مثلاً أو خروف، بسكّينٍ جزّار، يروح ويجيء معذِّباً حتى طلوع الروح؛ لَمجزرة ما بعدها مجزرة في البشاعة والحقارة البشرية الأكولة المجرِمة. الصعق بالكهرباء، هو قتل «رحيم»، موت «رحيم».

الكرنفال

كلُّ الضائقين ذرعاً بالحياة قالوا لا تذهبي. كلّهم قالوا ثمة سرقة. كلّهم قالوا ثمة تحرّش. وكلهم قالوا إنه مجرد سُكر وعربدة. غير أني نسفتُ الأقاويل كلها، وآثرتُ الذهاب إلى الكرنفال الذي سيعود إلى الإزهار من جديد في شهر شباط من السنة القادمة، شهر الحب، وإلى ما لا نهاية. في مركز مدينة كولن في غرب ألمانيا، رأيتُ الناس متجمهرين، وكنت قد انتهيت للتو من إرواء ناظريَّ بنهر الراين، وتعطير روحي بالغابات. رأيت الناس في مركز المدينة متجمّعين، وقد أتقن الجميع لعبة الفرح الماكر. الجميع أبدع في محاكاة الطبيعة والحيوانات، وأحوال النفس البشرية، وفي محاكاة التقاليد الأخرى والثقافات والحضارات المغايرة. ألوان..ألوان، زركشة، ورود، حوريات، هررة، بطات، فراعنة، بدو رُحّل، غجر، مهرّجون...ناهيك بالموسيقى الصاخبة تارة، الهادئة طوراً، وانحياز الجميع إلى الرقص والغناء واحتساء الجعة. في وسط الزحام الجميل سألتُ أحدهم وكان قد اختار لنفسه في هذا الطقس الكرنفاليّ، أن يكون رجلاً «نبيلا» من «نبلاء» القرن السابع عشر أو الثامن عشر، سألتُه عن كيفية الحصول على كأس من البيرة رأيته محمولاً في أيادي الكرنفاليين جميعهم تقريباً، رغبة منّي في التماهي مع هؤلاء الظرفاء اللطفاء؛ فآثر «النبيل» أن يضيّفني كأساً. أخذني إلى حيث يقف أصدقاؤه. وقفتُ معهم، وضربتُ كأسي بكؤوسهم.

كانوا أصدقاء طيبين: سيد وسيدة زوجان مسنّان، لكنهما يبدوان في عزّ الشباب روحاً وعقلاً وعاطفة. امرأة مسنّة أيضاً تقاسم الزوجَين الشباب نفسه، وشابان وسيمان اختار كل منهما لنفسه أن يكون ما يكون في هذا اليوم الكرنفالي الرائع. حاولتُ التكلّم معهم بما تعلمته حتى الآن من مفردات وجمل باللغة الألمانية التي لا أزال في طور تعلّمها الأوّل، وكنت كلّما فشلتُ، أنتقل إلى الإنكليزية لعل وعسى نتفاهم أكثر عبر اللغة بعدما جرى التفاهم عبر الروح وملامح الوجوه. قلتُ للرجل المسنّ الذي زركش وجهه بالألوان: «امرأتك جميلة»؛ فغمرت السعادة وجهها ووجهه. كانت المرأة تعتمر قبّعة يتدلّى منها ريش ملوَّن. ودَّعتُ هؤلاء الأصدقاء، ورحتُ أتجوّل بين مجموعات أخرى بروحِ التائق المشتاق إلى التهام الجمال والفرح التهاماً. كانت الساحة ضاجّة بالغناء وبالرقص والموسيقى والجعة والقُبَل والعناق. خُيِّل إلي أني في طقس «ديونيسيوسي». لم يتحرّش بي أحد في هذا الطقس. لم يسرقني أحد. ولم يعتدِ عليّ أحد ولو بنظرة. لم أرَ فسقاً ولا فجوراً . رأيتُ حباً، عشقاً، هياماً. من أعماق غاباتي التي كانت تصرخ بصمت الغابات نفسه: «freedom for Syria» أصرخ أيضاً: طوبى للفرح والفرحين. طوبى لمجتمع السلم والسلميين. طوبى لمدينة العطر كولن «كولونيا» .

إشارة المرور درسٌ في الأخلاق أيضاً

أغلبُ ما في هذه البلاد، ينبّه إلى أنّ ثمة آخر موجود، وأنّ علينا احترام وجوده؛ فمَن شاء أن يتعلّم من بلاد القانون هذه، ما هو جدير بتعلّمه، فالأبواب مفتوحة على مصاريعها، ومَن «شاء» العزوف عن التعلّم، ظانّاً نفسه، خاتم المعارف وعالم الأسماء كلّها، فهذا «شأنه»، وهنيئاً له عجْز روحِه وعقلِه وقلبِه، في حفظِه كلمتين يكرِّرهما كمثل ببغاء: «القارّة العجوز»، على الرغم من كل ما يضجّ به أغلب هذه القارة من شباب العلم والأدب والفكر والحضارة والحياة والتكنولوجيا والقانون والعشق واللطف، إذ «الأعين والآذان شهود مضلِّلون للناس، إنْ كانت لهم نفوس لا تفهم لغتها» كما يرى الفيلسوف اليونانيّ هرقليطس، وأرى معه. كلُّ شيء منظَّم ها هنا، وإذا ما أردت مثلاً أن تقطع شارعاً، عليك بالانتظار، ريثما يضيء الأخضر، لأن ثمة آخرين من راكبي السيارات، لهم وقت مخصص من حقهم استهلاكه، والعكس صحيح. لراكبي الدرّاجات الهوائية حيّز خاص أيضاً، ينبغي عدم الاعتداء عليه من الرَّاجلين، ومن راكبي السيارات. لكن الدرس الأهم ربما هنا، هو انوجاد أشخاص في قبالتك، ينتظرون بدورهم الضوء الأخضر حيث تقف أنت، لكي يواصلوا السير في جهة معاكسة لجهتك. أشخاص قد يثير لديك انتظارهم، واقفين في قبالتك، دفعة واحدة، جلَّ معاني الاختلاف،

التقابل، التداخل، التناقض، والخروج من مركزية الذات عبْر التفكير الدائم وبلا توقف، في أن ثمة آخرين موجودون أيضاً في هذا العالم.

التعلّم أهمّ من النصح

الإصغاء أهمّ من الكلام أحياناً. في هذه البلاد التي يحكمها القانون، ينوجد للفرد أحياناً فسحة للتعبير عن نفسه، وعن ما يريد في حياته ويرغب، وما من فرْضٍ في المعنى الحقيقي لهذه المفردة. الجميع محميّ بالقانون في هذه البلاد، فلتؤمن بما تشاء، ولتحمل الفكر الذي تشاء، ولتتبنَّ العقيدة التي تشاء؛ أنت محميّ في الأحوال كلّها، شرط عدم فرض إيمانك أو فكرك أو عقيدتك على الآخرين. غير أنّي التقيتُ ورأيتُ وسمعتُ واستمعتُ إلى مَن يعتقد أن «الصحيح» يكمن في دينه هو، أو في قوميته هو، وطائفته هو، وشكل حياته وثقافته هو، ومُعتقَده هو. هكذا، يصير الآخر بالنسبة إليه، قاصراً ومحتاجاً إلى نصح ومشورة. التقيتُ بمَن يقولون مثلاً، بضرورة التمسّك بالدين الإسلامي والحفاظ على الهوية الإسلامية في كل مكان حول هذا العالم. لا مشكلة، لكن للآخرين طرقهم ودروبهم أيضاً، ولهم الحق في أن يسلكوها كما يشاؤون. ورأيتُ مَن يخاف على أولاده وبناته من «الانحلال» في بلاد يسمّونها «بلاد الكفر». حتى الآن، لم أرَ، في كل الشوارع التي مشيتُ فيها طويلاً، وفي كل الأماكن التي ارتدتُها(كافيتيريا. مكتبة عامة. مول. حديقة. غابة. مترو.)، وحيدة أو برفقة آخرين وأخريات، في الليل وفي النهار وفي المناسبات المختلفة، لم أرَ مشهداً واحداً يطارد فيه رجلاً امرأة مثلاً، أو مشهداً يعتدي فيه

أحد على أحد. هنا أرى أناساً يقرؤون الكتب مثلاً، أو أناساً يعزفون الموسيقى، وأناساً يعانقون ويقبّلون ويعشقون بحرية. هنا من المعيب جداً أن يتحرّش أحد بأحد. هنا، يبدو أنه لا يهمّ ربما ماذا تلبس وأيّ مظهر تختاره لنفسك. هنا بلد حريات عامة وخاصة، وهذه لا تعني، بالنسبة إلى مَن يفهمها، اللامسؤولية، أو الفوضى المجانية، إنما تعني احترام الآخر وحريته في أن يكون ما يكون، شرط عدم اعتداء هذا الآخر على حرية غيره من أقرانه من البشر. يحدّثونك عن بلاد الأمن والأمان والإيمان!. هذه هي بلاد الأمن والأمان المحكومة بالقانون، من دون خوف ورعب مبثوث في كل مكان. كنتُ أمشي مرّة في أحد شوارع مدينة Essen بغرب ألمانيا، وكان ثمة متسوّل يجلس في زاوية. اقتربَ منه شرطيان، وراحا يحاورانه لغاية إقناعه بأن عليه أن يأتي معهما، كون لا يجوز أن يظلَّ قابعاً في هذا المكان، (حسبما بدا لي). ساقني الفضول إلى أن أقف وأرقب من بعيد ما الذي يجري، وكيف سيتصرَّف الشرطيان مع المتسوّل. بقيتُ واقفة نحو عشر دقائق، ظلَّ خلالها الشرطيان يحاوران المتسول، الذي لا يستجيب إليهما. يحاورانه بكل هدوء، ولا يستجيب. كنتُ كلّما ظننتُ أنه الآن سوف يجري إرغام المتسول على مغادرة المكان بالقوة، أكتشف أنّ ظني لم يكن في محلّه. مللتُ الوقوف والمراقبة؛ فغادرتُ المكان ولا يزال الشرطيان يحاوران المتسوّل بهدوء، لعلّه يستجيب.

وجعٌ

صباحاً، ركبتُ المترو، وكما في أغلب الأحيان، فضّلتُ الوقوف على الجلوس في أيٍّ من المقاعد الخالية. لستُ أدري لماذا أجد «متعة» أحياناً في الوقوف؟ قد يكون أصل ذلك هو الذاكرة ربما، القريبة جداً والبعيدة، ذاكرة القهر العلنيّ والسرّي. إن الذي في الأعماق لن يهدأ على ما يبدو، لن ينام، لن ينسى، وسوف يظلّ مستنفراً، مستيقظاً، متذكِّراً، ومشتاقاً إلى كل المقهورين مثلي حول هذا العالم، خصوصاً في سوريا. أحبُّ أن أقف في المترو أحياناً، أسوة بذاك الوقوف في حافلات دمشق مثلاً، وإنْ كانت الوقفة هنا وقفة مترَفة ربما. لستُ مغرَمة بالهمّ والوجع، لكن همّ الناس في سوريا ووجعهم، هما همّي ووجعي الكارثيّ الذي أحاول حياله أحياناً هنا أن أجيد ترف التصعيد، والتصدّي الإيجابيّ، وأحياناً أفشل.

بالقرب منّي، وقفت امرأة برفقة ثلاثة أطفال. بدا لي أن المرأة مدرّسة وأن الأطفال تلامذتها. كان واضحاً أن المرأة ألمانيّة، والأطفال كذلك. تأمّلتُ طويلاً في جمال الأطفال الثلاثة. ولدان وبنت من أجمل ما يكون!. من دون تفكير، أخذني هذا الجمال إلى سؤالي الممض، اللاهث معي في كل مكان: بأي «حق» يُقتل الأطفال في سوريا؟!

ورأيتُني، على الرغم منّي أمعن النظر في ملابس الأطفال الثلاثة، في

حقائبهم المدرسيّة وأغراضهم الشخصية. كم كانت جميلة، غالية الثمن، وعالية الجودة! وكم كان سؤالي نفسه كمثل سكين في قلبي، ينزّ دمعة عتيدة بين الفينة والأخرى، تارة ينتبه إليها الناس، طوراً يغفلون: بأي «حقّ « يُقتَل الأطفال في سوريا؟! بأي «حقّ « يجري تدميرهم نفساً وروحاً وعقلاً وجسداً؟!

كنتُ ساهمة أكثر في البنت الصغيرة، في شعرها الأشقر الناعم المسترسل المسترخي على كتفَيها النحيلَين، في عينيْها الخضراوين، وفي ضحكتها الواثقة. كلّمتُني في الوحدة العميقة: لو أن أحداً تجرّأ ها هنا، على خدش هذه البنت المدلَّلة ولو خدشاً «بسيطاً»، لَربما قامت الدنيا ولم تقعد. بأي «حق» يُقتل الأطفال في سوريا؟! بأي «حقّ» يجري تدميرهم نفساً وعقلاً وروحاً وجسداً؟!

حين سقط أحد الأطفال الثلاثة أرضاً، جرّاء انطلاقة جديدة مباغِتة للمترو، ساعدتُه على الوقوف مجدَّداً، سائلةً إياه «are you ok?»، فردّ بابتسامة واثقة «Ja » الجميع نظر إلى الطفل لحظة سقوطه، نظرة المتوجّس، المرتاب، الخائف من أن يكون قد أصاب الطفل مكروه ما. بأي «حق» يُقتل الأطفال في سوريا؟! بأي «حق « يجري تدميرهم نفساً وروحاً وعقلاً وجسداً؟!

خمس مفارَقات

1

هاربون من الجوع، لا يعجبهم طعام «الأوروبيين» في ال«الكامب»!.

2

الكاذبة، مشوَّهة العقل والقلب قبل الجسد (وهل ثمة مُوالٍ للنظام السوري غير مشوَّه الروح والخُلُق؟!)، تتحدث في حسرة عن شقيقتها التي علّقت شهاداتها الجامعية على الحائط، وآثرت تحنيطها، بعدما يئست من كل محاولات حصولها على وظيفة في سوريا؛ ثم فجأة، تتطرَّق إلى «لقاء صحافي» أجراه معها أحد الصحافيين الأجانب(بحسب زعمها). لقاءٌ «لم تعطِ» خلاله على بلدها سوريا، كما قالت، إنما أكَّدت على أن بلدها«بخير فيها شغل».!

3

مناصِرٌ للمرأة، يتقن الظهور بمظهر المثقف الراقي، كان منحازاً جداً إلى المرأة التي يجب أن تُحترم، قبل أن يأتيه اتصال هاتفي. نسي نفسه والدور الذي يلعبه، فراح يخبر المتصل السائل عن كيفية زواجه من امرأته التي تزوجها قبل أشهر قليلة من خروجه من حلب، ويعيش معها الآن في «أوروبا»، قائلاً: «شوّلتا». ربما يحقّ للزوجة، إذا

ما استمعت إلى تلك المكالمة الهاتفية، أن تطلب الانفصال، أو على الأقل، إذا ما جاءها اتصال هاتفي مشابه أن تقول: «شوّلتو» مع «شوال» البصل.

4

كانت تعيش في جنوب لبنان قبل أن تأتي إلى ألمانيا. تتّشح بالسواد، من الرأس وحتى القدمين. ما أن جلست على الكرسي، حتى بدأت تشكو بحرقة: هناك مَن يقول إننا «طالبانيّون» كوننا نلبس هكذا. نبَّهتُها إلى شكواها تلك، عندما راحت، بعد لحظات، تتكلم بلغةٍ تسخر من تسريحة شَعر نساء «سوداوات» التقتهنَّ قبل أيام. كنتُ أستمعُ إليها وهي تمعن في السخرية، وأقول في سرّي: «ليتكِ تنظرين في المرآة الآن، لترَي ما أنتِ عليه»!

5

للوهلة الأولى لا تصدّق أنها «امرأة»، من شدّة ما تشبه الرجل شكلاً ومضموناً(ليس الرجل الوسيم طبعاً، ولا ذاك الرفيع المستوى فكراً وعقلاً وخُلقاً وروحاً). لا مشكلة طبعاً في كون هذه «المرأة» تشبه الرجل حتى أنها تكاد تكونه، إذا كان هذا خيارها في الحياة، لكن المفارقة المثيرة للسخط والسخرية في آنٍ واحد هنا، هي أن هذه «المرأة» تسخر من المرأة الحرة الثائرة في بلادنا مشبِّهة إياها بالرجل!.

ياااه كم الترحال مهم من أجل تقويض الأوهام، وحتى ندرك أن البشر هم البشر في كل مكان.

هنا وهناك

المثقفون، كانوا قريبين جداً من مكان تظاهرة كانت ترفع أعلام الثورة السورية يوم 19آذار2016 أمام الكاتدرائية الأشهر في مدينة كولونيا بغرب ألمانيا، وتهتف للحرية، مؤكِّدةً استمرارَ الثورة، لكن أحداً منهم لم يشارك أو يقترب حتى(إنهم شعبويون!). عند محطة القطار، التقى مَن انتهوا للتو من تظاهرتهم، مع المثقفين أنفسهم الذاهبين إلى حيث يُقام مهرجانٍ للشعر تعمِّده روح الشاعر الجميل بشير العاني، الذي رُويَ أنّ تنظيم «داعش» الإرهابيّ، ذبحَه وابنه بتهمة «الرِّدة». المهرجان إياه كان كمثل التظاهرة تلك، بمثابة تأكيد على أن الثورة السورية مستمرة، لكن أحداً ممَّن كانوا يتظاهرون، لم يذهب لكي يحضر المهرجان(إنهم نخبويون!). هذا الفصام لا يعنيني أنا التي كنتُ هنا وكنتُ هناك.

رأي

طولبَ بتقديم اعتذارٍ عن رأي لم يعجب السواد الأعظم من الحاضرين ومن بينهم أنا؛ فانسحب المحاضِر متراجعاً عن رأيٍ أبداه للتو. عدتُ إلى المنسحب بعدما انسحب الجميع من القاعة كلّها بعد انتهاء الندوة، قائلة له: ليس من شأن الرأي أن يُعتَذر عنه، إنما هو جدير بالدليل وبالحجة والبرهان. كما أن ليس من شأن صاحب الرأي أن ينسحب تحت وطأة المعترضين، بل أن يظلّ يدافع عن رأيه دفاع المتبصِّر لا المتعصب، إن كان مؤمناً به. فسرَت نشوة في عينَيّ المنسحب المكسور قبل قليل، وسرت في قلبي فرحة الانتصار لمَن لا أتفق معه في الرأي، لكني أقف إلى جانب حقّه في التعبير عن رأيه.

مزعجون لا بدّ من إزعاجهم

في كل مكان، هناك مزعجون لا بد من إزعاجهم. منذ أيام، كنتُ أقول لأحدهم: ليست هذه البلاد مَن علَّمَني أن عليّ ألا أرمي منديلاً مستعمَلاً على قارعة الطريق، أو علبة عصير انتهيتُ منها للتو، لا ولا في هذه البلاد تعلّمتُ أن عليّ أن أقف في الدور، حين يكون ثمة دور، دونما اعتداء على دور أحد، وألا أدخّن السجائر في الأماكن المغلقة، أنا التي لا أدخّن أصلاً، وأن أغلق هاتفي الجوّال أو أضعه في حال الصمت حين أكون في مكان يستلزم ذلك. ليست هذه البلاد مَن علّمني ذلك كلّه وغيره، إنما ربَّيتُني على ذلك، تربية صارمة لا هوادة فيها. كل ما يُذهِب العقل ويهدّ البدن، ويعيث في البيئة تخريباً وإفساداً، أقف ضدّه. أنا ضد السُّكر الأهوج مثلاً، مع الشرب الراقي في اللحظات المختارة. ضد التدخين، مع «التنفيخ» في اللحظات المختارة أيضاً، وقولاً واحداً: ضد المخدِّرات. ضد رمي المهملات كيفما اتفق. ضد التعدّي على أدوار الآخرين وحقوقهم. ضد اقتحام أبوابٍ من شأنها أن تُطرَق. وسلامي إلى تلك المرأة الموظفة في مجال الحفاظ على الأمن في ذاك» الكامب» التي طالما أنصفتني، يوم أعلنتُ احتجاجي على عدم طرْق أحد الأبواب، ونفَّذت اقتراحي بوضع ملصقات على الأبواب تلفتُ النظر إلى تحضُّر الطرْق وهمجيّة الاقتحام. سلامٌ آخر إلى امرأة أخرى، عاملة أيضاً في

مجال الحفاظ على الأمن في «كامب» آخر، أنصفتني أيضاً إنصافَ العارف في أحوال البشر وخامات النفوس، ثم راحت تحدثني عن مدرِّستها التي طالما أثّرت فيها أيما تأثير حين كانت طالبة في المدرسة، وعن تأثّرها في الديانة البوذية، وعن فلاسفة ألمانيين من أمثال هيغل وكانط ونيتشه، محترِمة مقدِّرة ما أحب وأحترم في الحياة. مَن قال إن ها هنا يسود العقل فحسب؟! إن ثمة عاطفة تمتاز بالرقة واللطف تسود أيضاً. عاطفة تختلف عن «عواطفنا» نحن الهاربون من قفرٍ. يمكن القول إن العاطفة هنا «مقوْننة» أو«معقلنة».

تحذير!

كانا واقفَين، يشتمُ أحدهما الآخر شتماً عنصرياً، يرافقه هدوء تام في ملامح الوجه وبراءة مصطنَعة ببراعة، وكان الآخر غير العارف بلغة مكلِّمه، مبتسماً، مفترِضاً خيراً. حذارِ من الابتسام في وجه لغة لا تفقهها!. إن ذمَّ مَن لا يعرف لغتنا في حضوره؛ هو محض نميمة واستغابة. محض جُبنٍ لا «شجاعة». كانتا واقفتَين، تكلّم إحداهما الأخرى بأدب وذوق واحترام، وكانت الأخرى غير العارفة بلغة مكلِّمتها، غاضبة، متَّهِمة إياها بالإهمال واللامبالاة، جازمةً بأنها تفهم. حذارِ من الغضب في وجه لغة لا تفقهها!. إن الاعتراف بجهلنا لغة الآخر حين نجهلها، ليس عيباً، إنما السقوط الأكبر هنا، هو ادعاء الفهم والعبقرية.

عهدان

«الشبيحات» السائرات على عهد نظامهنّ «الشبيح» في سوريا، يُردْنَني أن أشارك معهنّ في «خطة» مفادها نفي تلك «المسكينة» ونبذها والتعالي عليها(وهل غير «الشرشوح» ينحدر إلى مثل هذا الأسلوب؟!). أمّا أنا، فقد عاهدتُ الحياة، على الانتصار للإنسانية. ثم الإنسانية. إن فكرة الخير الأخيرة هذه، لن تُفهَم بشكل مستقل من غير فكرة الشر السابقة، في الوقت ذاته، كما أن الصاعدَ لن يُفهَم من غير المنحدِر. بذا يصير الشر والانحدار هنا إيجابييْن في معنى ما؛ فأمعِنوا، لأن هو أحمر اليوم، قد يصبح أخضر غداً.

Power

عمداً، لا أحتفظ للآخرين في حياتي إلا بما هو جميل وجدير بأن يُحتفَظ به، ويشكّل لي طاقة إيجابية لا تنضب«Power. هكذا، اعتدتُ على حذف أرقام هواتف ونسيان عناوين وتمزيق صور ونزْع ذكريات، كلّما انكسر غصن من أغصاني. اعتدتُ أيضاً على الاحتفاظ بكل ما يدفع بالروح صوب الأفق والعمق المخضرَّيْن المتلألأين. في حنايا العتمة الخصبة، وفي الضوء الجلل، أحتفظ بطاقات إيجابية على هيئة رسالة ومنديل مثلاً، مكتوبَين مطرَّزين بالروح قبل اليدين، أو على هيئة حبّات خرَز أو قرط أو طوق أو كتاب. تلك المرأة، استلّت كفيّ في الرحيل، ووضعت فيها لعبة صغيرة. وضعتني تلك اللعبة، بضربة نردٍ واحدة، أمام الحياة والموت، الفناء والوجود، الانكسار والقيامة. كانت اللعبة بمثابة Power، قابلتُه بـPower أيضاً.

الصغيرة

عمرها حوالي ستة عشر عاماً، تحجب شَعرها بحجاب أسود. جاءتني ذات مساء تقول: «شايفي هديك إمّ الشَّعر الأحمر؟ بتعمل غراميّات إدّام(أمام)العالم كلّا».

ولأني قرأتُ في ملامح وجهها شذرات طفولة مرنة؛ قلتُ فلأناقشها. دعوتُها أولاً إلى أن تتوقّف عن النّميمة، وعن الإساءة إلى الآخرين في غيابهم. ثم استطردتُ سائلةً إيّاها: «ما رأيكِ في مَن يقول عنكِ مثلاً، إنكِ إرهابية وتكفيرية فقط لأنك تحجبين شعركِ بالقماش الأسود هذا؟ سوف يؤلمكِ الكلام عنكِ بهذه الطريقة خصوصاً أنكِ منه براء، أليس كذلك؟». تلك الفتاة التي تذمّينها هي هكذا. وأنتِ هكذا. لا تكوني مثلها إن شئتِ، لكن لا تطالبيها بأن تكون مثلكِ. ثم، تعالي نفكّر قليلاً: «أوليس من الأجمل والأنبل أن «يعتاد» البشر على رؤية مشاهد حب، بدلاً من مشاهد قصف ببراميل متفجّرة مثلاً أو ذبح بسكاكين؟!».

لا أعرف بالضبط كيف تلقّف عقلها كلامي، لكنها أظهرت إعجاباً بما أقول وموافَقة. خلال حوارنا هذا، كنتُ أنبّهها إلى ضرورة ذهابها إلى المدرسة، وانصرافها إلى العلم والمعرفة.

***

رأيتُها مرة أخرى مصادفةً، فغنّيتُ لها أغنية معروفة: «شو جابِك عحيّنا يا صغيري/عملتي أزمة كبيري /جهّلتي كلّ الجيري...»، فابتسمت وفرحت بكونها فتاة جميلة ومن الممكن أن تعمل «أزمة». أزعم، أن هذه هي حقيقتها الأنثوية الجميلة الدفينة، لكن ماذا نقول عن اللوثات والسموم الروحية والعقلية والنفسية والعاطفية والوجدانية. عن الأيديولوجية والأحكام المسبقة. عن الأمراض. عن العقد الأسرية والاجتماعية الثقافية والدينية...وهلمّ!

سلامي إلى «إمّ الشعر الأحمر» وإلى «إمّ الحجاب الأسود إذ تكون طفلة».

حول طاولة خشبية صغيرة مستديرة

دخلتُ مرة مخبزاً بسيطاً. اشتريتُ شطيرتين رغبتُ في أكلهما في المخبز نفسه. شدّني إلى ذلك، طاولات وكراس خشبية. أحبُّ الخشب، وكل ما يُصنع منه. أشعر بأن روحاً تعشِّش في هذه المادة وتنبض. كل الكراسي والطاولات كانت عامرة بالناس؛ فأخذتني بائعة الشطائر إلى طاولة خشبية صغيرة مستديرة، تحجزها امرأتان، وأخبرتني أن في إمكاني الجلوس معهما، بعدما استأذنَتهما ووافقتا بمحبة. لم يكن مستحَبّاً بالنسبة إليّ، تجاهل وجود امرأتين لطيفتين على الطاولة نفسها؛ فتجاذبنا أطراف الحديث باللغة الإنكليزية، كوني لا أزال أحاول تعلّم الألمانية، وكونهما لا تفقهان العربية. كان حديثاً رائقاً في ذاك الصباح الرائق، ضحكنا فيه واستمتعنا كأننا نعرف بعضنا منذ سنوات. البسطاء من البشر لا يحتاجون إلى الكثير لكي يندمجوا مع بعضهم بعضاً. السطح لا السطحية ولا التسطيح، يوازي في أهميته العمق، والحديث مع «غرباء» و «مؤقَّتين» شيّق أحياناً ومن أمتع ما يكون. إنما الكآبة قد تأتي من جهة مَن يربطنا بهم «تاريخ» معقَّد حدّ الأَسْر. إن الطريقة الفلسفية، تكاد تكون الطريقة الوحيدة، بالنسبة إليّ، التي تحمل قدْراً من الآمال في التغلّب على تقلّبات الحياة، وتتيح لي أحياناً، الخلاصَ من دوّامة الذاكرة والتاريخ والجذر والأصل. بيدَ أن الخلاص من دوّامة الأصل والذاكرة، حتماً لن يمنعني من الاعتراف

الآتي، على سبيل المثال لا الحصر: أعترفُ بأني كنتُ لا أرى جيداً ذاك الجانب الوضّاء في السويداء، محافظتي بجنوب سوريا، من كثرة ما كان النقيض الذي في المحافظة نفسها، يثير فيّ أحياناً سخطاً يُعمي. أعترفُ الآن، أفكر في تلك الخامات البشرية المهمة في السويداء، في الأرواح النبيلة، وأعيدُ النظر. ربما يساعدني في ذلك، الحديثُ عن واقعة حصلت في صيف 2011، بما تنطوي عليه من شهامة وشجاعة حقيقيتين، معمَّدتَين بروح الرجولة الحقّة، لا تلك الذكورية الاستعراضية الهوجاء الجبانة. فقد كنتُ مرّة في ذاك الصيف في إحدى حافلات النقل العام بالعاصمة دمشق، قاصدةً الجامعة في «المزّة»، وكانت ثورة الحرية في سوريا والمظاهرات في أوج سلميّتها وإزهارها. اعترضتُ في الحافلة على عبارةٍ كانت مكتوبة فوق إحدى النوافذ، تقول: «سورية الأسد. حلب معك»، وقلت بصوت مسموع إن سوريا للشعب، فجاءني على الفور شخص يبدو أنه مُخبِر، ودعاني لأن أحتفظ برأيي لنفسي، فأجبتُه: «ما قيمة الرأي إذا لم يتعرّف إليه الآخرون؟ ثمّ، لو كانت هذه الحافلة خاصة لما تكلّمتُ، لكنها عامة، وهي للشعب، فليكتب كل شخص في سيارته الخاصة ما يشاء». في معمعة الصدّ والرّد، واشتداد الموقف حدّة، انتظر الشخص الذي يبدو أنه كان عنصراً في المخابرات، إلى أن صارت الحافلة بالقرب من فرع «أمن» في منطقة قريبة على ما أعتقد من «كفرسوسة»، ثم طلب إلى السائق أن يتوقف، وإليّ أن أنزل؛ فنزلتُ، لكن أحداً ممن

كانت الحافلة تكتظُّ بهم لم ينبس ببنت شفة، أو يرفّ له جفن، سوى شابين من السويداء، يبدو أنهما سمعاني حين كنتُ أقول أيضاً إني من السويداء، وإن الشعب السوري واحد، فآثرا النزول معي، وسارا إلى جانبي حين أخذني الشخص الذي أنزلني من الحافلة إلى فرع «الأمن»، وقبل أن يجري إدخالي من الباب الرئيسي للفرع، قال الشابان اللذان لا أعرفهما ولا يعرفاني، بشجاعة: «سوف نظلّ واقفَين هنا إلى أن تعودي». أتذكر كيف أربكَ موقف هذين الشابين عناصر «الأمن» في الخارج. طبعاً، أُخذت منّي وثائقي، ودخلتُ برفقة الشخص نفسه الذي أنزلني من الحافلة. بقيتُ في ذاك الفرع حوالي ساعة، سُئلت خلالها عن اسمي ودراستي، وجرى «نصحي» بألا أتكلم مرّة ثانية في مواضيع كهذه في الفضاء العام (الذي هو بكل تأكيد ليس لنا كشعب!)، قبل أن يجري إخراجي بهدوء ماكر حذر، يحسب حساباً على ما بدا لي، لشابين من محافظتي، معتصمَيْن عند الباب الخارجي، منتظرَين خروجي.

سألتُ الشابين عن اسم المكان الذي دخلتُه، فقالا لي إنه «أمن الدولة». كنتُ قد مررتُ كثيراً من جانب ذلك البناء، طوال سني دراستي في دمشق، لكن لم أدرك يوماً أنه فرع «أمن»! وهذا موضوع آخر. ودّعني الشابان بعدما قالا لي اسمَيْهما في عُجالة، وإنهما طالبان في الماجستير، ويجب أن يذهبا بسرعة إلى الامتحان. قد لا يحقّ لي

ذِكر اسمَي هذين الشابين، خصوصاً أني لا أعرف إن كانا الآن في داخل سوريا، أم خارجها، لكن لي كل الحق، في شُكر روحَيهما إلى ما لانهاية.

في البساطة والهجران

المكان بالنسبة إليّ كثافة مجدولة وسيولة الزمان. تتطاحنان، تتطارحان، تنصتان، تتناغمان، تصمتان، تتقدان، تترمّدان، تتخضّبان، ترتعشان، تهدمان، تبنيان، تتفككان تفككان، تنسجان، تحلاّن، تربطان، تخضرّان، تيبسان، تعلوان، تهبطان، ترتجّان، تتفجّران، تخمدان، تطولان، تقصران، تمتدّان، تجزران، تهمدان، تشتعلان، تخبوان، تنكشفان، تسرّان، تفصحان، تُظلمان، تنيران..؛ لكنهما مجدولتان. كلتاهما صرخة وجودٍ مطلق وتشظٍّ. المكان صرخة متشكِّلة وتتشكل بلا هوادة، الزمان ريح تصفر بلا هوادة.

كلّما حللتُ في مكان انحلَّ وصار فيَّ نسغاً، أو سرمداً وإنْ للحظة مدمِّرة تارة، ملتفّة طوراً كمِثل نبتة تنسلّ بهدوء وبطء صاعدَين حول جذع شجرة، حتى تكاد تصيره أو يصيرها. أنجدلُ وجديلة الكثافة والسيولة، ولا أنتهز. تُرى أيهما الأبلغ، الزمان والمكان أم الشعور فيهما وحيالهما؟. أفكر من مكاني هنا وزماني، في مكاني هناك وزماني، في بلدي الأم سوريا، في شوارعي وأزقتي، في حاراتي، في بيتي، في غرفتي، في دهاليزي ومتاهاتي، ما حالها من بَعدي وفي بُعدي؟ هل لا أزال أسكنها مثلما تسكنني؟ هل تشتاقني مثلما أشتاقها؟ هل تتألم لفراقي وتبكيني وتنزف؟ أحنُّ إلى رسائل مختبئة في حنايا غرفتي، إلى سريري، إلى ألعابٍ لكلٍّ منها حكاية وشخوص وزمان ومكان. أحنّ إلى مكتبتي الصغيرة

تحت شبّاكٍ يطلّ على صخرة كنّا نسمّيها «كرسيّ الملك» لطالما نُسجت حولها حكايات وحكايات، مكتبتي التي صنعتها بيديّ هاتين ذات شقاوةٍ ممطِرة. أصْل مكتبتي خزانة خشبية «بوفيه»(مَن قال إن الأصول ثابتة لا تتحوّل؟!). كانت تلك الخزانة تقبع في إحدى زوايا المطبخ، وتحتمل ثقل الصحون والكاسات وأشياء كثيرة أخرى. ظلّت على مرّ عقود تحتمل وتصبر، إلى أن اندلع يومٌ انهارت فيه، معلنةً هجران الثقل والمكان؛ فرُمي حطامها خلف البيت. وقفتُ حينذاك أمام الحطام حزينة، هالني انهيارها، ثم رمْيها بعد نسيان أفضالها في احتمال ثقلٍ مديد. اجتاحت رأسي فكرة مجنونة، تعيد إلى هذا الحطام كرامته، وتكرّم خزانة احتملت الكثير وصبرت بصمت بالغ. حملتُ الحطام إلى غرفتي، إلى وحدتي، إلى عمقي، ورحتُ أنفث فيه الروح. أعدتُ للأرجل المتهاوية ما ضاع منها، أي نعمة الوقوف فوق أرض هي بمثابة قلبٍ مبسوط بساطة كفّ مبسوطة لتلقّف حبّات مطرٍ شاردة؛ وفوق الأرجل الواقفة مجدَّداً ارتفعت ثلاثة رفوف، معلنةً ولادة مكتبة صغيرة. رصفتُ فوق الرفوف كتباً في الأدب وفي الفلسفة والعلم، وعلى سطحها، ألقيتُ أشياء خفيفة خفّة الروح، النبض، الخلايا المنتجة. تعايشنا أنا والخزانة/المكتبة بعد ذلك، سنوات طوال. تعرف ما بي وأعرف ما بها. تتذكَر الصحون والكاسات والملاعق، فأذكّرها بالآداب والأفكار والمعارف. أرعاها ليلاً نهاراً، برمش العين وماء القلب وحشائش الوجدان. الآن، هي وحيدة من دوني

هناك، وأنا وحيدة هنا من دونها، يعزّيني في هذا الهجران الموجِع، أنَّ سرّها يسكنني، وربما يعزّيها أنّي أودعتها الكثير من أسراري وأحلامي ورؤاي.

***

بعيداً من ضجيج «الإجراءات» و«اليوميات» وقسوتها وابتذالها واستنزافها المستمر للفرادة، أمشي هنا أحياناً. تأخذني الدروب إلى أمكنتي من غير ترتيب أو تخطيط، ومذ اهتديتُ، قبل بضعة أشهر، إلى عنوان المكتبة المركزية في «نويماركت»، المنطقة التي تقبع بدورها في مركز مدينة كولونيا؛ لم أنقطع عن زيارتها، حتى أني بتُّ أشعر حيالها شعور البيت، لا المكتبة العامة. تُعيرني هذه المكتبة/البيت، روايات بلغتي الأم، تسمح لي بالجلوس متأملة ساهمة صامتة وشاردة، وتتلقّفني. تدفعني إلى الخطو الهادىء في الأزقة بين كتبٍ مرصوفة فوق رفوف، أستشعر رهبة كنوزها، ونفحات المعرفة المنبعثة منها، فأعدُها بصمت، أن أعيش أمكنتها وأزمنتها إن استطعتُ يوماً إتقانَ لغتها. أصعدُ الأدراج وأنزل متنقلة من طابق إلى طابق. ذات صعود، بينما كان يطحنني الشوق إلى «مكاني» هناك، إلى سوريا، ويخلخل كياني الحزن حيال جرحها الغائر، ويخضِّبني شعور معذِّب بوصفي «ناجية»(هل حقاً أنا ناجية؟!)؛ عثرتُ على مكانٍ كمَن يعثر على كنز في جزيرة مهجورة، تنتظر وتترقّب وتتلوّى. نبَّهني المكان حين عثرتُ

عليه أو تعثّرتُ به، إلى كونه مكاناً أيضاً، وقد يكون لي وطناً أو كوناً. المكان هو غرفة بسيطة تُدخلكَ عالمها العظيم ببساطة عظيمة. عالم يُفصح عن نفسه ببساطة سهول وغابات ليس لآخِرها آخِر. شدّتني من أعماقي بساطة تلك الغرفة الصغيرة ذات الأثاث البسيط الدافئ: سرير خشبي صغير يبدو كأنه منذور لنداءات الغابة الأولى، يغطّي فراشه حِرام خفيف خفة ألوانه ورشاقتها في الأحمر والأزرق والأخضر والبنّي والأبيض، استلقت فوقه كتب ذاوية من فرط الأيام وشغف القراءة، وثمة طاقية شتوية، عُلِّقت بالقرب من قناطره الشاهدة في حنوّها وتقوّساتها، على أحلام ورؤى وخيالات وأجنحة. سجّادة صغيرة مربَّعة الشكل، يقف فوقها مكتب خشبي يعلوه هاتف قديم وقرطاسية وأوراق وظروف رسائل بريدية قديمة، وفنجان قهوة منتشٍ بالارتشاف بعد ساعات طوال من العمل، تحيط بهذا كلّه رفوف مرصوفة بالكتب. إنها غرفة عمل الأديب الألماني المولود في مدينة كولونيا، هاينرش بول(1985-1917). في حضرة الأمكنة المهجورة، يصبح استحضار الأرواح على أشدّه. تنعجن أرواح الحاضرين مع أرواح الغائبين، ويشرع الخيال بنسج القصص والروايات حول أناس كانوا «هنا»، وعاشوا «هنا»، قبل أن يرحلوا تاركين آثاراً تتركها كثافة المكان في حضنها، لكي تمارس بقاءها في صمت مهيب. هكذا راحت روحي تنعجن وروح صاحب هذه الغرفة البسيطة المهجورة. إن أعظم الأمكنة هي تلك التي تُشعرُك بأنك إنسان، وأنا في كل مرّة أقف فيها

متأملةً غرفة هذا الأديب، أشعر في روحي تحلّق، وأفكر في أنه بقدر ما تقزّمنا وتحجّمنا وتحطّ من شأننا الغرف الفخمة والضخمة لذوي السلطة التافهة والنفوذ التافه في كل مكان وكل زمان؛ بقدر ما نشعر بأننا عظماء أمام بساطة عوالم العظماء من البشر. أحياناً، يكون فهم الشيء معناه أن نجد فيه شيئاً منّا، وأنا وجدتُ في غرفة هاينرش بول، شيئاً منّي، من غرفتي هناك، من ذاكرتي.

بساطة غرفة هاينرش بول مهمة إلى درجة «بيت بلا حرّاس»، ولا محلّ لإيمان الأديب هنا وكفره فيما يخلق. أوليس هو الخالق؟! إنها بساطة غرفة، تشدّ إلى التفكير في مفهوم البساطة في حد ذاته ولذاته. في البساطة، تتدفّق الأفكار من القلب، فتغدو فجراً لكل معرفة، وكل حدس، وخَلقاً للصور وتكويناً للمفاهيم. البساطة هي رفضٌ لكل ما من شأنه أن يوقف الحياة في قانونها الأسمى الذي هو الاستمرار. ومن خلال البساطة، تتغلّب الإرادة الواحدة الكبرى على الإرادات الجزئية المبعثَرة والممزَّقة، مستأنِفةً الطواف من الحياة إلى الفكر، ومن الفكر إلى الحياة، وببراعةٍ «سقراطيّة» عارفة، تُوقع غير العارف في الاضطراب.

***

تحتاج الفخامة والضخامة الخارجية الصادرة عن خواء داخلي،

أي خواء الروح والعقل والقلب والوجدان، إلى الكثير من الكذب لكي تملأ هذا الخواء. تقتلان كل ما يمتّ إلى الحياة بصلة في سبيل الحصول على ذرائع تسدّ بها الخواء، لكن عبثاً تفعلان، فلا الخواء يمتلىء، ولا الكذب والقتل يتوقّفان! بيدَ أن ثراء الفكر في البساطة يتحوّل إلى موقف حيوي جوهري، أو إلى حركة حياة صوب الحياة، تتحرّر فيها النفس من كل ثقل، وتلتمع أعظم التماع.

«لكنها صغيرة جداً»، قالت بشيء من الامتعاض حسبما بدا لي، بينما كنّا بالقرب من كنيسة جميلة المبنى وبسيطة، في قرية نائية ووادعة لا تبعد كثيراً عن مدينة كولونيا، وبينما كنتُ أعبّر عن إعجابي ببساطة تلك الكنيسة وحنوّها. ثم أخذ الحوار يتعمّق، فقلتُ: «هكذا يجب أن تكون الكنيسة، بسيطة بساطة المسيح نفسه. إن الضخامة والعملقة، والصلبان الباذخة الفخمة ليست من الإيمان الحقيقي البسيط في شيء». قالت: «البعض يرى في المسيح، شخصية ضعيفة». أجبتُ: «لقد كان المسيح قوياً قوة البساطة نفسها، وعظيماً عظمة البساطة نفسها. إن الفخامة والضخامة اللتين تُخمدان شعلة القلب، لتشعلا نيران الجشع، هما آفات لا تمتُّ بصلة إلى الإيمان الحقيقي». ترى ما معنى أن يكون الـ«صليب بلا حب»؟ سؤال أشتقُّه هنا تيمّناً بإحدى روايات هاينرش بول. في البساطة هنا، سحر يتحدّى ألوهيّة البذخ والفخامة والضخامة والسلطة والثروة، ويدفع تالياً،

إلى خرْق نظامٍ خلقَته هذه الألوهية الزائفة، ومن ثم التمرّد عليها.

البساطة هنا، هي بصيرة مباشرة، تختلف حتماً عن ذاك التبسيط المفتعَل. «تجميل الفقر» مثلاً، ليس ببساطة، ولا ينفع الفقراء في شيء، التماهي الرمزي وفقرهم عبر ارتداء جينزٍ ممزَّق على سبيل الموضة. هل يشعر مَن يلبس الجينز الممزق ترَفاً، بأوجاع من مزَّق ثيابَه الفقرُ والبؤس والتشرد؟!. لا تنفع الفقراء أيضاً، أيديولوجيات فخمة وضخمة، «اشتراكية/رأسمالية»، و»رأسمالية/اشتراكية» متسلطة مستبدة، تخدم وحوش السلطة والنفوذ والمال متوسّلةً إلى ذلك بوسائل تمجيد الفقر والفقراء عبر الإبقاء على فقرهم، بل الاستمرار في إفقارهم أكثر فأكثر!. إن تبسيط الفقر أو تمجيده، إنْ هو سوى ضرب من فقر روحيّ وإنسانيّ.

البساطة هنا، هي بصيرة مباشرة، تقف ضد القتل الناجم عن ضخامة وتضخيم السلطة والثروة والنفوذ الأعمى، لكنها حتماً ليست بمغرمة بالفقر، بل تسعى إلى هزيمته بكل الأشكال. إنها البساطة الأنيقة الرفيعة التي تشير إلى فيض اللانهاية، والتي تُعلي من شأن الإنسان والكرامة الإنسانية والحياة المحترمة التي يجب أن ينعم بها البشر، كل البشر.

جارة السماء

حين كانت تفيض روح أمي قصصاً وحكايات، في كلٍّ من الليالي العاصفة الزمهريرية والهادئة الحانية، لم يكن قد انقضى من عمري أكثر من عشر سنوات. كانت أمي تقصّ حكايات يتمحور بعضها تارة حول صعود إلى عالمٍ ما علويّ عبر ارتقاء مائة درجة، وطوراً حول نزولٍ مخيف إلى عالم ما آخر سفليّ مظلم عبر هبوط مائة درجة. غالباً ما يكون الارتقاء في تلك الحكايات بمثابة مكافأة على فعل ما، أو عفو ما أو ما شابه، أما النزول فقد يكون بمثابة عقوبة على فعل ما، وأحياناً أخرى يكون بمثابة كدح يبتغي ملء جرّة مثلاً بسائل الحياة (الماء) الذي ينزّ في الأعماق، والصعود من ثم، رويداً رويداً برفقة الجرة المملوءة، إلى حيث ينكشف النور في الأعلى. موهوبة أمي في رواية الحكايات، فقد كان أسلوبها يدفع بمخيلتي صوب الاتقاد، لتستحيل مشاعري أمواجاً تعلو وتهبط، تجزر وتمتد متناغمة وإيقاع أسلوبها.

تأخذني «جارة السماء» إلى الأدراج في حكايات أمي، كلما نزلتُ وكلما صعدتُ، منها وإليها. مضى على صداقتي و«جارة السماء» هذه، حتى لحظة كتابة هذه السطور، نحو سبعة أشهر. أخرج مرات عديدة في اليوم، نازلةً أقل بقليل من مائة درجة، وأدخلها في المقابل، مرات عديدة في اليوم، صاعدة أقل بقليل من مائة درجة. يبدو صعود

الأدراج وهي تُشاهد أمام النواظر كيف تتلاشى في الوراء، واحدة في إثر أخرى، كمثل تطور إنسانيّ خلاّق صاعد صوب تحقيق كينونته المتمثلة في «الفوق»، في العقل، في الضمير، في الاستشراف، في الكلمة، في الفن والجمال والمخيلة المجنّحة، في التفرد والفرادة. يبدو هبوط الأدراج في المقابل، كأنه نزول إلى ماضٍ سحيق، إلى ذاكرة غابرة، أو إلى ال»هو» حيث تقبع هناك أسرار مهولة.

***

نتقاسم أنا و»جارة السماء»، هدوءاً وموسيقى وسماءً وغيوماً ورذاذاً وأمطاراً تسيل على الزجاج، وخيوط شمسٍ لا تُرى من شدة ميلان نافذتين مفتوحتين على الداخل أكثر بكثير من انفتاحهما على الخارج، كمثل عينين مغمضتين نصف إغماض، مفتوحتين على كون الذات الفسيح العميق. نتقاسم أيضاً عيشاً ونبضاً وقصصاً وحكايات، أفكاراً وتأملات وذكريات واستشرافات وإشراقات. لمَ لا وهي غرفتي في «الصعق» المجهول هذا؟ هي كوخي الخشبي البسيط هنا، في مدينة كولونيا الألمانية. يسمونه «منفى» وأسميه «صعقاً»؛ لاعتبارات تخصّ حياتي من حيث هي صعق وعشب. سلوا الدروب إن شئتم، ستقول لكم كم أنا سؤال ملتهب، يكتوي بناره مَن يجرؤ على الإجابة عنه إجابة قاطعة. منذ أيام، بينما كنت أحاول لملمة كلماتي المتشردة لإيوائها في دفتري؛ ركلتُ هاوي كرة، اكتشفتُ أنه

كاذب كرة. «اكتشفت»؟! منذ البداية أعرف أنه يكذب، لكني أحياناً «أهوى» لعبة تصديق الكذب التي تفضي إلى حرقه لاحقاً حرقاً لا تقوم للكذب قائمة من بعده. ناري ليست كأي نار. كهربائي ليست كأي كهرباء!. يسمونه «منفى» وأسميه «صعقاً»، منسجمةً وشجرة يتيمة ما انفكت تطير وتستحيل عشباً وصعقاً. لم تعرف هذه الشجرة يوماً حضن الوطن بوصفه أمّاً، ولا حضن الأم بوصفه وطناً. متقاطعةً ولوحة تشكيلية يتنازعها تمزيقاً ضدٌّ ومع، لا ضد ولا مع، شرق وغرب، صعق وصعق، غربة وغربة في آن واحد. لوحة جميلة آسرة، تعبّ من «العتمة» زاداً ربما يكفي لألف عام أو أكثر.

***

على النقيض مما يثيره فيّ الهبوط من «جارة السماء»، يثير فيّ الصعود إليها خيالات أدراج لا متناهية، تدور حلزونياً وصعوداً صوب السماء، مقتربة أكثر فأكثر من صوت كوني إلهيّ مهيب. كلما صعدت درجة، اقتربتُ أكثر من وحدتي التي أحب، لا تلك التي تعكّر صفو العقل والقلب. أبتعد بالوحدة الجميلة عن الوحدة القاتلة القتيلة، عن عدوانية الخارج والخارجيين، وعن ملل الهبوط اليومي. اليوم(15كانون الأول 2016)، وأسوة بأيام قليلة سبقتْه، لم أهبط (أذهب) إلى حيث يُفترض تعلُّم «الاندماج». اندماجٌ وسعيٌ لوأد روح حرة وأداً «مغلّفاً بالأناقة» كيف يستقيمان يا ترى؟!. حسناً..

لكني سأواصل بقدر ما أستطيع، تعلّم لغة بلدٍ لجأت إليه وأبقاني في حمايته، وأعيش «مع» ناسه و«بينهم»، خصوصاً أنه ما من شيء يجعلك تفهم عوالم الآخر المختلفة أكثر من فهم لغته، فاللغة ليست فقط أداة للتواصل، وهي ليست مجرّد إشارة إلى حالات شعوريّة، بل هي أيضاً تشكيل للعقل.

فضّلتُ اليوم بدلاً من الهبوط (الذهاب) أن أقرأ في رواية رفيق الشامي «يدٌ ملأى بالنجوم». قرأت في الرواية عن «عصابة اليد السوداء»، تلك التي شكّلها ثلاثة فتيان. في الحقيقة، هي عصابة أرادوا لها أن تكافح بالقلم من أجل العدالة، أعداؤها المخبِر والبقّال الذي لا يكفّ عن غش أمهاتهم. كان أول منشور خطّته هذه «العصابة» وألصقَ على باب منزل المخبِر هو:»إنذار من عصابة اليد السوداء! إذا قدمت إخبارية على أحد سكان هذه الحارة مرة ثانية، فسيكون حسابك عسيراً أيها الجاسوس». سرحتُ بينما كنتُ أقرأ عن هذه «العصابة»، في قصة مشابهة واقعية وحقيقية ليس فقط من جهة وقوعها فعلاً، بل هي حقيقية من جهة بُعدها الإنساني والجمالي والأخلاقي. هي قصة حدثت يوماً ما قبل اندلاع ثورة الحرية والكرامة السورية عام2011، في بلدتي صلخد جنوب السويداء، حيث قام فتيان لم يُنهوا بعدُ المرحلة الثانوية، تملأهم الحماسة والشغف بحياة يمهرها طابع المغامرة والمخاطرة، بكتابة حقيقة

مدير المدرسة بوصفه فاسداً ومستبداً، على جدران مدرستهم. ثم بدأ تداعي القصص يتوالى في رأسي، فسرحتُ مجدداً في قصة واقعية حقيقية أخرى، أعني تلك التي كانت بمثابة شرارة الثورة المذكورة، حين كتب بعض من الأطفال في درعا على جدران مدرستهم حقيقة مَن يرأس البلاد بوصفه الفاسد الأول، والمستبد الأكبر. سرحتُ في ذلك كله، وأنا أفكر في كم هي ملهمة مثل تلك القصص الحقيقية الواقعية لإنتاج أدب خالص رفيع وخالد(إن الكاتب خالق، والقارىء نافث الحياة في الخالق). في اليوم نفسه، فكرتُ في أن أكتب مقالاً نقدياً أقول فيه رأيي في «الاندماج»، وماذا يعني بالنسبة إليّ، بعدما سئمت هذه المفردة المكرورة بشكل آليّ إلى درجة يُفقدها أحياناً معناها. بالنسبة إليّ أفضّل مثلاً أن تكون المسألة «تفاعلاً ندّياً»، لما قد يجرّ إليه «الاندماج» من حيث يدري المنخرطون فيه أو القائمون عليه، أو لا يدرون، إلى معانٍ من قبيل «الإذابة» مثلاً، حيث تذوب الخصوصية والفرادة في السائد، وما السائد بالنسبة إلي سوى سلطة وتسلط، اختزال واختصار أو شطب. مؤلمة بعض مشاهد التزلف والاسترضاء من جانب بعض اللاجئين المستعدين لتنفيذ كل ما يمكن أن يُطلب إليهم، حتى لو اقتضى الأمر أن يكونوا متواطئين أو مخبرين عن لاجئين آخرين هم من أبناء الوطن الأم نفسه (يالهذا ما أقساه!) أو العكس، حيث يمور عداء أعمى حيال الآخر الغريب، واستعداء تام لقيمه وتقاليده ومعتقداته وتصوراته وحميمياته وخصوصياته.

غير أني، ومن دون تخطيط، أراني منبثقة وصادقة. سجيّتي مجلوّة في سرّائها وضرّائها، في صوابها وخطأها. ولأني أحترم الآخر بوصفه ذاتاً؛ أتعاطى معه بوصفي ذاتاً حرة، بندّية وبكرامة وكبرياء. تزيل الندّية هذه مشاعر الدونية والعدوانية حيال الآخر في آنٍ واحد، لأنها أخذ وعطاء، جدل، حوار منتج، فرادة في مقابل فرادة، وخصوصية في مقابل خصوصية، لا انصهار ولا استعداء ولا تصورات أو أحكام مسبقة.

***

يظن بعض الفقراء روحياً، منطلقين من «صورة نمطية» عن اللاجىء، أن شراء هذا الأخير تحفة فنية مثلاً، هو مما يدعو إلى الاستغراب، أو في الحد الأقصى إلى التندّر، ولأني ثرية الروح؛ آثرتُ إهداء «جارة السماء» ما إن ولجتُها، نحاسيات اشتريتُها من سوق «أنتيكا» مقتطعةً ثمنها مما هو مخصص للطعام والشراب. نحاسيات عادة ما يُظنّ أنها تصلح لمنزل كبير، لا لغرفة كمثل «جارة السماء». لماذا مثل هذا الإهداء؟ لأن مكاناً أكون فيه، يعني إمكان أن يصير ركني الحميم في هذا العالم. وإذا كان المكان، يشكو البؤس في المعنى الماديّ، فمن شأن انوجادي فيه، منحه كرامة الجمال، وجمال الكرامة. ف«مالي ومال» سخريات فقراء الروح وتقريعاتهم! مصرّة أنا على زركشة أركاني في هذا العالم بما أحب وبما يمنح للأمكنة المهمَلة والمهمشة أجنحة

عادلة. وأكاد أقول «إني أعيش كل الأمكنة التي عشتها سابقاً مرة أخرى كحلم يقظة»، فتكتسب الأمكنة بهذا الحلم ملامح إنسانية، وتستيقظ الطفولة كلما استغرقت في النوم إلى حد الظن بالموت.

***

«جارة السماء» هي سقف، يقي من غضب الرعود وقسوة حرارة الشمس. يقي كذلك من الحضيض، لأن الحياة والأفكار الصافية تصير محمية في الأعلى. في يوم 5تشرين الأول عام 2013، نُشر لي في الملحق الثقافي لجريدة «النهار» اللبنانية، مقال تحت عنوان «اللجوء السوري: رحلة العذاب والكشف من اليقين إلى الممكن»، تساءلتُ فيه: «تُرى كيف يشعر اللاجئ، في خلوته الداخلية، الجوّانية، العميقة، الفريدة. هناك، حيث تكون الذات خالصة، في حد ذاتها ولذاتها، مجرّدة؟ كيف يشعر مَن اعتاد ممارسة وحدته الخالصة في حجرته الخاصة، ثم فجأة، صار لزاماً عليه أن يكون كائناً عاماً، يتقاسم والجموع خيمةً واحدة، غرفة صف واحدة في مدرسة، مهجعاً واحداً، أغطية مشتركة، وأدوات طعام أو تنظيف مشتركة؟». ما كنت لأتصور، حين كتبتُ ذلك المقال، باذرةً فيه تلك الأسئلة الممضّة، أن الأيام ستروح وتجيء، لأصير أنا نفسي في موضع مَن كنتُ أكتب عنهم!.

أحبُّ «جارة السماء» لأنها أيضاً وخصوصاً، كانت السقف/العلو

الذي خلصني أخيراً من الحضيض، من محنة الاشتراك مع الجموع في التفاصيل اليومية والمكان. محنة على هيئة «Camp» مثلاً أو ملجأ. بخبث شديد وسرّي، كان يجري إرسال «حثالات» البشر إليّ، لكي تتسلل إلى معناي. ولأني كنتُ، طوال سنوات طويلة سابقة، في حلّ من تعب هو أقرب إلى الانهيار جراء الصراع المديد في بلدي؛ كانوا ينجحون أحياناً في النيل من معناي، قبل أن أعود وأستعيده، وهكذا على طريقة الكر والفر. ما السبب «الكامن» خلف ذلك، الذي يدفع إلى ربط الأحداث كلها بعضها ببعض؟ السبب هو نفسه مستمر من سوريا حتى هنا، هو كوني كاتبة ثائرة، وثائرة كاتبة، مثلما أن «المصدر» الحقيقي للأحداث هو نفسه أيضاً. في معنى ما، جرجرتني تلك المحنة إلى قاع كان بمثابة برهان جديد بالنسبة إليّ يدلل على تهافت كل ما من شأنه أن يفضي إلى تبديد الفردية والحياة الشخصية والحرية الشخصية وإهراق هذا كله على قارعة العمومي والمشترَك. هناك، في سوريا، في بيتي النائي في الكروم، في غرفتي، كنت أعيش وحدة من طراز رفيع وعزيز (بصرف النظر مؤقتاً عن أيام العزلة العصيبة الممنهجة التي قاسيتها. العزلة ليست نفسها الوحدة). في وحدتي الجميلة النبيلة تلك، كنت أقرأ الكتب وأكتب نصوصي. حتى أمي ما كنت لأتقبّل أحياناً ولوجَها تلك الوحدة إذا ما حاولتْ. فجأة، وجدتُني في «الضوء الفاجر»، متروكة وحدي أواجه مصيراً أعمى!. أحدٌ لم يصدّق كم كنت محتاجة إلى مَن يحميني ويكون معي. أحدٌ لن يصدّق

أن كل «التخبيصات» على المستوى الشخصي، كان سببها عدم وجود حماية وسند.

منذ أوقفتُ عن الكتابة النقدية الثائرة، المتفكرة المتفلسفة في الصحف، في فرع «الأمن العسكري» في السويداء في الأول من نيسان عام2014؛ صارت حياتي الشخصية عرضة لـ«الضوء الفاجر»، ومذ رحلتُ وللمرة الأولى في حياتي، مهشَّلة هاشلة ومكرهة عن سوريا في يوم12أيار عام2015، بتخطيط خبيث مخابراتيّ سرّي مدروس؛ صارت حياتي الشخصية عرضة لـ«الضوء الفاجر» أكثر فأكثر، جرّاء استمرار الخبث المخابراتي نفسه والملاحقة والمتابعة. إنها جريمة سرية ارتُكبت عن سابق تصوّر وتصميم. يتربص العملاء صغار النفوس في كل مكان بالمثقف الحقيقيّ، ينسَّقون فيما بينهم وينقضّون متناتشين حياة شخصية، مفترسين كل نبيل وأصيل وذي قيمة ومعنى ومغزى وفحوى. (تيمناً بجوستين غاردر: أحياناً يكون جديراً بما مات في داخلنا، ألا يُستذكر إلا في صمت وتأمل وخشوع).

لا شك في احترامي النور إذ يكون عقلاً، والأنوار إذ تكون عصوراً ونهضات وانتفاضات وانبثاقات وإشراقات، غير أنه ليس لمثلي احترام «الضوء الفاجر» أو هواه. لقد أعماني هذا «الضوء الفاجر» وشلّ عقلي وروحي وبصيرتي، وسرق اختبائي وكنكنتي. هذا «الضوء الفاجر» هو خصمي القبيح وعدوّي ما حييت،(ولتنتبه الحياة إلى أن ما أعنيه

هو الضوء الفاجر تحديداً، لا الضوء). لماذا أحب العتمة في المعنى الفلسفيّ وأميل إليها، بل أحترمها؟ ربما يتعلق الأمر بلغز من ألغاز الحياة الأنثوية، أحدسه ولا أهتم كثيراً بكشف الستارة عنه. لكن يمكنني القول، إنه بقدر ما يكذب «الضوء الفاجر»، تصدق العتمة. في العتمة المنيرة يكنكن جوهرنا الحقيقي اللامرئي، الصعب والشاق، الذي يحتاج إلى مغامر فذ، ومتزوّد حقيقي بالحكمة والمعرفة والبصيرة لكي يستطيع النفاذ إليه، وقد لا يستطيع. ما ينمو بخفَر في حنايا العتمة الخصبة «يعبّر» عن نفسه أخيراً بطريقة ربما تشبه الطبيعة التي لا تقدر على الكلام لكنها «تعبّر» عما تودّ الإفصاح عنه بطرقها(قوانينها) الخاصة. إنما التشويش كل التشويش، والاستسهال والابتذال والتسرّع في الأحكام قادم من «الضوء الفاجر». العتمة صديقة للحمامة و(«تصطفل» الدول التي تختار النسر(القوة) شعاراً. في بلاد العتمة، بلادي، سأحتضن الحمامة والعصفور شعارَين(أغنيتين)، رقيقتين على غصنَي نهرٍ رقراق).

***

على طريقتي، أحدّثُ «جارة السماء» أحياناً، عن بعض ذكرياتي وذاكرتي، عن رحلاتي ومشاويري. منذ فترة علّقت لها على الحائط صورة غالية عليّ أحتفظ بها منذ سنوات طويلة، وشاءت الأقدار أن ترافقني في الرحيل. هي صورة لإحدى اللوحات الفسيفسائية،

حصلت عليها ذات زيارة لـ«متحف شهبا» في محافظة السويداء. تمثل اللوحة ربّة البحر تيتس، وهي حورية بوسيدون إله البحر عند الإغريق. تتوسط الربة بعينيها الذاهلتين اللوحة التي تمثل البحر، إذ في «الوسط» هنا ثمة إشارة رمزية تفيد المعرفة في عالم البحر وأسراره. تلعب أسماك البحر دور شَعر تيتس، وعلى جبينها تتلألأ نجمة البحر بوصفها إحدى تجلياته الجليلة الثمينة.

أحدّث «جارة السماء» أيضاً عن بعض مشاويري هنا في كولونيا. عن زياراتي مثلاً إلى متاحف هذه المدينة. حدثتُها بفرحِ النبيذ الأحمر عن «ديونيسيوس» الذي زرتُه منذ حوالي شهرين في المتحف الروماني. وكلّمتُها عن حزني حيال الصورة النمطية المكرورة أو الفكرة الواحدة الوحيدة المسبقة والمنطبعة في ذهن «الآخر»عن العرب وعن الثقافة العربية. قلت لها إني شاهدتُ الثقافة العربية، معروضة في أحد المتاحف إلى جانب ثقافات شعوب كثيرة أخرى. شاهدتُها مختزَلةً في محض جَمل وخيمة وأوانٍ ملقاة بضجر، وامرأة مستكينة متشحة بالسواد تقف خلف رجل تبدو عليه علامات التسلط والاستبداد في وسط صحراء قاحلة!. أخبرتُها عن هستيريا البكاء التي اجتاحتني حين رأيت صورة جدارية كبيرة لمدينة تدمر في متحف آخر، وكيف رحتُ كمثل مجنونة أكلّم المحيطين بي من الزائرين عن آلام هذه المدينة العظيمة وعذاباتها، وما يصيبها الآن على أيدي أعدائها ممن يتناوبون

على ذبحها بالسيوف تارة، وقصفها بالبراميل المتفجرة طوراً. أخبرتها كيف رحتُ كمثل مجنونة أقول للزائرين إني سوريّة وإن تدمر هذه تسري في شراييني، وتجوب نسغي وخلاياي. كيف؟ كيف تُعرض صورتها هنا في هذا المتحف، بكل ما يمهرها من عظمة وجلال، وتُدمَّر هناك، في بيتها ومطرحها، على أرضها؟!

أخبرتُ «جارة السماء» عن تلك الصورة المعلقة على الجدار في متحف ثالث. صورة مدينة كولونيا وهي محروقة ومسحوقة في الحرب العالمية الثانية. محروقة ومسحوقة بالكامل، وما من شيء فيها باقٍ على قيد الوقوف سوى كاتدرائيتها الـ«Dom»، ورحنا نقلّب معاً صور المدن والبلدات المحروقة والمسحوقة الآن في بلدي سوريا: حمص، داريا، حماة، إدلب، دير الزور، درعا، المعضمية، الزبداني، حرستا، دوما، مضايا.....حلب. حلب هذه المدينة العريقة المذهلة التي أبادها مؤخراً الروس والإيرانيون بمعية النظام الأسدي، أمام هذا «المجتمع الدولي» المتواطىء. ألهذه الدرجة لا يُراد لثورة الشعب السوري أن تُرى؟! ألهذه الدرجة لا يُراد لثورة الـ«ذات» أن تتنصر؟!. كلابٌ هنا لديها بطاقات هوية، وتتمتع بكامل الحقوق. وبشرٌ هناك، أطفال ونساء ومسنّين وشباب كمثل الورود والرياحين، يجوعون، يبردون، ينزفون، يُقصفون، يُعتقلون، يُعذَّبون، يُذبحون، يُهجَّرون، يُسلبون يُنهبون يُغتصبون..! ألهذه الدرجة لا يُراد لثورة الشعب السوري أن

تُرى؟! ألهذه الدرجة لا يُراد لثورة الـ«ذات» أن تنتصر؟!.

ناهيك بالتظاهرات الساخطة في المدن الألمانية الأخرى، وحول العالم، كنّا ألوفاً أمام «الـDom» هنا في كولونيا يوم 16كانون الثاني2016. ألوفٌ ترفع أعلام ثورة الحرية السورية، تحمل الشموع لأجل السلام في سوريا، تهتف لإسقاط النظام، وتقول لحلب «يا حلب حِنّا معاكي للموت»، وكان في سوريا، من قبلُ، ملايين الثائرين السلميين التائقين إلى الحرية. ألهذه الدرجة لا يُراد لثورة الشعب السوري أن تُرى؟! ألهذه الدرجة لا يُراد لثورة الـ«ذات» أن تنتصر؟!

قبل أشهر، مررتُ بتظاهرة كبيرة في إحدى الساحات الشهيرة بمركز مدينة كولونيا، يشارك فيها ألمانيون وألمانيات، عمال وعاملات، مضربون ومضربات، مريدون ومريدات رفع الأجور، وتحسين الأوضاع الاقتصادية حسبما قالت لي إحدى المشاركات. كانوا يعبّرون بحرية عما يريدون، ولهم ساحة ومنبر إعلامي، وكل شيء. هؤلاء كانوا يطالبون برفع الأجور، لا بالحرية، كون هذه مسألة بدهية يكفلها الدستور أو القانون هنا ومفروغ منها، إذ لا شخص هنا ولا حزب في إمكانه أن يكون فوق القانون. المتظاهرون السلميون المدنيون في سوريا، الذين كانوا يخرجون إلى الشوارع حاملين الورود وأغصان الزيتون، توّاقين إلى حق مقدس من حقوق الإنسان، أي الحرية، لماذا قُتلوا، واعتُقلوا، وقُصفوا، وهُجروا، وشُردوا؟! ألهذه الدرجة لا يُراد

لثورة الشعب السوري أن تُرى؟! ألهذه الدرجة لا يُراد لثورة الـ«ذات» أن تنتصر؟!

سادساً: رواق

وريقتان:

الوريقة الأولى: إلى ماريان اسماعيل

ها أنا أكتب إليكِ على ضوء الوجدان. كمثل شقائق تتفتّح على مَهل. تذوي على أقلّ من مَهل...، وسط شمعة مشتعلة متطاولة. يفور نبع روحي وينبجس وأنا أكلّمكِ الآن، راغبةً في الردّ على رسالتكِ إليّ في صفحتكِ على «فايس بوك». أناديكِ منكِ، بعدما غرقتُ في مائكِ. ماء نصوصكِ. فما ستقرئينه في الآتي من رسالتي هذه، المكتوبة على وريقة خضراء مستلّة من أقرب أشجار الكرْم إلى قلبي، محمَّل بضوء روحكِ، وبحرْفية جُملكِ بين هلالَين. بين شمسَين، قمرَين، شعلتَين، قنديلَين. أيتها الأميرة الطيّبة، سَلي مرآتكِ عن جمال الحرف والروح. عن الثلج والبياض فيهما، عن التراب والسمرة، الورد والحمرة، السماء والزرقة، العشب والخضرة.

منذ القديم، نحن صديقتان. ليس منذ «المعلم الأول» فحسب. لم

يكن ديوشين بطل رواية جنكيز إيتماتوف تلك، فقط معلّمنا الأول، البسيط الطيب، عاشق الكلمة والحرية، وحامل الأطفال على ذراعيه، عابراً بهم النهر واحداً تلو الآخر، إلى إسطبل مهجور أهّله ليصبح مدرسة لتعليم أطفالٍ شاءت الأقدار أن يولَدوا في قرية فقيرة لا مدرسة فيها، ولا تعليم. بل أيضاً كان بمثابة القدَر الذي جعلَنا أنا وأنتِ نلتقي مجدداً، روحياً وفكرياً وإنسانياً.(على سبيل الاستدراك. كم حاجتنا عميقة يا ماريان، إلى ديوشين(يين)، يعيدون الروح إلى ما بقي من مدارس في بلدنا سوريا، الممزَّقة المنكوبة المدمَّرة، ويحملون على أكتافهم وظهورهم وأذرعهم ملايين الأطفال الذين صاروا بلا تعليم، بعدما آثر طراز من المستبدين المجرمين، غلق المدارس، وآثر طراز آخر منهم، تحويلها اسطبلات للتوحش. بعدما حوّل هذا الطراز المجرم وذاك، أطفال بلدنا يتامى وموتى، معاقين ومشوَّهين ومشرّدين!).

***

قد يكون الأنسب للروح، كلما تشقّقَت عطشاً، أن تعبّ من»إيمانكِ» بأن «الطفل الذي لم يتفسخ بعدُ، سهل عليه فوق الجثث المنحنية كأقواس حتى قدميها، أن يرى السلطان، يقرقع بكعبَي حذائه أرضاً افترشها بجلود الأموات. صارخاً:»اركعوووووووا». وثمة مَن يجيب: «»إنّا لنصطف صفوفاً وأرتالاً، ونبسط أيدينا على الأكتاف ونتماوج

في رقصة مع الحياة، في رقصة مع الموت، سنتماهى مع الضوء الذي لامس أعيننا بعد العماءِ فأحيانا، نرقص إلى الأبد.. مَن تعلّم الرقص لا يَفنى يا ولد». قد يكون الأنسب للروح كلما شارفَتْ على هاوية يأسٍ غير مثقوبة، جرّاء نقص العطر، أن تستأذنكِ في استعمال «عطركِ الذي من نوع خاص». العطر الذي يبدو اليوم «أقوى وأكثر ثباتاً وتشبثاً وحيوية، يمزج في تركيبه خلاصة خشب الصندل، الزعفران، زهر البرتقال، جوزة الطيب، العنبر والمسك، ومضات من الزنجبيل والكرز الحامض والبرقوق والخوخ والكمثرى، إيحاءات الياسمين وخشب الماهوجني والأوركيد الأسود، عبير زهرة القمر ورائحة الفانيليا. هذا العطر الغني والغناء يضج بالإثارة والقوة والنعومة، يبوح بالبساطة والتعقيد، بالشفافية والغموض، يسرّ بالسكون والتأمل، بالحماسة والحكمة، بالسحر والشغف والإبداع، يدعو للانتباه والترقب، يسعى للانعتاق والإنطلاق، ويندلح بالعشق والتصوف». قد يكون الأنسب للروح كلما هامتْ على وجهها، أن تعمل بوصيّة نقشٍ محفورٍ في «أسفاركِ»: «من جسرٍ عتيق أُنثريه، واسكبي عطرك على وجه النهر، علّي في تجوالي الطويل أَغتسلُ به.»

***

كنتُ ولا أزال أقول: ما الطمأنينة سوى لهْو يجيده ممتهنو الأرواح المتيبّسة، لأن العدل يقتضي اللّهاث وإضرام الأسئلة في قلب اليقين.

فأن تكون أنت ولست القبيلة: فاتحة البحث، وأن تلهث بحثاً عن سؤالك المفترَض: فاتحة الإشراق. مع «نوافذكِ المعرّشة»، أراني كمَن يعود من الأصقاع البعيدة إلى بيته. أراني، أنا المفتونة بنقر العصافير على شبّاك غرفتي، عاشقة طمأنينة من نوع خاص، معانقةً حكمة بوذيّة محفورة على شاهدة قبر نيكوس كازنتازاكسي: «لا آملُ في شيء، لا أخشى شيئاً، أنا حُرّ/ة».

***

أيتها المرأة المزركشة بزخرف شركسيّ الروح والجمال، مَن يدري؟ ربما يجيء يوم خاص نلتقي فيه واقعياً. نستلقي تحت شعاع شمسه على عشب الحرية. تعلمين كم أحبُّ العشب، مثلما أعلمُ كم أن «الشمس لا تزور مدن الموتى والرماد». «للجبين أن تلوّحه الشمس، وللقدمين أن تبتلا بندى العشب».

الوريقة الثانية:

الأمير ريان

1

أتعلمين يا ماريان أن ابن شقيقي ريّان، اقتربَ من السنة الخامسة من عمره؟ وأنه مع مرور الأيام، تطلّ صباحات أسئلته أكثر فأكثر؟ إحزري ماذا سألني هذا الأمير الصغير/الكبير(أمير على طريقتي هذه المرة)، حين كُنّا نلهو أنا وهو مع سلحفاتنا التي التقيناها مصادفة، قبل مدّة، بين الحشائش قرب البحيرة؟ سألني: «الزِّلِحْفِي (السلحفاة) بتعرف حالها إنها زلحفي»؟ انحنيتُ للسؤال هذا، على طريقة صديقي جوستين غاردر في الانحناء للأسئلة بروايته «هل مِن أحدٍ هناك؟».

لكن، وقبل أن أقرّر أخيراً الاكتفاء بالانحناء للسؤال؛ كنتُ قد استرسلتُ في محاولة منّي تقديم «إجابة». قلت، بصوت مسموع لريّان تارة، وطوراً كمَن يتكلّم في دياجير الداخل والأعماق: إنّ وعيَ الذات، والشعور بالأنا خاصّان بالكائن الذي يسمّونه إنساناً. هذا الكائن ذو الطبيعتين، الإنسانية والطبيعية، وربما بانفصالٍ نسبيّ عن تلك الأخيرة بدأ وعيه بذاته. الانفصال الذي لم تستطعه، على ما يبدو، بقيّة الكائنات ومنها السلحفاة، فظلّت «مخلصة» لمحضِ

غريزة، لطبيعة طبيعية فقط، للاغاية، للامعنى، للاهدف، للاذاكرة، للاذهنية محكومة بترّهات الأيديولوجيا و»المعارف» مسبقة الصنع والرؤيا. ثم إن «سلحفاة» ليست سوى كلمة عربية، ثمة مَن أتقنَ نحْتها، على ما يظهر مِن حروفها المنتقاة بعناية ودراية(سُ.ل.ح.ف.ا.ة)، لتتناغم إيقاعاتها والبطء، دفء البيت وحنوّه، وغير ذلك مما استُلَّ ربما من ملاحظةِ كائن بطيء، يحمل فوق ظهره صندوقاً عظمياً مغطّى بحراشف قرنيّة صغيرة، يخرج منه عندما يحسّ بالأمان ربما، وينحشر فيه حالما يحسّ بتهديد خارجيّ، نزّاعاً إلى الاختباء.إنها كلمة من كلمات ما انفكّ يبدعها كائن يفهم، يعقِل، ويتوهّم، يُسمَّى إنساناً، لغرض العثور على الواقع ربما، أو القبض عليه بالكلمات والتسميات والمفردات. إنها لعبة الإنسان في الاستمرار في بناء أوهامه، وأحلامه. فباللغة، بالخيلات والمجازات، يكبر الإنسان الحالم. تستريح الإجابات آنئذ وتستيقظ الأسئلة. تكبر الحياة النفسية وترتفع. وهيهات أن تعقِل السلحفاة هذا كله.

لتصريف الهمّ اليومي ربما، يدرك الإنسان وهو «يتّكيء» على فانتازيا. ربما أيضاً، لشعوره الواضح- الغامض، بعبث الحياة والموت، والوجود والعدم، يلجأ إلى «تسلية» لُغويّة. إلى ألعاب من شأنها «عجْن» الكائنات بتسميات، وتشكيلها بحسب ما يراها. في مؤلَّفه «العالم كإرادة وتصوّر» كتبَ شوبنهور يقول: «لا يعرف الإنسان

شمساً ولا أرضاً، وإنما يعرف فقط عيناً ترى شمساً ويداً تحسّ أرضاً، وأنّ العالم الذي يحيط به إنما يكون قائماً هناك بوصفه تصوّراً فحسب».

ولأن البشر محكومون بذهنية الأيديولوجيا، يسيئون أحياناً إلى أنفسهم فضلاً عن إساءاتهم لبقيّة الكائنات. هكذا، تنال الحكاية – الوعظ، من فرادة السلحفاة الماثلة في البطء، في الثقل الناجم عن حمْل صندوق عظميّ فوق الظهر، في اللاغاية، في اللاتنافس؛ فتقسرها على أن «تسبق» الأرنب السريع المغرور الساخر من بطء السلحفاة، خصمه في «المسابقة»، «منتهِزةً»، «مستغِلةً» فرصةَ نومه، من أجل «الوصول» «قبلَهُ» إلى «الهدف»، إلى «المصير والمآل الأخير». الأمر الذي قد يدفع إلى التساؤل: تُرى هل البطء أقلّ أهمية من السرعة؟(السلحفاة بطيئة. الأرنب سريع. هي هكذا. هو هكذا. كينونتها البطء، وكينونته السرعة).هل نهاية الطريق أهمّ من الطريق نفسها؟ ماذا عن جدارة السلحفاة في الفوز؟ أعني الجدارة التي لا تكون سوى في التزامن ويقظة الأرنب، لا في استغلال فرصة نومه. ولماذا، أخيراً، لا تكون السلحفاة – إن كان لا بدّ من الوعظ- معلّمة البطء الجدير. بطء الزمان و»صبره»، في عصرِ سرعةٍ مُمضة ومُهلكة؟. السلحفاة هي السلحفاة. البطء هو البطء. لا تلك ستتوقف عن مواصلة الحياة بطئاً، ولا ذاك سيكفّ عن التعبير عن نفسه انطلاقاً من كونه بطئاً.

2

أغلبُنا تساورنا رغبة خاصة في تعليم الأطفال، لكن التعلّم منهم قد يكون أهم. كنت قد انتهيتُ للتو من قراءة حروف اللغة العربية على ريّان المُنصِت، قبل أن أسأله، لغرض المراجعة، عن الحرف الذي تبدأ به أبجدية اللغة نفسها، متوقِّعة أن تكون إجابته، ألفاً ممدودة. فجاءت إجابته، من حيث لا يدري ربما، مشاكِسة، مشيرة إلى رشاقةِ لعبٍ وسحرِ طفولةٍ باسِمة: «فينا. فينا» (بنا).

ها قد أخذتُ حكمةً من فمِ طفل. فإذ تبدأ الأبجدية (بنا)، تغدو اللغة المنسوجة منها، شعلةً لها دور نفسانيّ، يتعلق مثلاً، بنفسانيّات أفراد العائلة والبيت والحياة العائلية. تصبح آنئذ، متصلة بالحياة الحميمة. تصبح روحاً. تنفتح على مغامرات حُلميّة، على سلالم لا متناهية. هكذا، تكون الأبجدية كلها لنا ومن أجلنا.

3

كلّما كذبَ أحدٌ من الكبار عليه، ومهما يكن الكذب ناصع البياض، يردّ ريّان (ريونة): «كأنّو أنفك طِوِلْ شوَي!»، مستلهِماً الدُّمية الخشبية «بينوكيو». تلك القصة الجميلة التي كتبَها في العام 1880 الأديب الإيطالي كارلو كولودي. حيث، لن يصبح الإنسان(الصّبيّ في القصة نفسها) إنساناً(صبيّاً) حقيقياً ما لم يرتقِ صاعداً سلّم القيم

الإنسانية والجمالية والأخلاقية. ما لم يتعلّم كيف يكون شجاعاً، صادقاً، و«مش أناني». عدا ذلك، سوف يبقى مجرّد دمية خشبية بأنف طويل مضحك.

الفراشة

إذا كانت بنفسي حاجة ملحة الآن للتفكير قليلاً ومؤقتاً، في غير القهر والحرب والمأساة والرعب والظلم والحزن والألم والفقر والجوع والتشرّد والبؤس والقتل والدمار والخراب العميم في بلدي الأم سوريا. إذا كانت بنفسي حاجة ملحة الآن للتفكير قليلاً ومؤقتاً، في غير الأطفال المعذبين، المقتولين جسداً أو روحاً وعقلاً ونفساً في الأصقاع؛ وإذا كانت بنفسي حاجة ملحة الآن للتفكير قليلاً ومؤقتاً، في غير الأطفال الذين سيولدون، أو اللذين لم يُولدوا ولن؛ فإني أميل إلى التفكير في «الفراشة» مع الاستسلام لخفة ألوانها وبريقها السحريّ.

إن لحظةً خلاّقة، تكون أحياناً أهم بما لا يقاس من دهرٍ «ممعوس وبلا طعمة». على مقعدٍ وحيد في حديقة «كولونيّة» هنا في مدينة كولونيا بغرب ألمانيا، كنتُ جالسة. عينايَ ذاهلتان تنظران في كل شيء ولا تريان شيئاً. فقط تريان أن لا شيء يستحق أن تعبّه. كنت ساهمة وغارقة في التفكير في اللاشيء، أشرد فيَّ ماضياً وحاضراً ومستقبلاً؛ فأكتئب. أشرد في المحيط فتزداد الكآبة. أكلّم الهواء والخواء. فجأةً هدَّتْ فراشة بجانبي على المقعد. راحت تنظر إليّ بعينين ساحرتين تطلان قليلاً من تحت خوذة من شأنها الوقاية من الصدمات، وراحت شفتاي تفترّان عن ابتسامة تتسع ببطء كذراعَي راقصة باليه تنفردان برقّة وترتفعان لتلتقيا فوق الرأس قبالة وجه

مرفوع كمثل بدر فضيّ. لم أنبس بكلمة، غير أني كنت أتلقى بحكمة وشغف كل ما كانت الفراشة ترسله من عينيها. كانت تقول: «لا شيء يستحق هذا الحزن المسكوب من عينيكِ». صرت أرقب وجهي في وجهها، فأرى كيف تودّع ملامحه حزنها وكآبتها، لتمتزج في ملامح البراءة والحب والسعادة القصوى. صار جمال وجهي الحقيقي يظهر من خلف القضبان، متوحداً وجمال وجه الفراشة. ما كنت لأتصور أنه صاف ورائق إلى هذا الحد!. وقبل أن تحطّ الفراشة على روحي مستولية عليها، كنت قد نسيت الدنيا وما عليها. نادتها أمها، فأحببتُ لو وسعني أن أُوقف الزمن، لكن الفراشة طارت مستسلمةً لنداء أمها في السرعة، بعدما دثّرت روحي ببريقها الدافيء. رافقتها عيناي في الرحيل، وظلت مشدوهتان إلى أن توارت عنهما. تمنيت أن أتحول إلى فراشة مثلها أرف وأحوم حولها على الدرب، قبل أن أستسلم أخيراً لوداعها، قائلةً في سرّي:»مع السلامة يا صديقة الوجود. فلتحرسكِ موسيقاه».

يحلو لي الآن ما دامت روحي تلتحف هناءة الفراشة، أن أشبك أجنحة رام وريان بجناحيها، وليكن (هذا النص) مرْجاً لهؤلاء الأطفال، ولكل الأطفال، يركضون فيه، يلعبون، يضحكون ويمرحون، فتتورّد معهم الملهاة الإنسانية الكبرى. يحلو لي الآن مذاق الحلويات الملونة الشهية التي كنت أوزعها خلسةً توزيعاً ماكراً في تجاويف صخرة تتوسط

الكرْم أمام بيتنا في سوريا، قبل أن أنده بصوت طفوليّ على طفلَي شقيقي ريونة ورمرومة: تعالا.. تعالا بسرعة وانظرا ماذا تركَ لكما الثعلب هنا. فيركضان تسابق أقدامهما الريح. يقفان أمام الصخرة، وبذهول يرنوان إلى الحلويات المختبئة. يلتفتان متسائلَين بمكر:أين الثعلب؟ ثم، وكمَن يستدرك أن الآن ليس وقت الأسئلة الماكرة، بل وقت التلذذ بالأطايب؛ يروحان يفتحان العلب والأكياس بفرح غامر، وربما يدور في ذهنيهما البرّاقين: «تباً لما يقولونه عن الثعلب»(وربما عن كل الحيوانات).

شيءٌ ما يجعل روحي تهتزّ الآن، وأنا أتأمل في «صندوق بريدنا» أنا وريونة حين كان في غمرة سنواته الأربع. صندوق بريدنا كان «تنَكة» عالقة بنزق فوق شجرة يابسة في الكرم خلف بيتنا. كنت أكتب بين الفينة والأخرى أسئلة على صفحات الورق، أضع إحداها سراً في «التنَكة»، ثم أقول لريونة: ما رأيك أن نلقي نظرة على صندوق بريدنا، لربما تكون البقرة قد تركت لنا رسالة ما؟. ذات مرة، فتحنا الرسالة فإذ بها تسأل:»ما الذي يميّز الإنسان عن باقي الكائنات؟»، ورحنا نهيم معاً في البحث عن إجابة، على مرأى ومسمع من شجرة ربما كان بريدنا المملوء أسئلة، يساندها لكي تقاوم اليباس.(إن ادّعيتُ لنفسي أن ثمة ما لن يفارقني يوماً، فليس عندي من سبب سوى تلك اللقطات).

إليكَ

يا الحب المحروق، الرسالة المضرّجة هذه. إليكَ أيها الحارق تكتب الهاربة، وعلى وجهها سيماء الزوبعة، من ضجيج الأيام ونزفها. بفستانها المسحور من أخضر وأسود هاربة، تاركة خلفها محض استطالةِ فستانٍ شاطحة شاطحة تشرقط الأرض من تحتها كلما مشت وحفّت. تقبّل جبينك بالكلمات الوادعة، وتضع في راحة ضميرك حرية قول ما تشاء وفعل ما تشاء حيال حرقك الظالم المؤلم المتألم. الهاربة هذه لن تستجدي غفرانك العزيز، لأنها الموقنة بأنك أرفع من كل استجداء، وأنبل من كل استحلاف.

***

للحب المحروق ملء الحق في الاعتراض على حرقه، والصراخ ملء البرّية وملء المدينة: فليُحرَق نقيضي اللدود. للمُضرِم الانحناء أمام الصراخ هذا، والطاعة دون قيد أو شرط. عيناكَ تدمعان وتلمعان أيها الحارق المحروق، الموهوب الواهب. قلبك يدمع. من طينة أنثوية أنتَ أيها الحب، على الرغم من تذكير أديمكَ(لمَ يذكّرونك وبتأنيث المَحبة يكتفون؟). أعجوبة أنثوية أنتَ، وإذ تشعلكَ الهاربة تشعل نفسها بخوراً. تشعل كينونتها وكونها، وتعفّر روحها بالعطر.

***

لكن مهلاً، تلك النار بالذات، أضرمَت في هشيم الحب لا الحب. الهشيم أديم. الأديم مذكَّر يغلّف ليحمي، ليخفي. الحب فحوى. انعتاق من المحدود والمؤقت. هو صعود بالأزرق إلى اللامتناهي، ونزول إلى المطلق بالألوان كلّها. نصرخ في هشيمكَ ناراً، لأن آذان هذا العالم الخسيس حقاً مقفلة بمحض القرار والخَيار. كل شيء أصم، وأنت الوحيد العادل العالم بالبواطن المبصِر المتبصر المنصت. نصرخ جرّاء سيرٍ وعرٍ في ممرٍّ ضيّق خانق بين هاوية قاتلة وجدار قاتل لهذا العالم. نصرخ ونحن نعاين بأمّ الفزع، الذاتَ وهي تتشلّق وتتهاوى كمثل قطعة عملاقة من جبل جليديّ شاهق. نصرخ من قبيل «المونة»، لأن «الفحوى» كمثل الأم الرؤوم التي «نفشّ خُلْقنا» فيها، وبعظَمة الحدس الصبّاريّ، والأشجار اليتيمة، وداليات العنب المهجورة، وحنين الخبز الناشف إلى اليدين الخشنتَين وعروقها النافرة عتَباً من كثرة ما حفرت وحفرت في الأرض بإيمان فلّاح نقيّ، فلم تجد، مع ذلك، كنزاً، وظلّ الخبز ناشفاً؛ نعلم علماً يقيناً أنك لن تزعل منّا مهما فعلنا، فأنت «العارف الأكبر» بطيبة قلب أولادكَ الساخطين الغاضبين. كيف لا تعرف، وأنت شعلة الروح الكليّ التي لا تغالب الحُلم! كيف لا تعرف وقد كنّا حتى الأمس القريب والبعيد نناجي السماء سويّاً، ونكلّم ريحاً تعصف ببيتٍ ريفيّ ناءٍ بلا نوافذ ولا أبواب: هبّي يا ريح. هبّي أكثر!

***

الطاعة كلّها لك، والسمع كلّه. والخشوع. وحاشا أن يكون ذلك للكذّابين والنسناسين والممالئين والمرائين والمنافقين، للمنكّلين بميزان العدل، لسماسرة القيم، لقطّاع الطرق والإرهابيين والظلاميين والطغاة والديكتاتوريين والمستبدين المجرمين المتواطئين الحاقدين الفاسدين المفسدين، للقتلة للسفلة، لمبرمي اتفاقات الحرق الحقيقيّ، للمتلذذين بأصوات قرقعة الجماجم وروائح الجثث والأنين العميق تحت الأنقاض وفوقها، لسادومازوشيات العبيد والأسياد. هؤلاء ستظل النار المقدَّسة(والشيطانية)، نار الثورة الحقة، تطاردهم إلى أبد الآبدين ولا رجوع. قريحة الثائرين والثائرات، الحقيقيين والحقيقيات لن تنصرف يوماً عن حب الحب، وكره الكره، ورشقِ الكارهين أينما انوجدوا، بالسهام المسمومة. لقد كفر الثائرون والثائرات، الحقيقيون والحقيقيات في كل شيء تقريباً، معتزّين بأنهم الملعونون المنبوذون جرّاء خروجهم على غريزة القطيع، (غير أن هؤلاء حتى الآن لم يستطيعوا أن يُحلّوا محلّ جلّ ما كفروا به دوافعَ جديدة للحياة والأفق)، وهنا ربما يكمن بيت القصيد وشُرفتُه وكرْمه.

***

من طبيعة الحب الحارق الأخضر عدم الاحتراق، فهو القوة اللامرئية

التي تحيي وتميت، تهمل ولا تمهل، تذيب فولاذ الجبابرة، توقد صقيع الروح وتخلق جناحَين. الحب الأخضر الحارق، عشق مشبوب الأوار. شعلة متقدة بلا هوادة. نار مقدسة (وشيطانية). حملقة في وجه النار. تفرّس في كل شيء، وفي اللاشيء خصوصاً. استيقاظ من رقاد عميق. تلفّع بالأسرار. مقارعة للعدم. فهل لحب كهذا أن يحترق؟!

سابعاً: وصيّتان

1

أيها المنتمون، هذا العالم، هو عالمنا أيضاً، ويجب أن تفهموا وتتفهموا أن ثمة لا منتمين حوله، ولا يريدون الانتماء. لماذا؟ لأنهم عشّاق حرية. أنا شخصياً «أنتمي» إلى اللامنتمين. أنا إنسانة حرة. امرأة حرة، وبعض من حريتي يكمن في كون«لادين لي». يزعجكم ألا يكون لي دين؟ حسناً، أنا ديني الحرية، والحرية ديني. هذا العالم هو عالم واللامنتمين في آنٍ واحد، فلِمَ يُراد اختزاله في «المنتمين» فحسب؟ ومَن قال إن السائد على حق وصواب دائماً؟ إن السائد بالنسبة إلي هو محض سلطة وتسلط، اختزال واختصار، سلب ونهب للأرواح الحرة المتفرّدة الفريدة المفرودة الأجنحة.

دائما تسألوني عن ديني، غالباً ما أجيب بأنه لا دين لي، وفي مرات قليلة أتهرّب من الإجابة اتقاء حقدكم وشروركم. ماذا أفعل لكم؟ أنا لست مسلمة ولا أحتاج إلى نصيحة. لست مسيحية ولا أحتاج إلى

نصيحة. لست يهودية ولا أحتاج إلى نصيحة. لست عَلَوية، لست درزية، لست شيعية، لست اسماعيلية، لست أزيدية...؛ ولا أحتاج إلى نصائح. أحتاج إلى حوار ذكي ندّي قائم على الاعتراف والاحترام المتبادلين. لا أدعو أحداً لكي يشبهني، فعلى مَن يدعونني لكي أشبهه أن يتوقف إذن.

يقلقكم وجود مَن ليس بـ«شيء ما»؟. يثير حفيظتكم الحر من كل تحديد وتصنيف وقولبة وهوية وإطار؟ لا مشكلة. لا تدفنوني في مقابركم إن شئتم. حياتكم مقبرة، فكيف موتكم؟ بعد موتي أطعموني للطيور، ليس أحبّ على قلبي من أن تقتاتني الطيور، أصلاً أنا وهي واحد. لا يعنيني أن أكون جثة تنوح حولها النسوة، وأن يجري «عَدّ فضائلي» وأنا مجرد جثة. لست «هدّافة»، ولا أفعل شيئاً من أجل الآخرة، ولا أحسب حساباً لا للعواقب ولا للموت. أنبثق. أفعل دوماً من أجل الحياة نفسها. آخذ الحياة في حد ذاتها ولذاتها بعين الاعتبار والاحترام. هل أقول لكم سراً؟ أكتب الآن وأنا أمشي. هذه هي الحياة: مشي دؤوب. هاكم سراً آخراً: أنا لا أزور الغابة من أجل الإفادة منها، ولا من أجل الحفاظ على الصحة، بل أزورها لأني أحبها، أتوحد معها وأنصت وما من جشع ولا طمع.

أنا حرة من الإلحاد حتى، ولا أصنّفني، فكفّوا عن سؤالي عن ديني، وعن تعنيفي في كون «لا دين لي». تستغربون بعنف، وتريدونني أن

أكون «شيئاً ما». وهل فرغتُ من معرفة «عُلا الحياة» لكي أتفرّغ لمعرفة ماذا أكون دينياً؟ لست أدري، وأزعم أن كل مَن يزعم أنه يدري، هو الجاهل الأكبر، وهو الخاسر الأكبر تالياً. أدري الآتي: حين يسلّم عليّ أحدهم قائلاً: «السلام عليكم»، أردّ من صميم قلبي:»وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته». «شرطي» الوحيد ها هنا هو أن يكون السلام منبثقاً، لا مفتَعَلاً.

لو كنت مسؤولة «مهمة « في منصب ما(وأنا لا أريد أن أكون مسؤولة عن غير نفسي في هذا العالم)، لكنتُ أدخلت كلمة free في كل «الوثائق» و»الثبوتيات» الرسمية، تكون بمثابة إجابة «تعرّف» بمَن هو حر من الدين، وحر من الزواج، وحر من كل شيء.

***

إليكم هذه الصرخة: أنا من «الأقليات» فعلاً. أنا من أحرار هذا العالم. لا أنطلق في الكتابة من «تفكيرٍ ضديّ»، ولستُ من كتّاب وكاتبات «الموضة» و»الدارج»، فقد أكتب مثلاً عن قضية ما، بعدما تكون قد تعتّقت حتى النبيذ الأصيل. كتاباتي حتماً لا تنطلق من الخارج، ولا تتبع أجندات، إنما هي إنصات دائم لصوت داخلي، يناديني في لحظة ما، فأكتب. هذا سرّ من أسرار روحي يصعب شرحه.

أصرخُ أيضاً: لقد اختبرتُ الكثير من شرور البشر، لكنّي لم أجد

أحطّ من الابتزاز والاستفزاز والجرّ المدروس إلى القاع الدنيء. وحيث إن الكائن البشري مليء بالأسرار وبالطاقات الكامنة الهائلة؛ فقد اكتشفتُ العديد من العلاجات السرّية لهذين الطرازين المنحطّين من الشرور أيّما انحطاط! ومرّنتُني على استخدامها، وأعدتُني إلى قمم القيم بعد كل جرّ وكل قاع. كيف؟ كالآتي مثلاً: كنتُ قد استعرتُ من المكتبة الرئيسة في «نويرماركت»، بوسط مدينة كولونيا، كتاب «تقاطع نيران/من يوميات الانتفاضة السورية» للكاتبة السورية سمر يزبك. وقد أذهلني التشابه بين يومياتي ويوميات هذه الكاتبة!

في حياتي، لا قوام ماديّاً لأصدقاء وصديقات. عندي أصدقاء وصديقات ليس من شأنهم أن يُعدّوا أو يُحصَروا، لكن كلّهم روحيّون وروحيّات. بعدما قرأت كتاب سمر، صارت هذه الكاتبة صديقتي الجديدة، ترافقني بشغف جيئة وذهاباً، تخففّ عني ثقلَ وحدةٍ نازفة، تشعر معي وأشعر معها، تبكي وأبكي، تغصّ وأغصّ، تشهق وأشهق، تحلّق وأحلّق.

ليس من منقذ حقيقي ومخلّص، كمِثل الأصدقاء والصديقات الروحين والروحيات، فإليكم هذا السر أيضاً: حين كنتُ في سوريا، على مشارف الانتحار أو الجنون، في الأيام العصيبة(وأكاد أقول أن الأيام هناك، كلّها عصيبة)، كان الأصدقاء والصديقات المتجلّين والمتجلّيات في كُتب، هو الإنقاذ الوحيد لي، في قبالة وحدة قاتلة

قاسيتُها(ولا أزال). وحدة امرأة قالت رأياً شجاعاً تؤمن به، وانحازت إلى الحرية المتجلّية في ثورة شعبية صارخة. انحازت إلى الحق لا القوة، إلى المُحقّين الرفيعين لا الظالمين التافهين، في قبالة نظام وطائفة ومجتمع و»أقارب». أجل الكتاب هو أروع حبيب، وأروع صديق. طوبى للكتاب.

2

إنْ شاءت الحياة التي أحبّها وأثق فيها أشدّ الثقة، أن تعيد كتابةَ كتابها هذا، فلتفعل، ولتكن الإعادة غير مكرورة، بل متفجّرة على طريقة الانفجار العظيم مثلاً، أعني ذاك الذي يُحكى أن جرّاءه نشأ الكون.

الفهرس

أولاً:من الصعق الأول الموغل.. 9

ذاكرة التفاصيل..9

هذا ما كان خلف السور...19

أنا وصديقي والجنون 28

أطلُّ من شرفتي وأنا أرشف النسيم وأدخّن الغيم 32

ثانياً: للمرآة 65

أميرة الصحراء...56

مونولوغ معلِّمة 63

امرأة المعنى 69

هذا ما حدث ذات ركوب لها في حافلة «أقلوية».............70

ديوتيما 79

ثالثاً: أنا.. هي 88

باقة حب لعيون أطفال درعا.......................................89

أولى محاولات نفث الروح في القانون 92

امرأة وطفل.......................................100
ثورتنا والعالم....................................103
جلسة 105
نقاش 108
في معسكر طلائع البعث...........................109
في المتجر...111
غرام وهيام 113
بعد الاعتصام 114
فرار لكنه انشقاق 115
إصرار 116
ناشطة ونازحة 117
في عشق الحياة 120
عشّ العصفور 122
صلخد...125
عن كذب الزغاريد وصدق البكاء....................129
عن حذف الواو وكسر الباء 132
بين وعد بالسلمية وتوعّد بالقتل 134

أبو خالد...136

حاجز «وطنيّ» لكنه شغلٌ طائفي مأجور....................138

أين البئر ودلوها؟!.......................................141

ومَن قال إن الأقليات يحميها التكفير الأسدي؟! 147

النوم على سرير الوجع 149

اللحظة الوعرة..157

انتقاد الذات...163

أيتها الزرقة، أيتها السماء، ارفعيني إليكِ....................166

رابعاً: من الصعق الثاني 171

فراق 171

على سيرة انتهاك الحياة الشخصية: 174

الجديلة 180

مرشّم...181

كرافانات..كرافانات.......................................183

النبض الخالد 186

إدارة انفعال 190

ومضتان عشبيّتان..194
الومضة الثانية: بالضوء سكبتُ الوضوء 198
رسائل منّي إليّ.......................................202
الرسالة والهدف 204
الشاويش 205
المدرسة الموصَدة والقلب المفتوح 206
أخذٌ وعطاء 209
الوردة...210
بائع العنب 211
بائع المناديل...212
انطلقي! 213
لماذا الرسائل منّي إليّ؟ 213
هكذا صرتُ سائحة حقاً! 214
على درب الأدب 225
أما في معبد نيحا 232
وحلمتُني في قريةٍ ولا في الأحلام 233
في متحف بيروت 239

قلعة البحر 241
صباح الفاكهة في حمّانا 244
خامساً: من الصعق الثالث 642
في سبيل زعزعة «كل شيء يسير على ما يرام» 248
اللاب توب» كان أيضاً صديقاً حميماً للأطفال.............. 251
أثينا 262
هكذا أندمج أنا أو أحاول 268
الحطّاب 269
امرأة elgnis 270
تفجيران 271
etaF 272
رايا 273
المعتِّم... 275
لحم الخنزير والذبح «الحلال» 276
الكرنفال... 277
إشارة المرور درسٌ في الأخلاق أيضاً............................. 279

التعلّم أهمّ من النصح 281

وجعٌ 283

خمس مفارَقات 285

هنا وهناك 288

رأي 289

مزعجون لا بدّ من إزعاجهم 290

تحذير! 292

عهدان 293

rewoP 294

الصغيرة 295

حول طاولة خشبية صغيرة مستديرة 297

في البساطة والهجران 301

جارة السماء 308

سادساً: رواق 223

وريقتان:

الوريقة الأولى: إلى ماريان اسماعيل 322

الوريقة الثانية:

الأمير ريان 326

الفراشة..331

إليكَ 334

سابعاً: وصيّتان.. 833